فاروق منيب

الأعمال الكاملة

المجلد الثاني

آدم الصغير



الأعمال الكاملة

فاروق منيب

المجلد الثانى

- آدم الصغير
- عابر وسبيل
- الجرح والوردة

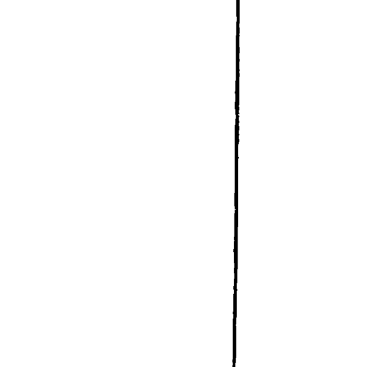
الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤

الاخراج الفنى : ماهر الشمسى

اهـــداء ...

الى ابنى خـالد .. وكل أطفـال العـالم





آدم الصغير ..



طـائر الأمـل

فى ذلك اليوم كانت بلدتنا تستعد لزواج ابن من ابنائها : سوف تزفه فى الليل ، تحمله بين يديها كبطل الأسـاطير . فهو فارس شجاع طالمـا حارب من أجلها فى الملمات .. . طعن فى صدره عديدا من الطعنات . ومع هذا فهو سـاذج رائق ، كشطرة السحابة البيضاء ، عميق عمق البحار . كانت سـاعات النهـار الشـتوى تمر بطيئة باردة متكاسلة ، كأنها لا تريد أن تخلى مكانهـا لزواج الفارس الحبيب ، لكن الشتاء بأعاصيره وأنوائه وسحاباته الداكنة يتوارى أمام أحلام بلدتنا الدافئة . فمنذ أن طلع النهار ، وهى تلتحف بمظلة من السرور والفرح البهيج . رذاذ المطر الذى ينزل عليها بركة وخيرا وفالا طيبا . فالعريس والعروس سوف يعيشان فى التبات والنبـات ، يتمتعان برزق وفير ، وأيـام سـعيدة . والشمس التى تطل من بين "سحب ، بين آونة واخرى ، تلقى اليهم بشعاعات حلوة كأنها أعقاد ذهبية ، تهديها الى العروس حتى تبدو فى الليل لامعة ، مجلوة ، مشعة . اما الأرض فتقدم هديتها الخصبة المراحة . هذا اللون الأخضر يفرشها كلها ، يستقبل خطوات القادمين العزيزين اللذين يشعلان شرارتهما فى عز الليل ،

فتخصب الحياة ، ويتولد كائن جديد . الرجال النساء والأطفال يمرحون فى البيوت وبين الحقول وفى الخلاء ، وطائر الأمل يرفرف فوق رءوسهم : أن طابت ليلتكم أيتها المخلوقات البشرية ، ولكم عندى مفاجأة لن أكشف عنها الا عند الفجر ، حيث أزور العروسين فى فراشهما ، وأشم رائحتهما المضمخة بعبير الهمسات والوشوشات والقبل ، ولن يرانى أحد أبدا ، فهذا سر بينى وبين نفسى ، ألا أفضح مسرات الآخرين وموداتهم وعشقهم ، سوف أنقر كل واحد منهما نقرة خفيفة ، تؤلم قليلا ، ولكنها قبلتى الصادقة فى حياة طيبة ، وأترك هديتى ببنهما ، ثم أطير على جناح السرعة الخفاقة .

كان الهواء فى بلدتنا يتشبع بشحنات فياضة من الانتظار الآمل الوديع ، مصحوبا بخشية واجفة يعرفها الفلاحون جيدا عندما يضحكون أو يبتهجون ، فهم يشهقون بعد كل ضحكة أو تفاؤل ، اللهم اجعله خيرا . وكلما دنا الليل ، كبرت هذه الخشية ، وضغطت على الصدور ، نافذة الى القلوب ، محذرة ، أن خففوا من رحيق الانطلاق الذى لا حدود له . وها هى ذى الشمس تغيب عند أفقها القانى ، ويزداد رذاذ المطر شيئا فشيئا الى أن يصبح مطرا حقيقيا . ثم يتساقط الثلج فى حجم كرات صغيرة على الرءوس . ويتعجب الفلاحون ؛ فمنذ زمن بعيد لم يروا هذا الغضب الالهى العاصف . وهم لا يعترضون عليه . فاللهم لا اعتراض ولا مانع ، ولكنهم كانوا يتمنون أن يؤجل الى وقت آخر . وحين خرج العريس من حمامه عند أحد الأصدقاء ، كانوا يحملونه على أكفهم ، متحدين به الأعداء والمجهول ، أركبوه مهرا أصيلا ليلفوا به البلدة ، وكلهم وراءه تدمى أيديهم وحناجرهم من التصفيق والغناء :

ــ وفرش منديله ع الرمله .. والحلوة تجيله ع الرمله ..

ظلوا يتناغمون ويتمايلون ويهزون الكون بأصـــواتهم القوية العارمة حتى تعبت منهم الحناجر والأكف والأجساد ، فسكتوا دفعة واحدة ، فخيمت عليهم كآبة غريبة . لم يعرفوا مصـــدرها المفـــاجىء . كآبة قديمة مزمنة من آلاف السنين ، تصنع منهم الأنفاس والتأملات والهواجس والظنون .. حاولوا ان يصرعوها ، فدقوا الأرض بأقدامهم متحمسين :

ـ خلينا هنا للصباح .. خلينا هنا للصباح ...

تطلعوا الى وجـــه العريس ، ربما وجـــدوا فيه الســـلوى أو العزم او التفاؤل ، فوجدوه كابيا مضطربا يسوده ذعر خاطف.. غمزوا مهره الشقى ، فضحك هو ضحكة هشة ، بانت فيها حبال صـــوته الأجش المفتت الضعيف . وســـكتوا مرة أخرى ، فعلت أصوات الطلقات النارية فى الهواء تحاول اعلان بدء الفرح الحقيقى الذى لا رجوع فيه . كانت هذه الطلقات بمثابة طلقات الاطمئنان الأبدى ، بأن شيئا فى أعماقهم لابد أن ينطلق وينفجر ، وبدأت حالة التوتر تنسحب بهدوء ، لتحل محلها زغاريد النساء والبنات الريانة الغضة ، وانحسرت موجة المطر عن البلدة بعد أن اغتسلت من ذنوبها ودنسها . وتهادت العروس على جملها فى هودجها ، ووراءها الذيول المضمخـــة بالعطر والسرور . وحمـــل العريس عروسه وسط حلبة من المهنئين . واستعاد الشيوخ أيامهم الماضية، والزهو يشمخ فى اعطافهم ، فكل منهم قد فعلها ليلة ما . وسرحت البنات فى احـــلام مستقبلة عن الفـــارس الحبيب الذى ســـوف يحملهن بين يديه الحنونتين القويتين فى ليلة ما . تطلعن بنصف او ربع عين ، لكنهـــن راين ما لم يره من امعن ببصره طويـــلا . أما النســـاء المتزوجات ، فان قلوبهن كانت تضطرم بالحســـد

الطيب للعروس . فلقد ضاعت ليلتهن ولن تعود ، ولم يبق لهن الا الذكرى الدافئة ، يستعدنها كلما حمل يمام يمامته وطار بهـا بعيدا يناغيها ويلاعبها .

وبدأت السماء تترصع بالنجوم الماسية الدقيقة ، فعوضت أعقاد شمس النهار الغاربة . وانحنت الظلمة تغطى البلدة ، الا فنارتين عاليتين ، تشعان النور فى كل مكان . قاعة العروس حيث يحيط بها الأهل والأحباء والصديقات ، وهـذا الصيوان الذى انتصب فى عز الليل ، فأشعل وهجا كبيرا ، يعلن عن لعبة الانسان الخالدة . كان ياما كان فى سالف العصر والأوان ، محبان خليلان ، قابلتهما محن وآلام ، ثم تزوجا بعد مدة من الزمان ، وعاشا فى سلام وأمان ، وانجبا صبيانا وبنات .

وراحت الغزية تتلوى شبه عارية أمام المتفرجين كالجنية المسحورة تغوص فى البحر ، ثم تطفو متماوجة سابحة متثاقلة .. تلقى اليهم بمحمل صدرها ثم تسحبه ، خفيفة غليظة حالمة .. يتقدمون اليها قافزين ، طابعين على جبهتها وخديها أوراق الخمسات والعشرات ، الى أن يبلغوا الذروة . ويناديها واحد منهم ، ويلعلع بيده الجنيه ، كقطعة المغمطيس ، فتخرج من بحرها اليه ، تغازله وتحاوره وتداوره الى أن تلتقط غذاءها منه ، ثم تعود تتقافز وتغوص وتتموج مع التيار . والسماء توشك أن تنتهى من غزل ثوب العروس المرصع بآلاف القطع الماسية . توشيه بالدانتلا والقطيفة ، تعطيه اللون العسلى الذى تفضله الفلاحات ، اللون الأسود الداكن . ولم تنس أن تعرض عينة بين آونة وأخرى ، فقد كانت شرارات الشهب تنطلق فى السماء .. ويدنو ميعاد طائر الأمل الموعود ، فتلبس العروس أحلى الثياب ،

وتتعطر بأروع العطر ، وتجهز لفارسها ثيابه أيضا ، ثم تطمئن على غذائه الموفور ، حتى يلقاها وهو شبعان ريان ، معتدل المزاج، وكان هو بالخارج . معفر الجبين . تائه النظرات . لا يدرى سر الغم الذى حط عليه . من أين جاءه ومتى ينزاح عن كاهله ؟ ربما لأنه يفكر فى ديونه ، وربما لأنه متعب ، متوعك النفس ، يريد أن يستريح . فهو يجاهد الألم والتعب ليبدو سعيدا مستبشرا راضيا . وتبزغ فى الجو باردة سوء . رأى صبيا يوشوش أباه .. ولعبت به الهواجس . فطالما انقلبت هذه الوشوشات الهامسة الى أحداث سخيفة . ربما كانت تمهيدا لخناقة قديمة تريد أن تجدد نفسها بعد طول ركود ، أو ربما كانت بداية أنباء سخيفة ، تبغى فرض ارادتها عليهم ، وربما لا تعدو ملاحظة عابرة من عشرات الملاحظات التى تلقى فى الأفراح ، ولكنه يدرك بحدسه أن لا خير وراء هذا الهمس الغريب . وجرى الى أبيه مستفسرا :

ـ ماذا حدث ؟ !

قال الأب :

ـ لا شىء .

ردد بعصبية :

ـ ارجوك ...

بلع الأب ريقه فى هدوء :

ـ نريد أن نفض الصيوان ...

سأل العريس :

ـ لم ؟ ! .

رد الأب فى خشوع :

ـ ابنة عبد المطلب تموت .

وارتجف الابن :

ـ ربما يقدر الله لها الحياة ...

لكن الأب همس فى حسم :

ـ لا فائــدة ...

ورجا العريس اباه :

ـ مالنا ومال عبد المطلب ؟ !

زعــق الأب :

ـ لا تنطق حرفا ..

وظل الصيوان يشع الوهج فى قلب الليل ، متجـاهلا النبأ السيىء .

***

كانت فتحية ابنة عبد المطلب قد أصابها لطف منذ سنوات. لم يعرف أحد مصدره ، ظلت سنوات طوالا تتقيأ كل طعام ينزل الى جوفها . يقولون ان هذه الحالة اصابتها منذ الليلة الأولى لزواجها من ابن عمها . قضت ساعاتها الوحشية معه فى الليل ، ثم قامت فى الصباح تمسك أحشاءها من الألم . وعرضها ابوها على سبعة أطباء ، كتبوا له سبعا وسبعين بطاقة دواء . اضطربت التحاليل والتشخيصات المتناقضة ... فى بداية الأمر قال الحكماء

الشعبيون .. انه عمل ، يرقد تحت أرض قاعتها .. لابد من انتزاعه حتى تشفى .. وقال الأطباء الرسميون .. انها مصابة بقرحة فى المعدة .. لا .. بل هى مصابة بتليف فى الكبد .. لا .. عندها حالة عصبية من جراء زواجها ممن لا تحب . واخيرا احتجزوها بقسم السرطان لاجراء عمليتين ، احداهما تحتاج الى تغذية حتى تستطيع تحملها ، أما الأخرى فمترتبة على نجاح الأولى . وبعد ايام عادوا وقرروا انه ليس سرطانا..ثم اختلفوا.. ثم اتفقوا .. ثم .. الى أن هربت ذات ليلة عائدة الى البلدة .

***

وفجأة تنطلق صرخة تضع نهاية للآلام المزمنة . وصرخة وراء صرخة ، ينفجر نهر الأحزان تجاه الأفراح .. وتتلاطم الأمواج ، لا يعرف احد كيف يصدها . يختلط الماء العذب الريان بالماء المالح ذى المذاق المر .. وتتوحد الأسماك والحيوانات والقواقع والديدان والطيور فى نهر واحد .. لكن الصراع لم يختف بعد ، قال الأب :

ـ ايها الجمع .. ارجوكم أن تقدروا مشاعر ...

قال الجمع :

ـ نحن نقدر احزان عبد المطلب ...

قال الأب :

ـ اذن ..

قالوا :

ــ لم نأخذ حظنا من الفرح بعد ..

قــال الأب :

ــ اخذتم نصيبكم وكفى ...

قال العريس :

ــ يا رجــال ..

ولم يكمــل .. فقد هبطت النفوس الى القــاع . ووقفت الغزية عارية كالتمثال الشمعى الساقط عليه الندى ، لا تتفوه بشيء .. تجمدت عضــلاتها وجسدها اللزج الرجراج .. وسكنت الآلات النحاسية مع الكورس فى شبه ذهول . وكان صاحب الذروة يستعد بجنيه آخر ، فصمت يائســا ، يكتم ضيقه وهمــه . واقترح الأب :

ــ سوف نحول هذا الصيوان الى صيوان عزاء ...

وعلت الاستـسفارات المندهشة على الشفاه :

ــ كيف ؟ !

قــال الأب :

ــ ان حرمة الميت اقوى من حرمة الحى ...

قال العريس :

ــ ولكن ؟ ! .

ولم يتلق جوابا .

واضاف الأب :

يمكنكم ان تنتقلوا الى البيت .. و ...

وتسلل خيط من الأمــل الواهن الى قــلوب المبتهجين ، فلا بأس أن يهربوا بجلدهم .. فان لم يستطيعوا أن يواصــلوا سرورهم ، فسوف يختفون عن أعين الموت ؛ أو فليستقبلوا الموت والحياة على حد ســواء . وعاد اليهم احباطهم وتأنيب ضميرهم القديم ، فلو لم يستبشروا كل هــذه البشرى ، ولو لم يفتحوا للأرض والسماء والمخلوقات أذرعهم المرحبة الودودة ، فلربمــا مرت الليلة بسلام . فقد جربوا فى مرات سابقة ان يفرحوا ، ولكنهم وفى عز نشوتهم ، تدهممهم الكآبات القديمــة ، فيعودون سيرتهم الأولى . حيث عروق التشاؤم والهزائم والشكوك التى تكون تربتهم . ومع هــذا ، فقد بزغ وجه العريس من بينهم مشرقا لأول مرة .. قال :

والحــل يا رجــال ؟ .

قال صاحب الذروة :

ـ لنبق فى الصيوان مع جنيتنا المسحورة الى الصباح .

واخرج من جيبه أوراقه المــالية ليفاخر بها ، فهبت فيه الأصــوات :

ـ وفر نقودك لنفسك ...

وتمتمت مجموعة :

ـ لنذهب الى البيت ...

واخــرى :

ـ بل الى بلدة مجاورة ...

وتختلط الآراء كحلى الذهب الأصيلة مع الأخرى المزيفة ، بعضها يريد المتعة وليكن ما يكون ، وبعضها يريد المتعة ايضا ، ولكن الألم ومفاجأة الموت توقظ فيه الأشجان الوجلة . فمن يضمن الأيام القادمة ؟ ... وكل واحد منهم يطوى جرحه فى داخله ، وقد تصيبه الجراح القادمات . لو طاعوا عقولهم ، لفضلوا مشاركة عبد المطلب أحزانه ، ولكن نبض قلوبهم مع لحظة الفرح الحاضرة . فساعات الحزن جربوها وعاشوها بالأيام والشهور والسنين . أما لحظات الفرح فهى ضنينة شحيحة . لا تجىء الا بشق الأنفس كليالى القدر التى يسمعون عنها دون أن يروها ، ينتظرونها بالأكف الضارعات ، والصدور الواجفة ، والعيون المتطلعة ، دون أن تشرق عليهم أبدا . وياطالما بحلقوا فى السماء والآمال تحدوهم . وياطالما تعبوا من طول الوقوف ، ولكنهم فى النهاية لا يجدون سوى الأرض يعودون اليها. هذه التشققات تدمى منهم الأصابع والأكف ، تريد ريا دائما ، كأنها لم تذق طعم الماء طول عمرها .. وهذه الهضاب الصغيرة تحتاج الى معالجة حكيمة ، تستنفد منهم الجهد والعرق والدم .. وها هى ذى السماء تخدعهم ، فلقد ظنوا انها تشاركهم الأفراح والمسرات ، فاذا هى تتنكر لما وعدت به .. تلقى بكرات ثلجها وبردها على مظلة انسهم وطربهم . واذن فليتمسكوا بهذه الحزم الصغيرة من الضياء ، وليجاهدوا حتى لا تطفئها الأنوار والأعاصير ، فصمت الفضاء المتجهم يحمل اليهم الولولات والعديد المنبعث من قاعة الموت المشئومة . وموجات الأثير تتشبع رويدا رويدا بشحنات النكد والعويل والقنوط الصابر الوديع ، تطغى ، بل تهزم شحنات الفرح والسرور ، وشرارات الحياة المرتفعة فى بيت العريس .

فعما قليل ، لو لم تمت فتحية كانت خطوات العريس سوف تدب على ارض حياته الجديدة ، وسوف تتلاقى الأيدى مع الأيدى ، والأفواه مع الأفواه ، والصدور مع الصدور . المهم ان تتناغى الأرواح ، وتتعاقب المناجاة والدفء والالتحام الانسانى الخالد ، فلن يكونا بمفرديهما على فراشهما ، انما تشملهما الأيدى والأرواح المحبة الأليفة ، تساعدهما ، وتقدم لهما قوارير المشروبات المسحورة ، ولكن ويا للحسرة .. لطخت الشخبطاء الصورة ، وانهم ليجاهدون الآن حتى يواصلوا المسيرة .. يتسللون الواحد بعد الآخر من الصيوان ، بل منهم من فضل البقاء ليؤدى واجب العزاء . وهجعت بلدتنا فى شبه حياد أزلى ، تعرفه منذ آلاف السنين ، فالموت كالحياة وشيء بسيط أن يولد مخلوق ، ثم يتزوج . وشيء اكثر بساطة ان يموت . ولكن موت الليلة يترك بصماته على وجوههم ، فلا يستطيعون الخلاص من أسره ، لأنه زحف عليهم فجأة رغم انهم كانوا يشمون رائحته فى بيت عبد المطلب منذ زمن بعيد . ومع هذا ، فقد استغربوه واستفز عنادهم ، حين دهمهم . فأحدث فى جدار فرحهم شرخا ، من العسير أن يندمل . وجعل يطاردهم الى كل مكان يذهبون اليه ، حيث استقروا فى بيت العريس ، والفزية فى وسطهم ، ولكنه يرسل سحاباته المتكدرة ، غير المرئية اليهم . فتقطع المتعة بين الحين والآخر ، تتراشق آذانهم أصوات الندب وطلقات الرصاص والزغاريد ، ثم تنجلى الضجة عن لا شيء ، فلا هم يفرحون ولا هم يحزنون .

وفى النهاية لم يجدوا مفرا من التسليم بعد المحاولات المضنية . فقد تزايلت الفزية من فوق عرشها ، منسحبة الى شاطىء الأمان قبل أن يبتلعها الطوفان . وتناقلت العيون نظرات

الحيرة والقلق واللاجـدوى . ومصمصت بعض الشـفاه علامـة الحسرة على الليلة الضائعة ، وتوارت حلقات السرور ، وحزم البهجة أمام كتلة الموت الجامدة المريرة .

***

غير أنه حين طلع الصباح على بلدتنا كان العروسان يحكيان عن طائر الأمل الموعود الذى زارهما فى فراشهما ، وهما لا يزالان مستيقظين ساهدين قرب الفجر . يقولان : انهما بعد أن طعمـا وشربا ، وتبادلا الأحضان والقبل والوشوشات ، شعرا به يضيء قاعتهما بضياء وردى خافت ، ثم نقر كلا منهمـا نقرة خفيفـة كالطيف ، ثم همس لهما فى حنان :

ــ لا تخافا ... كانت ليلة قاسية ...

قالا له :

ــ من انت ؟ !

قـال :

ــ أنا .. لا يهم ...

والقى بينهما هديته ثم غاب . ثم بدآ نوما عميقـا مليئـا بالأحـلام ...

***

وحين تمر الأيام تلو الأيام يسـأل أهل بلدتنا العروسـين عن سر تلك الهدية ، ولكنهمـا لا يفصحان عن شيء ، يكتفيـان بالايماءة الخجلة السعيدة المتفائلة .

فى أحضـان الصباح

عند اولى خطواتى على أرضها . كنت أحوم حول بيتنـا القديم . الأرض المالحة ما زالت تطفح باللون الأبيض ، والمرتفعات والمنخفضـات لم تتغير . شـعرت أنى اقتربت من معبد مهجور تعيش فيه العائلة على الذكريات وحدها . شبورة الصباح تكتنف الرؤية الصافية ، وكل شيء هاجع لايريم . تعثرت قدماى بشيء ، فانحنيت التقطه . زلطة عادية ، لونها رمادى باهت . وجدتنى اقبلها وجها لظهر . شعرت بها كأعظم قطعة ذهب فى العالم ، ذرة من كيانى ، لكم لعبنا بالزلط والطوب والحصى . كان الصـباح يولد ، والندى الأبيض المندوف يغطى رءوس الشـجر ومساحات الزرع الخضراء . وثمة برودة خفيفة تدغدغ الوجه . كنت أجوس فى الشبورة كأنى أجوس فى ثوب حريرى ، متشابك الخيوط . ليس من صـنع الانسـان . وانما من صنع دودة القز نفسـها يخشخش على غير العادة ، حرير خشن . مددت يدى لأقبض عليه ، فاذا الفراغ فى كفى . ضحكت بصوت عال ، قلت فى نفسى :

ـ يا لك من ساذج ! .

جاءنى صوت أبى من داخل البيت بعد أن نبحت الكلاب :

ـ يا فتـاح يا عليم ، يا رزاق يا كريم ، خير اللهم اجعله خـير .

نبراته تندلق فى صدرى كحباب الطمأنينة . منذ مدة لم ترن حلاوته فى أذنى . صـوت مفتوح طيب ، متهدج الأوتـار ، متدفق العواطف ، زاخر بخبرة الزمن وحكمته ، يحمل فى اعماقه ظلمه وجهامته ، بحبوح رغم الأسى والعذاب ، متسامح منفرج رغم الانقباض ، يمد حبال الود عبر عثرات البغض والأزمات . حسر عنى صـوت الكلاب . لمحت فلاحا عجوزا يقف فى حقله ، يشمر جلبابه الى ركبتيه قلت له :

ـ صباح الخير .

قـال :

ـ صباح الخير يا ولدى .

سألته والشفقة تأخذنى عليه .

ـ اما آن أن تستريح يا عمى ؟ !

قـال :

ـ راحتنا فى أن نجعل هذه الأرض تنتج أكثر .

ـ ولم لا يساعدك الأولاد ؟ .

ـ الأولاد لا يزالون نائمين . ان جيل هـذه الأيام جيل خرع لا يتحمل المتاعب .

وضرب الأرض بالفأس فاندفعت المياه كالأفعى . فى هــذا البكور اللطيف تشتاق الأرض العطشى للميـــاه كما تشتاق الأنثى الخجول الى زوجها . اخصاب ممتع يحدث فى كل صـــباح قبل ان يستيقظ النيام .

هتف الفلاح العجوز :

ــ هل انت من هذه البلدة ؟ !

قــلت :

ــ اصلى من هنا .

قــال :

ــ طيب واين تقيم الآن ؟ .

ــ هنــاك فى المدينة .

تمتم فى حزن :

ــ آه تأكل البسـبوسـة والبقلاوة ! .

ابتسمت وانا أرى ضحكة تريد أن تنطلق تملأ الفم :

ــ نحن نأكل كما تأكلون .

قــال :

ــ من زمان ونفسى فى البسبوسة ، لا أدرى لمــاذا ؟ ! .

قــلت :

فى زيارتى القادمة ان شاء الله احضرها لك .

قــال :

ـ لا ... كله كلام ... انتم تأخذون اكثر مما تعطون .

ـ أنت تسيء الظن ، على كل حال ، كيف اساعدك الآن .

ـ انا لا اطلب مساعدة ما دام فى قلب ينبض ، هل صدقت انى أريد أن آكل البسبوسة حقا ؟ ! .

وعاد صوت أبى يتدحرج الى عبر النسمات الباردة :

ـ اين عدة القهوة يا اولاد ؟ ... اتعبتمونى يا عفاريت .

كنت قريبا من بيتنا ، تطاولنى فروع شجرة الجميز العتيقة امامه ، ثابتة كالطود ، تضرب بجذورها رغم ملوحة الأرض المزمنة . خبطتها بيدى اسلم عليها :

ـ كيف الأحوال ؟ .

قالت :

ـ لا بأس .

ـ مالك ؟ ! .

ـ لا شيء .

ـ لست كعادتك .

قالت :

ـ هل تريدنى ان ارقص فى الفضاء ؟ !

قلت :

ـ اراك متجهمة .

ـ لا جديد فى ذلك . طول عمرى وانا على هذه الحال .

ـ فى المــاضى كنت تحتضنيننا ونحن صغار ، أما الآن ؟ !

قــالت :

ـ ابدا ، لم يتغير فى الأمرء شىء ، على اســتعداد لأن اقبلك واحتضنك : ذكرياتك ما زالت محفورة على جلدى .. انظر ! ..

واشارت بأحد فروعها الى جذعها :

ـ أليس هذا اسمك ؟ !

حلقت وانا ارتعش من العودة الى المــاضى :

نعــم :

قــالت :

ـ فى بداية تعلمك القراءة والكتابــة وانت طفل ، لسانك يتلعثم فى ترديد الحروف ـ ا ـ ب ـ ت ... ألف همزة وفتحة أ ، ز فتحة ز ، ر فتحة ر ، ع فتحة ع ، زرع ، زرع . كانت الحروف بكرا طازجة ، رديئــة التكوين ، معوجة ، لكنها صلبة العود ، عميقة الغور فى اللحاء الأخضر الحى . تصورتها تهمس فى وجهى معاتبة :

ـ اين انت من زمان ، اهكذا تخطفك منا الأيام ؟ ! .

لم استطع ان ارد .. حطت على غمة كئيبة افعمت روحى بخيبة الرجاء . لا فائدة من المقاومة . تقدمت الى باب البيت اطرقه وانا حزين ، يقفز قلبى فى صــدرى كالعصفور المكســور الجناح . لمحت عليه شخبطاتى القديمة . مرة أخرى تطالعنى الحروف ، نفس الحروف ، ا ... ب ... ت ألف همزة وفتحة

أ ... اشحت بوجهى عنهـا الى داخل البيت الذى رايته عبر فرجات الباب الواسعة الحجرات التى شرعنا فى بنائها منذ سنوات لم تكتمل بعد . ظلت ساكنة مستضعفة كمشروعات طموحـة أصابها الفشل . هبت الكلاب مذعورة تريد افتراسى . خرج أبى يخب فى عباءته السـوداء . احتضننى فى صدره ، فاستكنت براسى تحت جناحيه كالكتكوت عندما يرقد تحت ريش امه . كانت طمأنينـة العالم كلها تتكثف فى هـذا الحضـن الدافىء . تعجبت من أمر الكلاب التى كفت عن النباح . وجدتها تاتف حولى ، تشمنى وتدخل بين ساقى فرحة ودودة تتناغى كالأطفال عندما يجدون آباءهم بعد غياب طويل ، متجاوبة مع تهدج أبى .. صمتنا جميعا فى لحظة خاطفـة ، انا وأبى والكلاب . تجاوبت نظراتنا فى عتاب رقيق ، لم نرد أن نفصح عنه ، لكنى عدت بعد فترة اقول :

ـ وحشتمونى جدا .

قالت الشجرة وكان الندى قد بدأ يسيل على وجناتها :

ـ وأنت والله ، وحشتنا جدا .

وقال ابى :

ـ لا تخدعك كلماته ، انه ابن عاق ينسى منبعه .

قـلت :

ـ تظلمنى يا أبى .

قـال :

ـ لم اظلمك ، أنت الذى تظلم نفسـك ، هل تترك جوهرتك الضائعة لتبحث عن صفيح الآخرين ؟ !

ـ يجرفنى التيار غصبا عنى فى بعض الأحيان .

ـ حجة قديمة ، تلجأ اليها حينما تريد أن تدلس..هه ؟!

قالت الشجرة باحتجاج :

ـ نحن نكره التدليس ، عش معنا صادقا نعش معك ! .

قلت :

ـ تخطئون فهمى .

قالت الشجرة وهى تكتم الغيظ :

ـ بعد لحظة سوف تتحدث عن الضياع والقلق والآمال التى فرت من بين يديك بعد طول انتظار .

قلت :

ـ تخمنين أكثر مما ينبغى .

قالت :

ـ اخمن او لا اخمن .. لقد انكشفت الحكاية ...

وقال ابى :

ـ لا تغضب .. هذه الشجرة تحبك .. فتقبل حديثها عن طيب خاطر .

قلت :

ـ لم ارتكب جرما حتى اعاقب عليه .

قال :

ـ اكبر الجرائم التى ترتكب دون أن نشعر بها هى العقوق

وعدم الوفاء .. يحدث ذلك بحجـة المشغولية . هل يستطيع الرضيع أن ينسى ثدى امه ؟ ! .

قلت وانا ضجر :

ـ لم انس بلدى ابدا .

ـ طيب .. متى كانت آخر زيارة لها ؟ ! ..

ـ منذ خمس سنوات تقريبا .

قال ابى والسخرية على طرف لسانه :

وطبعا عدت الى المدينـة ومعك اللحم والزبد والفاكهـة والذكريات المسلية التى تحكيها للأصدقاء .. اليس كذلك ؟ !

ـ ......

ـ تكلم ، هل هناك ما يدعو الى الصمت ؟ !

ـ لا شيء .

قالت الشجرة :

ـ ليعد ومعه كل ما يريد ... ليست هـذه القضية ... ولكن ...

قال ابى :

ـ آه ... لتعرف انك تستطيع ان تحصل من المحبوب على كل ما تريد ، ولكن عليك أن ترد له الجميل ، أن تحبه مثلما يحبك ، ربما بزيارة ود ، أو كلمة خير ، أو تنوير عقل ، أو تطبيب جرح طال علاجه .

وسكت وانا احاول الخلاص من شعور الذنب القـاتل . خفضت بصرى الى الأرض . كنت اغالب السقوط ، فارتفقت

احد الجدران الذى لم يكمل بناؤه . تهادى الى صــوت طيفى هامس نابع من اعماقى : هذه البلدة أرضعتنى أصـــالة ووفاء ونقاء وانا صغير ، ثم خلقت منى صاحب دعوة ورسالة حينمـا كبرت ، افضج بعتابها هــذه اللحظات ؟ ! . انه ليس أبى الذى يتكلم ، ولا شجرة الجميز ولا الحروف . انها بلدتى كلها ، شجرها وزرعها ، مياهها وثمرها ، أحزانها ومشاكلهـا التى توغل فى السنين ، أفراحها التى تتسلل هاربة من الخجل والحياء . هذا الصباح الندى اللطيف الذى عشته ينقصه لفح الهجير وبرد طوبة ورياح الخماسين . كم غبت عنهـا مرات ومرات ، فلم تعرف الغضب أو العتاب او النفور . دائما كانت تستقبلنى بذراعيهـا المفتوحتين الحنونتين كالأم الرءوم ، يفتر ثغرها الطيب عن ابتسامة تواسى الجراح ، تحـاول انتزاعى من عالمى الرحب الفياض ، يا طالمـا همست لى : يا بنى العزيز ، يا فلذة كبدى ، تقبل همومك بصـــدر عنيد صبور ، لأن غيرك يعانى فى صمت لا يشكو ولا يضيق ولا يتألم . يتلقى الضربات ، لكنه يصـارع ويقاتل ، ثم لا يملك فى النهاية الا أن يقول : لست وحدى . تقدمت نحو شجرة الجميز اعتذر لها عما بدر منى ، فسقطت ثمرة على رأسى كان لونها ورديا شفافا كلون قطعـة القطيفة الناعمة ، يقسمها فالج بدائى كالفالج الذى نعرفه فى شفاه نساء افريقيا عند خط الاستواء . طوحتها الى فوق ، ثم تلقيتها فى كفى وانا أكاد أطير بها من الفرح . قضمت منها قضمة الدبلة . طعمها ليس حلوا ، بل ماسخا بعض الشىء ، ليست خوخا ولا رمانا ولا مانجو ، ومع ذلك كان طعمها فى فمى أحلى من العســل والسكر ، فأن نجود بعد العتاب ، وأن نعطى ونحن نتعارك ، فهذا هو الشىء الحلو حقا . قلت وانا أملس على خدها المتغضن العجوز :

ـ اما زلت غضبى ؟ ! .

قــالت :

ـ لم أتعود ان اغضب من أحد ابدا .

قــلت :

ـ لا اريد أن اغمض جفنى فى الليل الا وانت راضية عنى

قــالت :

ـ لست مشعوذة حتى تطلب منى الرضى بهذه الطريقة . المســألة . . .

ـ المسألة . . . ما هى ؟ ! ارجوك ؟ !

ـ بصراحــة ؟ .

ـ بكل صراحة .

ـ انت تهرب من نفسك .

قلت وقد أدركت مغزى كلامها :

ـ فى نيتى ان احقق ما تشاءين .

قــالت :

ـ وابــوك ؟ ! .

قــلت :

ـ ها هو امامي ، يطلب ما يريد .

قــال ابى :

ـ لا نريد منك شيئا ، بل نحن مستعدون لأن نعطيك لآخر قطرة من دمائنا ، تعال أولا نشرب القهوة مع أمنا الجميزة .

وجلس القرفصاء كالكاتب المصرى القديم ، يشعل النار فى حفرة أمامه ، فارتفعت ألسنة اللهب كقوس قزح لها عدة ألوان ، الأزرق والأحمر والأبيض . وبدأ أبى يحكى لى قصة بلدنا من أولها الى آخرها ، وأنا أتأمل الوجود من حولى .

فى المشرق كانت الشمس تتفتح على استحياء . وقمم أشجار الكافور العالية تحاول أن تحجبها ، والترعة الصغيرة أمام بيتنا ساكنة المياه ، لكن السمك الصغير يتقافز على سطحها فىطيش ورعونة وخوف ، وفلاح يسجد فى المصلى حمدا لله وشكرا . وشىء ما ، دقيق ورقيق لا أستطيع أن أدرك كنهه ، يمتص التمرد من النفس والاستعلاء من القلب . هنا أصبحت أمام حقيقتى الأولى ، التراب والهواء والنار والمياه . شعرت انى أعيش فى تيه كبير لا يشاركنى فيه أحد . وجدت قامتى التقليدية تطول وتطول . قدماى مغروستان فى الطين الأزلى الذى صنع منه الانسان الأول ، ورأسى هناك .. بعيدا .. بعيدا ، ترتفع الى أعلى درجات السماء ، تحلق وتجوب الآفاق ، وذراعاى مفرودتان الى النهاية ، تحتضنان الدنيا كلها ، صدرى يتنفس هواء نقيا منعشا . بعد طول انتظار لا يعكره الكدر أو الأحزان الصغيرة او الحقد . أصبحت كالعملاق الأسطورى السجين الذى يريد أن يحطم قوقعته المملة حتى يخرج الى الفيض اللانهائى . أصابعى تطبطب على الطيور وهى مستكنة فى أعشاشها على قمم

الأشجار وبين فروعها ؛ أهمس لها أن نامى فى سلام ، لا تخافى ولا تحزنى ، بل قرى عينـــا . أمد أصـــابعى الى قامات الزرع المحنية ، أرفع رءوسها الكابية المطرقة . أساعدها على التنفس ومواجهة الشمس البازغة . فى النهاية وجدتنى أهتف بصــوت أريد أن يصل الى كل آذان الدنيا :

ــ أحبك يا بلدى ... أحبك ؛ يا أطيب بلد فى العالم .

قبـــلة المســـاء

لم أجد سوى صحبته ألجأ اليها . ناديته ، فاستجاب كعادته وهو ينفض تراب القبر عن ثيابه الريفية البيضـاء . رأيت عينيه الضاحكتين الواسعتين ، وجبهته الطيبة . قلت :

ــ عذرا ان كنت ازعجتك ...

قـال :

ــ لا داعى للدبلوماسية .. تعرف أنى اكرهها ...

وتفجرت نغمات صوته فى أذنى كالنبع الحنون الدافق . منذ أن مات ونهر الوضوح العذب يحتجب عنى . لم أسـمع تكسراته الخشنة البحبوحة ولا انسيابه العريض ، كقدم سيدنا آدم ، عبر الأصوات الطرية الناعمة المهندمة ، على مر الأيام :

قـال :

ــ من أحزنك ؟ !

قـلت :

ـ خسة القلوب والنفوس .

قـال :

ـ دعك من الوعظ السخيف .

قـلت :

ـ لكنى اعـانى .

ـ كل الناس تعانى .

ـ الأخـلاق ...

ـ الأخلاق مواقف ...

ـ كيف ؟ ! .

ـ خذ موقفا تسترح ! .

ـ واذا عجزت ؟ !

قـال :

ـ ذنبك على جنبك .

وطوقنى بذراعيه الطويلتين الأميرتين . قبلنى قبلة ابويـه رقيقة فاستكنت تحت جناحه مقرورا . وظلل كيانه على ، فتذوقت طعمه ورائحتـه الأليفة . كان كأرض بلدنا ، تتخلل رائحتهـا خياشيمى كالمخدر ، لم أستطع البعد عنها ، تتضـاءل بجوارها انفس العطور ، مذاقها فى الأنف والفم ، كشياط سـنابل القمح قبل الحصـاد ، واحمرار حبات الطماطم القرمزية ، وكثمـار

المانجو واليوسفى على مدار السنة ، وقرون الفول الأخضر ، وقرون الفول السودانى المختفية تحت الأرض ، وجذور البطاطا والقلقاس ، والبطيخ والشمام والخيار والبسلة والكوسة . كل له رائحته الخاصة الحية ، ولكنه كان يجمع رائحتها وطعومها جميعا . شممت فى أعطافه شقاوة أصدقاء الطفولة ، وضحكاتهم المنطلقة ، واحاديثهم البريئة الساذجة عن الرياضة والسياسة والمذاكرة والفلاحين ، وعطرتنى نسمات الماضى اللطيفة ، الربيع بزهوره واخضراره . ورقة ايامه ، والصيف بزمتته الحارقة الخانقة .. قلت :

ـ كل انسان له رائحة خاصة .

قال :

ـ بل كل نبات وجماد .

قلت :

ـ اتمنى أن تكون لى رائحة .

قال :

ـ رائحة ... لون ... مذهب ... ثرثرة لا فائدة منها ...

ـ لا تقس على .

ـ لم اتعود أن أقسو على احد .

ـ اذن .. لم ؟ ! .

ـ لأنه كلام معاد ... مكرر ... سخيف .

وفك ذراعيه اللتين تحتضنانى . وضحك ضحكة جلجلت الهواء من حوله . نفس الصوت يشرخ الكون مليئا بالقوة والثقة والطيبة والألفة . يملأ صدره بكل هذه البهجة ؟ ! . منذ سنوات أحتفل بخطبتنا انا وحبيبى . رفع معنا كأس الأفراح والآمال البشرية ، ثم تركنا وحدنا نغنى وننتشى .

قالت عصفورتى أيامها :

ــ ماذا يعمل ؟ !

قلت :

ــ فى سبيل الشعب .

قالت :

ــ لا أفهم شيئا .

وطفت على خدها بقبلة ، وانا اقول :

ــ غدا تفهمين .

وتزوجنا ، وبدأت تعرف الحكاية ، يشتد عودها ، وحين شعرت بجنينها يتحرك فى داخلها ، همست :

ــ سوف أسميه ..

قلت :

ــ كما تريدين .

وكبر الولد ، وبانت له المعالم .. الأنف والأذنان والفم والعينان نتذكره فى وجهه ، كلما نما عوده ، نمت الذكريات فى أعطافنا .

بالأمس قابلت بعض الأصدقاء . كانت ضحكاتهم خافتة ، وانفاسهم ضائعة ، ليسوا متشائمين ولا متفائلين ، لا متحمسين ولا محبطين . اسطوانتهم المكررة لا تكف عن الدوران . قالوا فى انفاس مقهورة :

ـ الأزمة ... الأزمة ...

قلت :

ـ الناس جميعا فى ازمة .

ـ قالوا :

ـ لا .. نحن ...

ابتسمت :

ـ لكم طبيعتكم .. اليس كذلك ! .

ـ طبعا ..

ـ وباقى الخلق ؟ ! .

ـ لهم .. ولكن ؟ !

ـ كلام لن ينتهى .

قالوا :

ـ نحن ... نحن ... نحن ...

وهربت بجلدى من العاصفة ، جريت الى طريقى واشجارى وزروعى ومياهى وطيورى ورمالى . كانت الأيدى تحرث وتعزق وتبذر وتسقى . ولا مناقشات ولا اجتماعات قال الفلاحون :

ـ صباح الخير .

قـلت :

ـ اسعد الله صباحكم .

قـالوا :

ـ ما هذه الغبرة على وجهك ؟ ! .

قـلت :

ـ احوال ..

قـالوا :

ـ لا بأس عليك .. انزل الى نهرنا .

ـ لم ؟ .

ـ لتغتسل .

ـ وبعد ؟ ! .

ـ جرب لقمتنا .. خبزنا ...

ـ لست جوعان .

قـالوا :

ـ لم نأت بشيء من الخارج .. وعندنا فكرة .

ـ خير ان شاء الله ...

قـلت :

ـ الم يمر عليكم بعد ؟ !

قـالوا :

ـ من ؟ !

قـلت :

ـ صاحب النفس الطيبة .

قـالوا :

ـ كلنا أصحاب نفوس طيبة .

قـلت :

ـ وجسور وشجاع .

قـالوا :

ـ املنا فى القوة والشجاعة .

قـلت :

ـ ابنكم الأليف .. فكيف لا تعرفونه ؟ ! .

قـالوا :

ـ هل كان غائبـا ؟

قـلت :

ـ لا .. بل طول عمره يتمدد فى الحقول .

واعترتهم الدهشـة ، نظروا الى آخـر امتـداد البصر ، وعادوا يسألون :

ـ انس هو أم جنى ؟

وتحيرت ، فهمست خائفا :

ـ ماذا اقول لهم ؟

قال الطيف :

ـ اصـمت ..

قـالوا :

ـ تـكلم ! .

قـال :

ـ اسـكت ..

وشعرت بأنه يدس فى يدى قطعـة من الطين . وازدهرت جبهته بحزم الضياء الورديـة المشعـة ، فأصبحت كالجوهرة الغاليـة . وندت عنه تنهيدة سـاحرة جذابة ، تأخذ بمجـامع القلوب . واشرق صدره بفيض عطرى أخاذ ، فانتشرت باقاته فى الارجاء ، توشوش الأشجار والزرع والمياه . وحمل فأسا وضرب بها الأرض ضربتين ، فانشقت عن نبع غزير تفجرت منه الخيرات، ثم راح يهوى بها فى رقعة واسـعة من الأرض ، وكلمـا ضرب ضربة ، انفلجت له عن كنز من الثمار جديد ، الى أن عرق وتعب ، وملأ يدى بحفنة من الرمال السمراء ، وقال :

ـ هذه هى الأخلاق ...

قـلت :

ـ هل نعود من جديد ؟ .

قـال :

ـ لا تضيع الوقت .

قـلت :

ـ ولكنى لا استطيع حمل الفاس .

قـال :

ـ القلم كالفأس .. ان خابت ضرباته ، فأغمده الى الأبد !

ـ والمحـاولات ؟ .

ـ مرة او مرتين .. تكفى .

ـ واصحاب الجدل والمناقشات .

قـال :

ـ دعهم .. لهم دينهم ، ولك دين .

ـ والوشائج الانسانية ؟ .

ـ لا أحد يكبلك .

وانحنى على الأرض . انتقى بطيخة كبيرة ، وقسمها قسمين باحدى ضربات كفه . وقال :

ـ خـذ ...

قـلت :

ـ لست جوعان ..

قـال :

ـ توكل على الله .. خذ ...

وانحنى مرة اخرى ، وملأ كفه بثمار الفراولة ، وعزم :

ـ تذوق ...

وجلست آكل وهو يرمقنى بشغف وفضـول ، غير عابىء بحسرتى واكتئابى ، ومللى وضيقى . ومن بعيد كان يقذف الى الخيار والقتة وأكواز العسل ، هاتفا :

ـ وسع بطنك !

وانـا أقول :

ـ كفى .. شبعت الى الآخر ...

وهو يقول : يا ضيعة رجال اليوم ... كنا نأكل خروفا .

ونهض من وسط الحقل الى النهر ، يعب من مائه ، ثم توضـأ وصلى ، وصفق بيديه فى الهواء برضى ، فأخرجت له السجائر :

ـ تفضـل ...

قـال :

ـ انت تعرف ... لم تلامس فمى أبدا ...

ـ والمكيفات الأخرى ؟ ! .

رفع كفه كالسيف ، مخترقا بها الهواء فى تصميم :

ـ لم ازن ولم اسكر طول حياتى .

ولمحت فى تقاطيعه انسام ضيق ، فشعرت بالخجل . سنوات وهو يأخذنى بين احضانه ، يطيب عللى وجراحى . يقدم لى المـاء

كلما عطشت ، والطعام كلما جعت . يطوف بى ، يعرفنى بالطباع والنفوس والخلجات . يزورنى والناس نيام ، يطمئن على غطائى وفرشتى ومنامى . يقبلنى قبلة المساء . حتى بعد أن مات لم أجد سوى صحبته ألجأ اليها . ناديته فاستجاب كعادته وهو ينفض غبار القبر عن ثيابه الريفية البيضاء . وفى النهاية قلت له :

ـ الوداع ..

فقال :

ـ بل الى اللقاء .

آدم الصغير

فى البداية لم يتوقع أحد هذه الانتفاضة الأخيرة التى أصابت الجد آدم وهو يموت . كانت الوجوه حولم تحسب له ألف حساب فالعائلة تعرفه جيدا . فى أكثر من مرة يمددونه على الفراش ويديرون رأسه ناحية القبلة . وينقطون له الماء فى فمه قطرة قطرة . ويسبلون عينيه ، ثم ينتظرون ، لكنه يخذلهم فى لحظة النهاية . تعتريه غيبوبة مريحة ساكنة يسترد خلالها نبض قلبه الواهن الضعيف . ثم ترد فيه الروح من جديد ، فيتعجبون . فالجد آدم قد أخذ نصيبه من الدنيا ، كما لم يأخذه أحد . تزوج نساء كثيرات . وأنجب صبيانا وبنات عديدين . لم يستقر فى مكان واحد انما جاب الصحراء من أولها الى آخرها . وجاست قدماه فى أرجاء البلاد والقرى والربوع . أصبح له فى كل بلد ذكرى . وفى كل ذكرى حياة . وفى كل حياة خبرة حية خصبة تنفعه فى رحلاته وتنقلاته .. كما تنفع الآخرين . ولم يكن يعوقه المرض عن اشتياقاته الطموحة فى السفر والترحال والاقدام على عراك الناس والأشياء والمجهول .. فاذا دهمه ، فانه يلتقط من

الأرض بعض عشبها السحرى . يغليه فى الماء ، ثم يتجرعه وهو سعيد .. ثم سرعان ما يصبح هذا العشب ترياقا لكل المرضى والمصابين بعده .

فى هذه المرة لم يتوقعوا مقاومته التى تعودوا عليها . فهو الذى استدعاهم واحدا بعد الآخر . وأرسل للغائبين أن يحضروا . جمعهم حوله وهو فى يقظته لم تشمله الغيبوبة الدائمة بعد . قال :

ـ يا أولادى .. يا أحفادى .. لن اتعبكم .. لكن ...

شعرو جميعا بالطمأنينة والراحة وهم يستجيبون لندائه :

ـ نحن تحت امرك يا جدنا العزيز .. تحت امرك ...

قال :

ـ اريد ان اطمئن عليكم فردا فردا ...

قالوا :

ـ نحن جميعا بخير ...

ووضعوا ايديهم على قلوبهم قلقين ...

منذ سنوات كان ابن من أبناء الجد آدم يموت فى اللحظة التى يموت هو فيها . سأل عنه ، فأخبروه انه يزور السيدة حتي يداروا عنه ، فاسترد انفاسه وهو يقول :

ـ انتم تكذبون على ...

وانتفض من تحت غطائه يتعثر . فأسندوه بين أذرعهم . لم يجدوا غير الحقيقة ينطقون بها :

ـ ابنـك يموت .. لم نرد ان نخبرك وانت على فـراش الموت ايضـا .

همس وهو يبكى :

ـ واهمون .. اتعتقدون انى لا اعـلم .. ؟ قلبى يحدثنى بالصدق دائما ...

كان قد قام وقعد حول فراش ولده المحتضر . وجعل يقرأ الآيات المنجيات ، ويضع اذنه على قلبه الى ان اسلم الروح ، ثم احتضن اولاده الرجال فى صدره ، واخرج حلية ذهبية من جيبه ليصرفوا منها على الجنازة والدفن والمـأتم .

وفى المساء تحـامل على عـكازه الى الصيوان ليستمع الى القرآن الكريم ، ويغفو غير شاعر بما حوله . وبعد موت ابنه هذا مات ابن آخر وهو لا يزال يصارع الموت .

***

فى هذه المرة الأخيرة فضـل الاستسلام الهادىء الوديع . صلى الفجر حاضرا وهو قاعد ، وشرب القهوة ، وجهز منامته بيديه ، وابتسم فى رضا وهو يقول :

ـ لا اريد احدا منكم ان يبكى . فذلك سوف يقلقنى .

وبصق يمينا وشمالا على الدنيا . ونظر فى الجمـع المحيط به نظرة فاحصة :

ـ هل اخذتم استعدادكم ؟ .

قال الجميع :

ــ كلنــا فــداك يا جــدنا .. يا أبانــا .. يا عمنــا .. يا خالنا الكريم .

ســأل :

ــ هل سقيتم البهائم ؟

ــ شربت جميعها .

ــ وانفضت خناقة عائلة الزغبى مع عائلة الحنفى ؟ .

ــ اصبحوا أحبة ، وحلفوا على المصحف أن يكونوا أوفياء مدى العمر .

ــ هل وفيتم دينى ؟

ــ أنت تدين الناس بمعروفك .

شهق بالم المتعجل :

ــ ما زلتم لا تفهموننى .

وأخذته الغيبوبة القديمة ، سكنت ملامحه عن أسى مزمن يفصح عن تعبه . كان وجهه ينطق بالرقــة والشفافية ، وعرق رقبته الأيسر ينبض فى خفوت بطىء . وأصــابع يديه ترتعش رعشات خفيفة وديعة . آخر شىء يقاوم به هو عيناه المفتوحتان كقطعتى المــاس الحادتين النادرتين . نفخ بضيق وكأنه تذكر شيئا مهما :

ــ زينب فين ؟ .

رد الجميع :

ــ موجـودة ..

وهو يحاول رفع راسه :

ــ فين ؟

ــ موجودة .. والله ...

ــ تعودون للكذب على .. اعطونى يدها ...

ومدت احدى الحفيدات يدها الى الجد :

ــ ايدى اهه يا جدى ..

واخذ يتحسس اليد وهو غائب عن الوعى .

ــ لا .. لا .. ليست يد زينب ..

واندهش الجميع .. ان الأزمة تكاد أن تقع .. زينب تلد فى القاعة المجاورة لقاعته .. هل يخبرونه الأمر .. انهم يعرفون صلابة راسه جيدا ...

وجاءهم صوت زينب من الداخل .. آه .. كانت آهة قوية عارمة بددت هدوء البيت وسكونه .

وعاد الجد المحتضر الى يقظته :

ــ عارف صوتها كويس .. هو ده صوتها بعينه ...

وتذكر الجميع انتفاضات الجد آدم السابقة .. أصابتهم الحيرة والدهشــة .. انكمشوا فى انفسهم خائفين مذهولين . أسبوع كامل وهم يرتبون أمر موته .. الكفن والجنــازة وحفر القبر وليالى المــأتم .. وهتف حفيد من احفاده :

ــ ليتنا نعيش مثلك يا جدى ! .

وهمس آخر :

ـ هذا رجل مبروك .. يستحق المقام .

وتمتم ثالث وهو برم :

ـ ليمت ، ونحن نبنى له المقام .

وهب شيخ صديق ناصحا :

ـ لا تجدفوا يا ناس .. لكل اجل كتاب ...

ورنت فى الآذان آهـة اخرى من الأم التى تلد . كانت مثقلة بالألم ومحـاولة الخلاص . آهـة رفيعة مناجية مستغيثة .. ارحمونى يرحمكم الله ...

واشتدت حيرة العائلة حول فراش الجد آدم . قـال احد الأحفـاد :

ـ لا فائدة ... دعوه على مزاجه يمت وقت أن يشاء .

وحفيد آخر :

ـ نحن لا نتدخل فى قضاء الله وقدره .. ولكن ...

واقترح الأول :

ـ ارى أن نحمله اليها حتى يطمئن ...

واجاب الثانى :

ـ المشـكلة ليست مشكلته الآن ، المشـكلة مشكلتها .. نريدها أن تلد فى امان ...

الأول :

ـ أن لم نفعل ذلك .. فسوف يفعله بنفسه .. أنا أعرفه ..

الثانى :

ـ لم نرغمه على شيء ..

الأول :

ـ وارجو أن نكون معه كذلك دائما ..

الثانى :

ـ اذن لا بأس ..

وتقدم الحفيدان منه يسالانه :

ـ هل تريد أن ترى زينب ؟

قال الجد آدم :

ـ لا ...

استفسروا مندهشين :

ـ اذن ماذا تريد ؟

قال باصرار :

ـ أريد ان ارى المولود ..

قال الحفيدان والرجاء يساورهما :

ربما يتأخر بعض الوقت .. زينب تلد من ايام ...

أعلن الجد آدم فى عزم :

ــ ولــو ...

ــ من يضمن الحياة من الموت ؟ ! .

قــال :

ــ لا اطالبكم بالمستحيل .. هذه أمنيتى فحسب ...

وارتعش جسده النحيل فى شــبه انتفاضة .. سحب ساقه من تحت الغطاء الثقيل ليجرب ، فلان معه الساق . واعترته آخر أفراح الدنيا .. فاستمد منها أطياف العافيــة التى توشك على الغروب ورويدا رويدا أزاح الغطاء عن جسده . وفرك عينيه بأصابعه ، ثم ألقى بظهر كفه ليمنع عطسة تلح عليه . وطلب كوبا من المــاء على عجل .. فأحضروه .. فأخذ يشرب فى هدوء وهو يهمس .. هو الواحد الأحد .. يعطى من يشاء ويذل من يشاء وهو على كل شيء قدير . ولم يجد الواقفون حوله الا الرضوخ لارادتــه .

***

فى الشهور الأخيرة كان الجد آدم يرقد على فراشه ، تأكل جســـده أمراض الشيخوخة والشــباب معا . ضغط الدم .. السكر والحساسية والروماتيزم وهبوط القلب .. عينــاه كانتا جافتين ذابلتين ، نضبت منهما الحيــاة . وغار صدغاه ، فأصبحا كالحفرتين العميقتين ــ تختفيان فى قرارهما آلام السنين . رأسه كلها بيضــاء ، جريــة العنصر ، كراس باقيــة من أيام قنبلة هورشيما . كيف عاودته الأنفاس ، وسرت فى عروقه الدماء..؟! ، هذا هو المجهول الذى لا يعلمه انس ، لم يصبه اليأس . توكأ على عصاه الى حقله . شتل ثلاث شجرات ، وبكل ما تبقى له من عزم حفر على احداها .. المعرفة .. وعلى الأخرى المعاناة .. وعلى

الثالثة الحب ، ثم عاد معافى يضحك ، ويستقبل الضيوف ويحل المشـــاكل .

***

اليوم لم يكونوا يتوقعون منه المقاومة . فالصحة والزمن وهم أنفسهم ليسوا فى صفه . مضت أيام الفروسية والمعجزات وتحدى الموت التى عاصروه فيها . هــذا زمان الذين يموتون من الخوف والقلق واجترار الأحزان . استولى عليهم الضيق والغم لهذا العناد السخيف الذى يواجهون به . لم تفلح طرقهم المختلفة فى أن يثنوه عن عزمه ، فتركوا له الحرية فى تقرير مصيره ، لكنه يتراجع الآن .. كان يستطيع أن يتركهم وحالهم .. يموت وقت أن يشاء بمفرده بدل الضجــة .. أســبوع كامل وهم يعطلون أعمالهم .. ينتظرون الفرج ، وهو يعذبهم ، ثم ينتفض فى اللحظات الأخيرة يسأل عن حفيدته . زينب بخير رغم انهم تركوها تلد على حصيرها بمفردها تعانى فى جلد وصبر . وبدءوا يتسربون الواحد بعد الآخر دون أن يشعر بهم . بعضهم تسلل الى قاعة الأم يحاول مساعدتها فى محنتها وبعضهم تسرب الى الخــارج وهو يلتقط انفاسه الضائعة .

***

عند الأم كان النســاء يدفئن المــاء ويبحثن عن الخــرق لاستقبال المولود . ظلت النساء حائرات . فاقترحت احداهن : لمــاذا لا نستعين بكفن الجد آدم ما دام يصر على الحيــاة ؟ ! . غير أن الأخريات نهرنها فى أدب قائلات : فال الله ولا فالك . سكتت المراة وهى تطوى لسانها داخل فمها كأنها لم تقل شيئا .

كانت آهات الأم تتجــاوب عبر جدران القاعة المشحونة بالانفعالات المتضاربة . تجدف بقدميها فى عنف وقوة ساخطة . تلعن زوجها الخشن الذى سبب لها كل هذه الآلام .

فى بعض اللحظات يكف الطلق فنفيق ، تسترد أنفاســها المتعبــة ، فتمسح عرقهــا ، ثم تسكن منتظرة هجوم اللصــوص بالسكاكين فى بطنها ، ويا ليتهم يفعلون ، انها ترحب بهم ما داموا ينقذونها من عذابها الطويل الممض . اصعب شىء تتعرض له هو الطلق البارد الذى يجيئها على دفعــات ، بين فترة وأخرى ، يمنيها بالخلاص البعيد أصبحت لا تستطيع الا الانتظــار . نسيت الدنيا بأجمعها . وتركزت أحلامها وامانيها فى الجنين الذى يدب فى مستكنه . ليس عليه ذنب هو الآخر . يريد أن ينقذ نفسه . معلق بين الحياة والموت . وتحوطت الأم النساء المكتئبات الحزينات العاجزات . فى قاعة الجد آدم كن مع الموت .. وربما الحياة .. فى هذه القاعة لا يملكن ســوى الانتظار .. وضعن قدمى الأم فى المــاء الدافىء . ورششن وجهها بالعطر . واسندنها بين أذرعهن لتمشى خطوات ، فقد يجىء الطلق الساخن ، ثم أجلسنها . فاذا هى بين ايديهم مسحوبة الروح .. لا تقوى على التماسك .

***

وفى رحاب الجد آدم كان الرجــال قد أعيتهم الحيل . صمتوا حوله فاغرى الأفواه . مكممى الألسن .. تلفهم الدهشة ، لا يدركون ما يريده لكنه بدد دهشتهم قائلا :

ـ ضايقتكم قليلا .. اليس كذلك ؟ ! .

ـ لا ... ابدا ..

ـ تجاملوننى .. تعودتم على المجاملات ! .

ـ لا .. والله ..

ـ يا رجال .. اتحسبون ان لى فى امرى شيئا ...

قال الرجال :

ـ ابقاك الله لنا ذخرا ...

قال الجد آدم :

ـ حافظوا على شجراتى الثلاث ...

ـ امرك يا جدنا العزيز ...

ـ وعلى نفوسكم الا تهان ...

ـ امرك يا ابانا... يا عمنا ... يا خالنا العزيز ..

ـ وكرامة كل مولود وما ولد ...

ـ ......

ـ لماذا تسكتون ؟ !

ـ امرك يا ...

قال :

ـ كيف حال زينب ؟ !

قالوا :

ـ بخير .. قاربت الخلاص ...

ابتسم فى سخرية وضعف وهو يقول :

ـ لا فائـدة .. تكذبون على .. ســوف انهى المســألة بنفسى ...

***

وفى وهن راح يزحف بكل جسده الى القاعة المجـاورة بعد ان رفض أن يحمله احد . وعلى جبهة الأم وضــع كفه المفرطحة الحنون .. نظرت اليه الأم وهى تشرق بالدعاء .. الله يخليك يا جـدى .. وجاءهـا الطـلق الحـامى فى ضربات قويـة .. فاستسلمت له عن طيب خاطر وهى تمســك بيد الجد آدم . وسمع صوت « القرن » يدشدش آخر ضربات الألم ، وبعد لحظات كان صراخ المولود يملأ ارجاء القاعة . وقبل أن يلفوه فى شىء . اشار الجد آدم أن يضعوه فى حجره .. ففعلوا .. فغطاه بشملته .. ثم قبله .. ثم رفعوه الى الطشت للاستحمام .. وفى النهاية أغفى الجد آدم فى هدوء وهو يهمس :

ـ سموه آدم الصغير .

التوأمان

فجأة ، دقت المزيكا فى بلدتنا وصفقت الأيدى ، وتنفس الفلاحون بارتياح عميق ، فقد علموا بقدوم زائرين عظيمين ، تروى عنهما الأساطير والعجائب ، سوف يعملان على محو الفقر والمرض والجهل . انهما عالمان جليلان متفقهان فى شئون الكون والحياة ، وتأهبت وفود الفلاحين عند مداخل البلدة ، ترحب فرحة ، مستبشرة . فلقد آن الأوان ليتخلصوا من الأحزان القديمة . وعندما وصلا فى أمان الله ، حملوهما على الأكتاف ، وجلين خائفين . واشد ما كان فرحهم ، عندما لاحظوا شبههما التام : الوجهان البيضاوان بعيونهما الضيقة الذكية الصافية ، والجسدان النحيلان الضعيفان ، والأقدام الدقيقة النظيفة ، وصوتاهما المتبتلان الرقيقان . باختصار ، كان كل ما فيهما ينبىء عن الفرج الذى تنتظره بلدتنا ، العطش الى العلم والمعرفة والمشاركة . وكالعادة ، قدموا لهما اللبن فى الصباح ، وأسيلت دماء الذبائح عند الظهر . وفى المساء كانت أمامهما الفاكهة من كل نوع ،

الفراولة والبرتقال الصيفى والبطيخ المبكر ، حتى الموز الذى مازال ثمره لم ينضج بعد ، وجدت منه كميات هائلة قبل الأوان .
ورفرف التفاؤل فى بلدتنا . تسلل الى بيوت الطين الصغيرة ، وحط على الأسطح وفوق الأشجار ، وعلى مشارف الطرق والدروب وفى أعطاف العجائز والعذارى والأطفال ، وفى الأكف المفرطحة الضارعة بالدعاء والأمن والطمأنينة . وتكاسل الناس فى أعمالهم المضنية الشاقة بعض الشىء . فغدا ينصلح الحال ، وتتضح الأمور . وتفض غلالة كآبة السنين القاتمة . وبدءوا يراقبون التوامين من بعيد . فى الأيام الأولى ما كانا يغادران « المضيفة » التى يقيمان فيها ، اللهم الا لبعض خطوات فى بستانها الملىء بثمار الفاكهة الشهية يجمعان منها ما يشاءان ، ثم يجلسان ليأكلا ، ثم تتكسر ضحكاتهما العالية . وقد سر أهل بلدتنا لأن السعادة تشمل الضيفين العزيزين . ولم يريدوا ازعاجهما ، وهما مستكنان فى جنتهما . وبدءوا ينشطون فى أعمالهم من جديد ، تاركين لهما الحرية فى الخروج كما يشاءان ، فربما لم يألفا البلدة بعد . وشيئا فشيئا ، خرج التوامان من عشهما الجميل . كانت الدماء تفيض من وجنتيهما المتوردتين ، وبدا اللون الأحمر معقودا فيهما ، حلقات . . حلقات . وعلت الابتسامة المشرقة المستريحة شفاهما ، غير أنهما كانا يمران على الفلاحين دون أن يلقيا السلام ، كلمة السر التى تستريح اليها النفوس والقلوب والصدور منذ الأزل . والتمسوا لهما الأعذار ، فهما مشغولان فى عالمهما الواسع ، ومن المستحب الا يعكروا صفوهما النبيل ، وليكتموا مرارتهم المبكرة الى حين . وظلوا يتابعونهما بحب . قبيل الشرق ، يرونهما معا ، الكتف فى الكتف ، واليد فى اليد ، والقدم مع القدم فى خطوة واحدة كجنديين منتظمين فى ساحة التدريب ، زال عنهما الشحوب والضمور ، واكتست

عظامهما باللحم ، ومرة بعد مرة يدعوهما الفلاحون لحضــور فرح من أفراح البلدة ، لكنهمــا يتعللان بأنهما متعبان ، ويموت الميت بعد الآخر ، دون أن يشاركا أهله العزاء ، والفــلاحون يطوون حسرتهم فى أعماقهم ، ينتظرون عمل الضيفين العزيزين ، وقــد بدات الوساوس والظنون تملأ صدورهم ، ويتسلل واحد منهم وراء التوامين اللذين لم يكن من عادتهمــا الالتفات الى الخلف أو اليمين أو اليسار ، فهما يمشيان فى خطوط مستقيمة ، حادة ، غير متقاطعة ، أيديهما وراء ظهريهما ، سمع الفلاح التوام الأصفر، وكان قد ولد بعد الآخر بساعات ، يقول :

ـ الى متى نظل فى سجن الحياة ؟ ! .

قال الأكبر :

ـ اقد كتب علينا أن نناضل .

قال الأصغر :

ضقت ذرعا بهذا النضال .

الأكبر :

ـ اصبر .

ـ أهل البلدة ينتظرون منا المساعدة .

ـ نحن مشلولان . . فكيف نتحرك ؟ ! .

قال الأصغر :

ـ نكبة غريبة . . .

ـ وســـارا صامتين برهــة . ثم عاد التوام الأكبر يواصل الحــديث :

ـ اتذكر ايام الدراسة ؟ .

ـ ومن ينساها .. لم يكن فيها بهجة .

ـ كانت مشحونة بالأمل .

ـ لم يتحقق منه شيء .

ـ ظروف ، قد ينهيها الله ، أو ننهيها نحن .

قال الأصغر :

ـ هل تريد العودة لمناقشة مشكلة الألوهية .

ـ ليس وقتها الآن .

ـ اذن لماذا تثيرها ؟ !

قال الأكبر :

ـ السنا فلاسفة ؟ ! .

قال الأصغر :

ـ وما زلنا طبعا .. ولكن كيف تستقيم الفلسفة مع العجز؟

ضحك الأكبر وهو يخبطه على كتفه :

ـ اننا من أنصار فلسفة العجز الحديثة .

قال الأصغر :

ـ ليكن لنا فى الريف سلوى للنسيان .

هتف الأكبر فرحا :

ـ عاش الريف وكرمه .

وضحكا معا ، دون أن تتضح معالم ضحكة أحدهما عن الأخرى .. ضحكة تقليدية طيبة ، مشحونة نهايتها بالحيرة والقلق والتوجس ، يسود بعدها فراغ كئيب ، لا يجدان لسده غير العودة الى اجترار الذكريات :

ـ وايام المانيا ..

ـ كانت ايام ..

ـ وفقه التشريع ؟ !

قال الأصغر بمرارة :

ـ لم ينفع بشيء .

قال الأكبر :

ـ لا .. هو الذى كون شخصيتنا الدولية .

قال الأصغر :

ـ ليتنا بقينا فى بلدنا ورضينا بما قسم الله لنا .

قال الأكبر بحسم :

ـ دعك من تثبيط الهمة .

ـ لم يعد فى الامكان احسن مما كان .

ـ لا .. ما زال تاج الامتياز معقودا على جبهتنا .

قال الا سغر :

ـ اعترف .. ولكن ما الفائدة ؟ ! .

وسمعا دبيب الفلاح وراءهما . فالتفتا مذعورين . اذن لقد ارسلوه الينا . وأطبقا الشفاه ، فقبل الرحيل الى المانيا كان

الجواسيس وراءهما ، وهنــاك لم يغمضوا عنهما عينا . وها هم الآن يتابعونهما .. يا للغرابة ! . قال الفلاح الطيب :

ـ السلام عليكم ...

ولم يردا عليه ، بل أسرعت خطواتهما . ثم جريا فى النهاية الى أن وصلا قرب البستان حيث عادا لهدوئهما الطبيعى . ورجع الفلاح مكسـور الخـاطر . لم يفهم من حديثهما شيئا ، كمـا خاب أمله عندما تجاهلا مودته .

***

وذات صباح استيقظت بلدتنا على لغط غريب ، لم تشهده من قبل . ظلت تتجاهله زمنا طويلا . وانتهز الفلاحون فرصـــة اجتماعهم ليثيروا موضوع التوأمين . فقد كانوا يبحثون منع عمل الكعك فى عيد الفطر توفيرا للاستهلاك . وبدأ المشايخ يتوافدون على قاعة الاجتماع ، وعصيهم فى أيديهم ، وآثار السنين العجفاء تبين فى عيونهم . لقد تعودوا أن يتلقوا الأوامر ، أما الآن ، فهم مطالبون بأن يقولوا رأيهم . وحدثت المداولات التقليدية أثنــاء شرب الشاى قال البعض : نحن نستطيع منع الناس عن الكعك . وقال آخرون : بل نستطيع لو فهمنا الغرض ، وافهمناه للناس . وشيئا فشيئا انسابت التفاصيل على الشفاه . سأل فلاح :

ـ انتم عاوزين تمنعو الكعك ؟ ! .

قال العمدة :

ـ آه ...

قال الفلاح :

ـ طب افرضوا الأغنيا عملوا ، والفقرا معملوش ؟

قال العمدة :

ـ ازاى ؟ ! .

قال الفلاح :

ـ يعنى لو الغنى عمل الكعك ، والفقير امتنع ! .

قال العمدة :

ـ اشمعنى يعنى ؟ ! .

قال الفلاح :

ـ حيحصل .. وتكون النتيجة ان ابن الفقير يطلع لكعك فى ايد ابن الغنى . واشــار احد الكهول بيده علامــة على أنه لا يسمع شيئا مما يقال . فتقدم احد الخفراء من اذنه هاتفا :

ـ مش عاوزين نعمل كعك ...

اوما الكهل موافقا :

ـ حاضر ... نعمل كعك يعنى ؟ .

وضحك الفلاحون ، فهتف الخفير فى اذنه مرة أخرى :

ـ مش عاوزين نعمل كعك .. مش عاوزين .. فاهم ؟ !

فتح الكهل فمه مرتاحا :

ـ آه .. فهمت .. عال .. على خيرة الله ...

وفجاة اثار احد الفلاحين موضوع التوامين :

ـ طب ما ناخد راى العلما ...

قال الجمع :

ـ علمت مين ؟ !

قال الفلاح :

ـ اللى قاعدين فى المضيفة ...

وهب الفلاح الآخر ، انتزع صوته المتعب من الأعماق :

ـ صحيح .. امال شاطرين ياكلوا ويشربوا بس ! .

وقال حكيم من الحكماء :

ـ اياكم والغيبة ! .

قال الفلاحون :

ـ لم نغتب أحدا .. لكن ...

قال الحكيم :

ـ دعوهما ، فربما يكونان عاطلين بالوراثة ...

قال فلاح فيلسوف :

ـ لا .. بل انهما عاطلان بالعلم ...

وقال طيب من الطيبين :

ـ بلاش نقوزه على عباد الله يا رجاله .

قال الحكيم :

ـ أحسنت ، ان الله غفور لعباده .

واشار الكهل الأصم بيده مرة أخرى . وتمتمت بعض

الشفاه واختلطت مشكلة « الكعك » بمشكلة التوأمين . قـال العمـدة :

ـ نخلى الخفر ينبهوا على الناس فى البيوت .

هتف صوت :

ـ وان عملوا فى الغيط ؟ ! .

قال العمدة :

ـ مفيش غير الغرامة بقى ...

قال الحكيم :

ـ الغرامة لا تفيد .. أقنعوا الناس أولا .. ثم افعلوا بهم ما تريدون .

قال العمدة :

ـ لا .. الغرامة والضرب سوا .

قال الحكيم :

ـ لم يعد أحد يستطيع أن يضرب الآخر فى هذه الأيام ...

قال العمدة :

ـ لا .. نضربهم عشان يسمعوا الكلام .

قال الحكيم :

ـ لا مكان الكرباج فى عقل الانسان ! .

وسكتت مجموعة الفلاحين ، والعصافير تزقزق على فروع أشجار الكازورين والكافور العالية ، ورائحة الخبز الطازج تنبعث

من أحد البيوت المجاورة تنعش الأنوف . والذباب يطن فى هوس فوق الرءوس . وثمة حفرة تمتلىء بالحطب المشتعل ، تتصاعد منها ألسنة اللهب الأزرق القانى . وفى وسطها براد الشاى الكبير الذى لا يكف عن الغليان ، والعيال فى الخارج يتحلقون فى دوائر صغيرة ليعرفوا ما يحدث ، يطلون بوجوههم الغضة ، وعيونهم الفضولية الساذجة ، ليكشفوا الأسرار . ومن بعيد يجىء صوت السواقى الموحد يئن فى خفوت ، والحناجر تكاد تتعب من الزعيق واللغط الذى يجتاح الجماعة ، وتتمدد السحب القاتمة تفرش قبة السماء ، فترتاح النفوس قليلا ، ويسود صمت عاجز طيب ، ينتظر من يفض أستاره الغليظة ، وترتفع نغمة التوأمين من جديد على الألسنة :

نحن قوم كرماء .. ولكنا ! .

ـ ولكنا لسنا بلهاء ...

ـ لعبة سخيفة ، لا يجب أن تحدث ...

ـ فهمناها قديما ، يستحيل أن نسكت عليها الآن ! .

قال الحكيم :

ـ اياكم والغرور ! .

قال الفلاحون :

ـ لسنا مغرورين ولكنا نثق فى انفسنا .

قال الحكيم :

ـ شىء جميل .. ولماذا تلغطون ؟ ! .

قالوا :

ـ لأن التوامين الجليلين دلسا علينا .

قال الحكيم :

ـ معظم الناس تدلس هذه الأيام .

قـالوا :

ـ المدلس المكشوف خير من المدلس المستور .

قال الحكيم :

ـ يبدو انكم تريدون التبحر فى العلم .

قالـوا :

ـ تبحرنا من زمان .. الم نميز الكذب من الصـدق .. والحقيقة من الزيف ؟ ! .

قال الحكيم :

ـ وما علامة الصدق ؟ ! .

قال الفلاحون :

ـ ان تشقى طول النهار .

ـ فقط ؟ ! .

ـ وان يكون بينك وبين الناس عمار .

ـ والكذب ؟ !

ـ لا يحتاج الى دليل .

ـ وما رايكم فى التوامين ؟ .

قالوا والأسى يجلل وجوههم :

ــ رغم أنهما دلسا علينا ، أن محنتهما كبيرة .

قال الحكيم :

ــ وهل تطلبون شيئا منهما ؟ .

قال الفلاحون :

ــ لا أحوجنا الله لأحد ، نحن نعطى كثيرا ، ونأخذ قليلا .

الحكيم :

ــ تلك مبالغة منكم .

الفلاحون :

ــ المبالغة الصادقة ، خير من الكذب المنمق .

الحكيم :

ــ هل تريدون أن تغلبونى فى الكلام ...

الفلاحون :

ــ الغلبة لله وحده ...

قال الحكيم متنهدا :

ــ صحيح ...

***

وبعد حادث المطاردة الموهومة اعتكف التوأمان ثلاثة أيام بلياليها لم يظهرا بالبلدة .. ظلا خلف سور البستان يأكلان

ويشربان ويثرثران وينامان . وفى اليوم الرابع طلعا من خدرهما ، مكسوفين من أثر العزلة ، وبمجرد أن تقدما خطوات على طريق نزهتهما التقليدية تعثرت أقدامهما بروث البهائم .

قال التوأم الأكبر :

ـ يا لها من سخرية ! ...

قال الأصغر :

ـ قاذورات فى كل مكان ! .

واضاف الأكبر :

ـ ويدعون أن الريف تحرر ..

الأصغر :

ـ والأرواح ؟ ! .

قال الأكبر :

ـ لن يتحرر الا بفقه التشريع ...

قال الأصغر :

ـ وهل أفدنا نحن شيئا منه ؟ ! .

قال الأكبر :

ـ قلت لك ألف مرة انه أكسبنا شخصيتنا الدولية ...

قال الأصغر :

ـ يهمنى شخصيتى القومية الآن ...

ـ لا قومية بدون عالمية ...

شخط الأصفر غاضبا ، والدموع تكاد تطفر من عينيه :

ـ بل لا قومية ولا دولية بدون انسانية ...

ـ سوف نعود الى السفسطة من جديد ..

قال الأصفر :

ـ لو تركوا لى الحرية ، لوضعت الحبل فى عنقى .

قال الأكبر :

ـ يأس مقيت ، أربأ بك عنه .

قال الأصفر :

ـ بل اتمنى أن افعل ذلك قريبا .

قال الأكبر :

ـ ليس أمامنا الا النضال الى آخر لحظة ...

قال الأصفر :

ـ لم تعد فى الروح بقية ...

قال الأكبر :

ـ ولكن معركتنا عادلة ...

وظللتهما سحابة بيضاء عالية . ونبح كلب بجوارهما ، فارتعشت سيقانهما من الخوف ، وأسقطت أشجار الكازورين والكافور ثمارها الجافة الدقيقة الخشنة على رأسيهما ، فتضايقا . وحومت فى الجو أسراب الهاموش الغزيرة ، فسدت

الرؤية أمامهما ، وتقافزت بعض الأسماك الصغيرة فى الترعة على سطح المياه ، لأن « قرموطا » يتحرك فى أعماق الطين ، وفى الحقول ، ازدهرت حبات الطماطم الحمراء الناضجة تحت الفروع والسوق الخضراء على الأرض . وكانت الأرض حبلى بالخيرات راضية ، سعيدة ، مستبشرة تهمس فى أذنيهما فى رقة بالغة :

ـ يا ولدى العزيزين ، مهما شرقتما أو غربتما فمصيركما الى فى النهاية . فلماذا تسببان المتاعب فى الخارج ؟ ! . لقد كدرتمانى بهربكما القديم الى أرض غريبة ، وكأنى لا أستطيع أن أتحمل المشاكل الصغيرة التى تتعرضان لها . ألم تتذكرا ، وأنتما فى الغربة ، قول الشاعر :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

يا ولدى العزيزين ، ان أبناء مصر لا يطيقون البعد عنها ، ففراقها صعب ، بل ان القساة المتمصرين ، الذين انتهكوا حرماتى فى كل لحظة ، لا يسلون حنانى ومودتى وطيبتى أبدا . ألم يصلكما نبأ العاق الذى حاولت أن أرضعه أصالتى وصبرى ؛ فخان وكذب ودلس ، وسلم روحه للشيطان ، ثم لما مات من أثر الخمر والنساء والتخمة على أرض المنفى ، وجدوا فى وصيته رجاء بدفنه على أرض مصر .. وانتما من أبناء الفقراء ، تعلمتما بأظافركما ، لم تتمتعا ببهجة الحياة وزينتها فى الماضى أو الحاضر ، فالكتب دائما كانت التسلية الوحيدة لكما ، ولكن الكتب وحدها لا تكفى يا أبنائى الأعزاء ، فلا فائدة من علمكما الا بحب الناس جميعا ، وبئست بها معرفة تفتقد القلب والروح الانسانى . اننى اعطى أسرارى وأسباب حملى وولادتى ، ثم

خصوبتى الدائمـة ، الى البسطاء والطيبين ، وكم فشل فوق تربتى المغروروں والمدعون وأصحاب القلوب الغليظة .. وكم نجح فوق ظهرى مفلطحو الأقدام والأكف الخشنة ، متعبو الصـدور والأذرع .. أنقياء السريرة والضـمير .. فهـل تتركان ثرثرة الفلاسفة الصغار وحذلقتهم ؟ ! .

وكف الصوت الهامس عن الحديث ، فتبعه هديل اليمام ، وشقشقة العصـافير . وخور الجاموس والبقر ، وثغاء النعاج ، مع نباح الكلاب ومواء القطط ، فأحدثت فى القلب نشوة حلوة ، لا تعادلها أية نشوة فى العـالم . وود التوأمان ان يتحررا من خطواتهما المنتظمة الثابتة المزمنة ، ومن لهجـة حديثهما الممل المكرر ، من ضحكتهما المستسلمة المغرورة ، من رتابة العادات وسكونها الأبدى المميت . وددا لو ينطلقان مع المخلوقات يلعبان ويمرحان ويجريان ، ويحلقان فى الأجواء ، كطائرين مفردين : ان الحياة لا تحتـاج الى كل هذا العنت والجمود الذى لاقينـاه ، بل صنعناه بأيدينا . فى المدرسـة والجامعة كنا نعيش فى سجن المذاكرة ، وفى الوظيفة أشرفنا على سجن الطموح والغرور ، وفى الخارج وقعنا فى حبائل السياسة اللعينة . وهنا ، بعد كل ذلك الجهاد ، ما زلنا نعانى بشق الأنفس المطـاردة اللعينة ، نعجز عن مشاركة الفلاحين ، وهم لا يدركون قضيتنا .. نحن نعيش فى مفترق الطريق طول عمرنا .. الجمال حولنا لا نشعر به .. والصدق على الألسـنة نهرب منه ، وبلورة الحيـاة الصافيـة أمامنا ، لكنا عاجزان عن الامساك بها فى أيدينا . ضاعت الآمـال فى غمضـة عين ، فى سـاعة نحس . ولا نرى مـاذا تخبىء لنا الأيام القادمة ؟ .. هل تزيد من تعاستنا وهمومنا وكدرنا ، أم ربما تنزاح الغمة ، وتنفرج الكربة ، ونلتمس شعاع ضوء ؟ ! . ربما .. كلمـة يتيمة ، لا نملك غيرها .. والا فليذهب العـالم

الى الجحيم الى غير رجعة .. فالحيــاة يستحيل أن تســتمر وتزدهر بغير العباقرة .. فهم ملح هذا الكون الواسع الكبير ، فكروا فيه وجعلوا هاومه منذ ســقراط وارســطوا وافلاطــون همومهم .. ولا يمكن أن نكف نحن عن التفكير .. انت لا تستطيع ان تنزل الى البحر مرتين .. حكمة قديمة أثبتت فشلها ، فنحن ما زلنا نخطىء ، ونقع فى نفس الخطــأ مرات ومرات ، ثم هل الكون حادث ، أم انه مخلوق منذ الأزل ؟ ! . هل الانســان مسير أم مخير ، ثم مشكلتنا الحديثــة .. كيف نستطيع أن نقضى على استغلال الانسان لأخيه الانسان ؟ ! . أسئلة عويصــة ، تحير وتقلق ، وتجعلنا نغرق فى دوامة لا قرار لها ، دون أن نصــل الى بصيص امل ! .

وسقط التوأمان من تحليقاتهما الطيفية الى عالم الأرض ، ما زالت موسيقى الطبيعة تجهش بنغماتها الموقعــة الشجية ، تتداخل قوية حية ، ثم تضعف وانية ، رقيقة ، ترتطم وتتصارع وتتراجع ، ثم تهدر من جديد بحناجر البقر والجاموس والنعاج ، بشقشقة العصــافير ، وهديل اليمام ، بطنين الحشرات الهوائية القلقــة المتوترة ، بأصــوات الســواقى وآلات الحرث والرى والحصاد ، بغناء الفلاحات وهن يبذرن الحب فى الأرض ، يمنين القلب والنفس بالأيام القادمة الحلوة .

وقال التوأم الأصغر :

ــ لابد ان نجد حلا للأزمة ...

قال الأكبر :

ــ ليس فى يدنا شىء نفعله ...

قال الأصغر :

ـ يمكننا أن نشارك أهلَ هذه البلدة الآلام والأفراح .

قال الأكبر :

ـ نحن مجرد ضيوف سوف نرحل بعد قليل ...

قال الأصغر :

ـ أخشى أن يحقدوا علينا ...

قال الأكبر :

ـ لم يتعودوا الأحقاد ...

قال الأصغر :

ـ أحلم أحلاما مزعجة فى الليل ...

قال الأكبر :

ـ كلنا فى الهم شرق ...

قال الأصغر :

ـ مثل قديم ، عفا عليه الزمن ...

قال الأكبر :

ـ لكنه يناسب حالتنا ...

قال الأصغر ساخرا :

ـ بل كلنا فى الأحلام شرق ...

وضحكا ضحكتهما التقليدية الميتة ، ثم صمتا الى الأعماق، ولفحت وجهيهما كآبة سخيفة ، لا يدريان مصــدرها ، ربما كانت متخلفة من نعش الميت الذى قابلاه منذ أيام . قــال الفلاحون ،

انه طار منهم فى الهواء فى اتجــاه سيدنا الحسين . حاول الثلاثة الآلاف رجل الذين اشتركوا فى المشهد ان يثبتوا دعائم النعش على أكتافهم ، ولكنه كان يقفز منهم فى الهواء ، خفيفا ، رقيقا ، ودودا ، لا يريد أن يسبب المتاعب لهم ، روحه تهمس اليهم : أن اتركونى وشــأنى ، فقد بلغت الذرى ، فدعونى أتم الرحلة الى خاتمتهــا .

وعندما وصل التوأمان الى بستانهما ، شعرا بنشوة دافقة ، سوف يقطفان الثمار وهما يستعيدان الذكريات ، الى أن يأخذهما النعاس فى سلام الله .

***

وتمر الأيام ، وينتظر الفلاحون خروج التوأمين كعــادتهما للنزهة صباح مساء ، دون جدوى ، وتتضــارب الأقوال حول اختفائهما . يحكون أنهما تركا البستان قبل بزوغ الشمس ، دون أن يراهما أحد ، بعد أن تركا رســالة صغيرة تتضمن الشكر على الضيافة ، ثم الاعتذار عن الرحيل المفــاجىء . وآخرون يحكون عن مقتلهما فى احدى البلاد المجــاورة ، فقد وجدوهمــا جثتين هامدتين مخنوقين ، غير أن الشائعة التى يرجحها الناس ، تلك التى يرويها حكيم الحكماء حين يقول : ان المسألة قد انكشفت له فى ساعة تجل نورانى . فالتوأمان لا يزالان يعيشــان فى أمان الله فى احدى الجزر المهجورة النائيــة ، وقد اتخذ التوأم الأكبر سمت الحــاكم والدولة ، وتصريف شئون الجزيرة ، أما الأصغر ، فهو الذى يباشر أعمال الشعب ، ويرفع الحكيم يده الى السماء ، مشيرا الى الفلاحين أن يشاركوه دعاءه :

ـ اللهم طمئنا على ضيوفنا الذين عاشرونا فى يوم ما ...

كلنــا فقــراء

بعد غيبة طويلة ، عاد السخيف يداعبنى بالأمس . رأيتــه على وجه ابنتى دون أن يشــعر به ، يتسلل بندوبه واصفراره واحقاده وثقل ظله الى الوجنتين المتوردتين والعينين المتألقتين الذكيتين لمحته كالبرق . عرفت خبثه ودهــاءه .. اردت ان اصفعه بكل ما أوتيت من قوة ، ولكنــه راح يتخفى ويتكور على نفسه كخفاش الليل . سكت عله ينسى ، ويفصح عن قصده . إفدس أقدامه الكثيرة فى فمه ، واخذ يضمر ويضمر حتى يضللنى. ضربت كفى فى الهواء أريد أن الطمه ، فانشق المــاضى البعيــد أمامى .. فى المهد كان يطالعنى وجهه صــباح مســاء .. يغنى بجوارى اغنياته المشئومة الحزينة . احاول الابتسام ، فخنق ابتساماتى . استعطفه ، فلوح بأصابعــه النارية الســوداء فى عينى ، فاستبدل الابتسام بالبكاء ، فيشرق جبينه ، تستخفــه النشوة . واكبر .. ويكبر معى ، يلاحقنى . عندما بدات احفظ القرآن ، كان يجلس معنا ، فى مناديل غذائنا واحذيتنا وملابسنا.

نراه فى عينى الشيخ المظلمتين ، وقفطانه المتهرىء القديم ، وحدة صوته العصبية الغريبة . وفى البيت عندما كانت أسرتنا تأكل ، كان يتفرج علينا سعيدا ، يتطلع الى الأيدى وهى تتسابق الى الطعام . وفى الليل والبرد يأكل عظامنا ، نراه يقهقه مسرورا ، متدثرا بألف رداء . يزورنا عند المرض وقرب الموت واثناء الجنازات وايام الجفاف والقحط . يزور عنا فى لحظات السعادة القليلة ، حينما نحاول أن نفرح بزواج ، أو بولادة مولود، أو ايام جنى المحاصيل . السخيف ، يعود الآن ليداعبنى . كنت قد لويت عنقه منذ سنوات . وجدت عملا لا بأس به ، وتزوجت ، وانجبت ، واجتزت سور سجنه السقيم ، وقلت له : وداعا ياذا الوجه الكئيب .. لكن لسان حاله كان يقول : على كل حال .. فرد لا يهم .. العبرة بالجميع .. ما داموا فقراء .. فأنا مرتاح البال . ودار دورته ، وعمل عمله ، ثم سال لعابه من جديد . عاد بعد السنوات الطويلة يهددنى :

ـ هل نسيتنى ؟ ! .

وجمت الكلمات فى فمى . هل يسبق ، فيلطمنى ؟ ! .

قلت فى خاطرى : لم اغفل عنك أبدا .

همست الى الابنة الصغيرة :

ـ اشرب يا بابا ...

منذ أيام وهى تعانى من الحمى . نمنع عنها الطعام والشراب. تدوخها طواحين الألم . لم نستطع أن ننقلها الى الطبيب . احضرت لها جرعتين من الماء . ارتوت ، فاستردت انفاسها المتعبة . فتحت عينيها الجميلتين ، ثم افتر ثغرها عن ابتسامة عذبة . غاودنى الشبح الكئيب :

ـ لم تجبن أمامى ؟ ! .

ـ لأنى أخـاف .

ـ ولم تخـاف ؟ !

ـ لأن ابنتى مريضة ، وليس معى .. فهمت ؟ .

صمت ، وعروقه تنتفض بالانتقـام . ولكنى هتفت فيه بحـدة :

ـ اغرب عن وجهى ...

قال ببرود لزج :

ـ لا تغضب .

قـلت :

ـ بل سأحطم راسك يا قذر .

قـال :

ـ اذا استطعت .. افعل ما تشاء .

وانحـدرت دموعى على فـراش ابنتى . لا ينفـع معـك الاستعطاف ولا التهديد . اتريد انتزاع اعترافاتى ؟ ! . أيرضيك أن ينتشر الغم والهم والصقيع فى أرجاء الدنيـا ؟ ! وحتى تشعر بالراحة .. أعترف بأنك ما زلت قويا . أرى آثارك على اجساد الفلاحين فى قريتى .. فى العيون والأمعاء والدماء والعظـام .. تختصر الأعمـــار .. وتنغص الأيـام .. وتأكل العافيـة من الصدور .. وتتعب الأنفاس .. فى فراشى قبل ان تغمض عينى اتذكرك .. وفى الصبح لا انســاك .. فى قلب قرص الشـمس

الملتهب ، يغطى الناس بأشعته فى الشتاء اتذكرك .. فى مفرق نجوم الليل المزدهرة تسطع كبلورات الفضـــة ، لتنير الدنيا .. اتذكرك .. ساعة سهرات الأصــدقاء المنتشية .. أتذكرك .. فى لحظـات الصفاء بينى وبين زوجتى .. أتذكرك .. عنـدما تصافح أذنى الزغاريد الريفية الحلوة .. أتذكرك .. فى الأوقات السـعيدة الحرة قبـل الأوقات الضجرة المتكدرة القلقــة .. اتذكرك .. اخاف أنساك ، فتقلب غناء الصبايا فى الأفراح الى دفوف عجـائز يندبن .. أخـاف أنســاك .. فتمتص الآمـال والضياء .. تجفف الينابيع .. تسكت شدو البلابل .. وأغنيات العمـال وهم يشيدون .. هل تسكت شـدوهم الآن ؟ ! .. ارجـوك .

وصرخت الطفلة من الألم . فقالت زوجتى :

ـ وبعد ؟ !

قـلت :

ـ سوف احاول .

قـالت :

ـ من اين ؟

قـلت :

ـ ابحث عند الأصدقاء .

ـ واذا لم تجد ؟ .

ـ ......

ـ الديون كثيرة .

ــ والحـــل ؟

قالت تشجعنى :

ــ شد حيلك .

كانت الغبرة على وجهى . يداى ترتعشـــان من برودة الحاجة . عيناى تعشيان كما لو كنت أعمى ، فقد بصره فجـأة فى حادث أليم . وظل هو يجرى ويقفز فرحا سعيدا منتشيا . يشمت فى ضعفى ، ويستغل طيبتى وأساى وتشتت تفكيرى . قلت له :

ــ استحلفك الا تكون قاسيا .

قهقه كالمجنون . ضرب الجدار بأصابعه الفولاذية الصماء . وجحظت عيناه بالشر . وقال :

ــ لن تفلت بسهولة .

قلت فى سرى : سوف أسحقك أيها الملعون الأفاق .

فى العلن عدت أتملقه فى خذلان :

ــ اطلب السلام ..

قال والضحكة الكئيبة تملأ تجويفة فمه ، كما يملأ الجيف القبور :

ــ بل لا سلام ...

فكرت طويلا فى البحث عن نقود . اذهب للأصـــدقاء .. الأصـــدقاء فقراء .. للفلاحين .. الفلاحون فقراء .. أرفع يدى الى السماء .. السماء لا تستجيب الا ليلة القدر .. وليلة القدر

لا تجيء سوى مرة واحدة فى العمر .. عمر من ؟ ! . لا أحد يدرى .. استعطف الأغنياء .. الأغنياء لا يفكرون فى الفقراء .

***

وفى الطريق كان الفلك يكمل دورته . عيناى تجوسان عبر نهر الفقر والأسى والضياع . طفلان بائسان يتكوران على نفسيهما ، بجوار الجدار . وجه فلاح أصفر ، معلول .. ربما كان مريضا بالصدر أو الكبد أو الاستسقاء .. فتى وفتاة بلون الورد يشتاقان للحب ، يقفان على شاطىء الترعة ، يحاولان اختطاف الأمل من وهدة العدم . قالت الفتاة :

ـ احبك ..

قال الفتى :

ـ اعبدك ...

ـ اريد ان اعيش معك ...

ـ عندما أجد عملا ...

ـ قريبا ان شاء الله ...

ورايته يسبح على سطح المياه الراكدة بينهما . أتركه فى البيت ، فاذا به بين الحبيبين . يفرش قبة السماء الصافية بكدره . يرمى بجذوره العطنة فى باطن الأرض .

***

ومن باب العزاء ، حومت حولى بعض الآمال .. لست وحدى .. كلنا فقراء .. متى نتغلب عليه ؟ ! . ربما غدا .. أو بعد غد .. الساعة آتية لا ريب فيها . عندما نصبح يدا فى فى يد .. وكتفا فى كتف .. وقلبا على قلب .. فلا تحزنى يا ابنتى .. بل لا تحزن يا بنات الدنيا جميعا ..

الحفـــــل

فجـأة توترت الأمور فى قريتنـا ، سادها القلق والعجب والفوضى فالآن المسألة كلها بيد أم رمضان العبيطة . كلمة واحدة منها تستطيع ان تقلب الاحتفال راسـا على عقب . تضيع العرق والتعب الذى بذله الرؤسـاء والموظفون والعمد والمشـايخ فى الاستعداد لهذا اليوم منذ زمن بعيد ، فسوف يشرف جنـاب الوزير قريتنا لافتتاح مشروع معونة الفقراء أقاموا له سرادقـا ضخما بهذه المناسبة . وعما قريب سـوف يتعاقب الخطباء على المنبر . يشحذ كل منهم صوته وقريحته للاطناب والاستعراض والشرح . لكن الخيبة انهم لا يعثرون على أم رمضـان فى اى مكان . يريدون احتجازهـا خوفـا من لسانها . فالمرأة منذ ان عرفوها ، لا تترك بيتا لم تدخله ، تنقل الأخبـار والمعلومات والأسرار . وطالمـا سببت الكوارث والمحن على طول الطريـق الذى تحل به . فبدون مقدمات تعزم على نفسها بالقعود فى اى مكان ووقت يحلو لها مع المرأة او الرجل الذى تريده .. تسترسل

فى الحديث عما سمعته .. تعلق عليه .. تضيف اليه .. تحذف منه .. هى ومزاجها . المهم ان تتكلم كما تريد .. وبالطريقة التى تعجبها ، تدبق وتحبق الحواديت .. الفولة متنبلش فى بقها .. تقابل فلاحا على خلاف مع زوجته فينفرط عقدها فورا .. حكم .. والنبى لو انى منك لأوريها .. هى عاملة عنطوزة على ايه ؟ ! .. اسم الله عليها .. امبراطورة .. واللا امبراطورة .. وارثة .. واللا وارثة .. والنبى .. واللى نبى النبى . أجوزك احسن منها .. انا صحيح مليش دعوة .. لكن لا .. لازم يكون لى دعوة .. أمال أسيبك تلوص يا حبيبى .. تلوص لوحدك .. لا .. ورحمة ابوك .. يا سلام .. دا كان سكره .. كريم .. اللى فى جيبه فى ايده .. واللى فى ايده فى ايد الناس على طول .. مش أبوك بس .. وعمك كمان .. خالك وخالتك .. ونروح بعيد ليه .. وولاد خالك .. خالتك يا نضرى .. والنبى صعبانه عليه .. ملهاش حد يجرى عليها يا عينى .. مفيش اللا البنت المفعوصة .. الهى تنشك فى قلبها .. اعمل ايه ؟ .. أهى زى بنتي برضه .. بنات الأيام دى كلهم كده .. معدش فيهم خير .. والنبى ولا الولاد .. ولاد مين مش عارفة ؟ ! ولا الكبار ولا الصغار .. الزمن كله .. كله .. بقى نيله .. زفت .. قطران .. ثم تقابل زوجته .. حكم .. آل زعلان آل .. والنبى ما يساوى ضفرك وانت بنت حلال .. يعنى هو كان دفع مهر .. اسم الله على وشه النكد .. وتبدأ دورة جديدة .. سموها المذيعة لأنها تبلغ الأخبار أولا بأول . وكانوا يتجنبون لقاءها فى كثير من الأحيان حتى لا يقعوا فى شركها . ولكن أين يهربون منها ؟ ! . فمهما بلغت الأسرار ، فسوف تكون على لسانها حالا من اى بيت . اذا صدها أحدهم تتوسل بالتعب والارهاق الذى يحط عليها . ثم تحاول المسكنة .. بلاوى .. والنبى

يابنى عينى ما غفلت الليلا دى .. حط على كابوس الهى يكفيك شره .. ليلة ما يوريها لا لعدو ولا حبيب .. وبالعادة لا يملكون الزوغان منها .. المهم فى المصيبة التى حلت بهم الآن .. يضعون أيديهم على قلوبهم من الخوف .. يناقشون ترتيبات زيارة الوزير .. كيف يستقبلونه .. من هم الخطباء المرشحون للكلام ؟. يبحثون عن مندوب للفقراء يتحدث باسمهم عن عظمة المشروع واهميته .. ودور الحكومة فى انشائه .. يحسبون ألف حساب وحساب لأى شغب أو متاعب يمكن أن تفاجئهم أثناء حفلهم المرموق .. الميكروفونات جاهزة .. والسجاد والرمال الحمراء مفروشة .. والمقاعد متوافرة .. والأهم من ذلك كله النفوس والقلوب التى تهفو للقاء الضيف العزيز . ومن حسن الحظ أن الشمس تشرق اليوم ساطعة فى الأفق .. والطيور تغرد فى السماء .. وبعض السحابات البيضاء الشفافة تروح وتجىء .. كالمظلة الحنون فوق القرية .. وياحظ الفقراء فى لحظة قدوم السعد اليهم .. فاتحة طيبة .. سوف لا يذوقون بعدها طعم المرارة أبدا .. غير ان هذا ربما يذهب هدرا بكلمة فى غير محلها .. أو ايماءة جافة غليظة حادة .. أو عطسة أو كحة مفاجئة .. فمن يضمن اللحظات الحاسمة ؟ ! .

وفى مجلس القرية كان الأعيان والكبراء وممثلو الحكومة يجتمعون للتباحث فى الأمر . يرسمون صورة دقيقة للموقف القادم بكل تفاصيله .. قال مدير المديرية :

ـ طبعا أنا مش عاوز أتكلم كتير ... انما حظكو كويس .. احنا اخترنا بلدكو ننفذ فيها المشروع عشان هى بلد الوزير .. فعاوزين ترفعوا راسنا .. وتبيضوا وشنا .. فاهمين ! .

وقال مأمور المركز :

ـ لا يسعنى الا ان أرحب بسيادة المدير .. وكفاية علينـا تشريفك .. ودى اهم حاجة عندنا ..

وقال العمدة :

ـ والله انى راجل من الشعب . أنا مر على يمكن تلاتين مأمور قبل كده .. الجد .. الجد .. مشفتش أحسن من مأمورنا الموجود دلوقتى .. ابن ناس .. وأمير .. ربنا يحميه .

وقال شيخ الخفراء :

ـ اما العمدة .. فراجل سكرة لسانه ينقط الشهد المكرر.

قال المـدير :

ـ كسبنا صلاة النبى .. وبعدين .. نقوم يعنى ؟ ! كل واحد يقوله كلمتين فارغين وخلاص .

قال شيخ الخفراء :

ـ أنا خايف من حاجة واحدة بس .

قال المـدير :

ـ قـول ..

قال شيخ الخفراء :

ـ من الولية ام رمضان العبيطة .

قال العمدة :

ـ مالها يعنى أم رمضان .. دى غلبانه .. لا ليها فى الطور ولا فى الطحين .

قال شيخ الخفراء :

ـ أصـــلها دايرة فى البـــلد على حـــل شـــعرها .. قلبى خايف منها .

قال المـــأمور :

ـ ما هى دى المصيبة .. مش لاقينها .. لو كنا لاقيناها كنا حبسناها وانفضينا .

قال العمدة :

ـ يعنى راحت فين .. طارت فى الســـماء .. ما هى كانت بتلف حوالين العزبة ليل ونهار .. تلم القزاز المكسر .. اشمعنا النهـــارده ؟ !

قال المـــدير :

ـ شوفوا شغلكم بقى .. أنا معطلش نفسى عشان حاجة هايفة زى دى .. الوزير جاى الساعة سبعة ونص تمام .

وانفض الجمع شبه مطمئنين . لم يكونوا يدركون ان مشكلة أم رمضان ســـوف تنغص عليهم بعد وقت قصير . ذهبوا الى الصـــيوان الأنيق المنصـــوب بجوار الترعـــة . لفوا حوله عدة لفات .. دخلوا بين المقاعد والسجاجيد والرمال الحمراء . تأكدوا من سلامة الميكروفونات وعملها البرنج . ثم ركب رجال المديرية عرباتهم بعد اللمسات الأخيرة مطمئنين .

وعاد العمدة وشيخ الخفراء والخفراء والموظفون ورجـــال مشروع الفقراء يتابعون الموقف ..

قال مندوب الوزارة :

ـ عاوزين فلاح يتكلم عن الفقرا .

ضحك العمدة وهو يقول :

ـ يا سيدى .. عندنا كتير .. على قفا من يشيل ..

قال المندوب :

ـ المهم نحفظه الكلمتين اللى حيقولهم عشـان ما يغلطش قدام الوزير ..

قال العمدة :

ـ بسيطة .. ان محفظشى بالذوق .. نحفظه بالتأديب ..

وقال أحد الخفراء :

ـ وحكاية أم رمضان .. عملتوا فيها ايه .. الولية مش باينة فى الحتة ..

قال العمدة :

ـ تانى .. هو مفيش الا حكاية المدعوقة دى .. انتوا خايفين منها ليه ؟ ! .

قال شيخ الخفراء :

ـ أصل مفيش حاجة بتستنا فى بطنها على الاطلاق ...

واضاف الخفير :

ـ عاوزين نضمن شرها ...

قال العمدة :

ـ دا كلامها فارغ يا رجالة .. حتقول ايه يعنى ؟ ! .

قال شيخ الخفراء :

ـ يه .. كفايـة بس انها تقول ان احنا لمينا فلوس من الناس عشان المشروع ...

قال العمدة :

ـ وماله .. ما هو الوزير عارف .. هى دى حاجة جديدة.

قال شيخ الخفراء :

ـ يمكن تقول ان احنـا خنصرنا من الفلوس .. ما انت عارف كل حاجة يا عمدة ...

قال العمدة :

ـ ادبحها .. ادبحها والله .. هى فين بنت الرفضى ؟

وطار الخفراء فى كل اتجاه يبحثون عن أم رمضان . فتشوا البيوت والسـطوح والحظـائر والجـرن . انتشروا فى الطرق والدروب والأزقة .. يسألون ويستفسرون . كانوا يضحكون من الفخ الذى وضعتهم فيه أم رمضان العبيطة . لا يصدقون انفسهم وهم مشغولون فى البحث عنهـا .. كيف تختفى كالأبرة وسط الرمال .. بل اصبحت جوهرة يشتاقون للعثور عليها .. يرثون للحـالة التى وصـلوا اليها .. ضربت معهم لخمـة ، ففقدوا اعصابهم .. فبدءوا يضربون فى الخلق ويزعقون ، فبعد أن بدأت المسألة معهم بالسخرية والضحك والتنكيت .. انقلبت الى جد صارم حزين .. وعذاب وتعاسة .. يتحملونها دون نتيجة ..

قال محمد الخفير :

ـ بنت اللئيمة تدوخنا كده ؟ !

وقال على :

ـ الحق علينا ..

قال محمد :

ـ ازاى ؟ !

قال على :

ـ تنفلق يا اخى أم رمضان على شورتها السودة .

وقال حسين :

ـ بقالى فى الخفر عشرين سنة . متعبتش زى النهارده يا عالم ..

قال محمد :

ـ طب ما نقف عند الصيوان لغاية نهاية الحفلة .. عشان نخلص ...

قال على :

ـ الفرج يا صاحب الفرج . وارتبك اهل القرية . بعضهم يعطف على أم رمضان العبيطة ، فماذا فعلت حتى ينطلق وراءها الخفراء كالكلاب المسعورة ؟ ! . يريدون تمزيقها واحضارها أمام العمدة وشيخ الخفراء ، وبعضهم يخاف العواقب . فمن يضمن عدم الانتقام ؟ .. والأفضل ان تسلم أم رمضان نفسها اليهم . وضرب احد الفلاحين كفه بالأخرى وهو يتعجب :

ـ بقى عشان مره عبيطة يا خلق . الحفلة تبوظ ؟ !

ويمر الوقت ، وساعة تشريف الوزير تقترب .. والصيوان

منصوب على رأس قريتنا كالشاهد الحزين . تنعق فوقه الغربان والبوم ويعود الخفراء الى العمـدة منهزمين مذنبين . يقفـون مسمرين ، فيهب فيهم شيخ الخفراء :

ـ خلاص يعنى .. غلب حماركم ؟

ولا يردون . يكتفون بتنكيس الرءوس الى الأرض خائفين . يودون لو يزعقون .. يحتجون ..

وعلى غير توقع ينفجر غضب واحد منهم قائلا :

ـ الله .. واحنا نعمل ايه .. ما يمكن راحت السوق ...

ويشهق الجميع من المفاجأة فى نفس واحد :

ـ صحيح .. ما يمكن راحت السوق ...

قال شيخ الخفراء :

ـ حالا .. طيارة على السوق يا غنم شوفوها ..

وقرب العصر كان العمدة ومعه الجميع يتحوطون أم رمضان بها مهللين . فمجرد العثور عليها مكسب عظيم . اطمأنوا انهـا تحت أيديهم ، لن تفلت أبدا . كانت الدهشة تستولى عليها ، تتعجب منهم ، لا تدرى شيئا مما يدور حولها .. تكاد تفقد عقلها من المفاجأة المريبـة . ولأول مرة فى حياتها تصمت . عقد الخوف لسانها ، فماتت الكلمات على لسانها .. وتيبست الجمل فى حلقها .. شعرت بالعطش .. فأحضروا لها المـاء .. وجاعت فأكلت . وتاهت نظراتها بين الخلق الكثير . وبعد فترة قال لها العمـدة ليطمئنها :

ـ ازيك يا أم رمضان ...

فلم ترد .. قالت فى نفسها .. العمـدة اللى طول عمره ما كلمنى بيقولى ازيك .. خيبـة ايه دى يا ولاد ؟ ! مـالك يا عمدة .. جرى ايه فى الدنيا الغبرة دى .. حصـل ايه ؟ ! القيامة قامت .. ايه الخفرا دول .. والعساكر .. أنا عملت حاجة بطالة .. يخيبك يا عمدة بلدنا .. يخيبكم خفرا .. تنشلوا فى ايديكو يارب . تضربونى فى السوق على راسى .. تمزعو لى جلبيتى الحيلة .. عاوزين نافوخى يطق من الزعل والنكد .. والله مانى قاعدة لكم هنا ... سيبونى ... أوعى يا جدع أنت وهوه ... أوعى كده .. أوعى ..

وقال شيخ الخفراء :

ـ يا أم رمضان ازيك .. مبترديش على العمدة ليه ؟ ! .

قالت وهى تحاول أن تسترجع روحها المسحوبة :

ـ الله يسلمك .. أنا فين ؟ !

قال العمدة :

ـ انت معانـا يا أم رمضـان ، اصحى بقى .. خليـكى شـاطرة ...

قـالت :

ـ يا نضرى .. دانى مش شايفة حاجة قدامى .. مين دول ؟ !

وساد الصمت من جديد . شعر الخفراء بالشفقة عليها . احس مندوب الوزارة بالذنب .. قال فى سره .. ليتنى لم أحضر

من العاصمة . هؤلاء الفلاحون يحتاجون الى مائة سـنة حتى يقضوا على الفقر . يا ريت انفد بجلدى النهارده .. عشان أرجع لولادى سليم . وقال العمدة :

ـ حتروحى فين فى الليل يا أم رمضان ؟ .

قـالت :

ـ الله .. حروح فين يعنى ؟ .. عند بنتى .. أنـا ليه غيرها أروح عنده ؟ ..

قـال :

ـ احنا عاوزين نريحك بس ...

قـالت :

ـ ريحتك العافية يا حضرة العمدة ...

قـال :

ـ وكمان لك ريال دهب ..

زعقت بفرحـة :

ـ ريال دهب .. دهب .. هو فين ؟ ! .. أبوس أيدك .. هو فين .. ريال .. ريال دهب .. يا خرابى .

وقامت تحتضنه لولا أن حجزها الخفراء . قال العمدة :

ـ على شرط ...

قـالت :

ـ شرط ايه يا ضناى ؟ .

قــال :

ــ ما تطلعيش من عند بنتك ...

قــالت :

ــ واطلع ليه فى الليل يا خوى ... والنبى مانى طالعــة ابدن ... ابدن ... ابدن ..

قال وهو يخرج الريال من جيبه :

ــ أهه الريال .. كويس .

والتقطته من يده ، والدهشــة تستولى عليهــا .. ريال دهب .. ريال .. ياللى ما تنسى عبيدك يارب .. والنبى غلبانة وطيبة وبحب النــاس .. قلبى عليهم .. غلابــة .. فقرا .. ومحتاجين . وملناش حد يبكى علينا .. ولاد حوا وآدم .. بس ملناش بخت .. الهى وانت جاهى بنور نضرك يا حضرة العمدة ، وماتشفش مصيبة لا فى مالك ولا فى عيالك .. آل مجوزهاش .. ليه ؟ .. دا بنت عمرها ما تتعيب .. زينة البنات والنبى .. طول وعرض وقوام .. حيلاقى زيها فين .. ولا فى الأحلام .. دا حمار .. هو حر .. يا ختى انى خوته نفسى بالناس ليه ؟ !.. لكن لا .. لابد يجوزها ، طول عمرك كريمــة يا أم رمضان .. فيكى الخير .. آه .. الريال الدهب فضلة خيرك .. المنكود ابن أم عباس واللا بلاش ! ...

قال العمدة :

ــ ايه رايكم بقى ؟

قال شيخ الخفراء :

ـ انا قلتها .. مفيش عمدة زى عمدة بلدنا .. كلهم طراطير وبهايم .. تعيش لنا يا عمدتنا ...

وحانت لحظة السعد على قريتنا . فى الساعة السابعة والنصف تماما .. كان الوزير وحاشيته فى الصيوان . تتألق الأضواء فى أعينهم وجباههم ، وعلى أكتافهم . الابتسامات تفرش الأرجاء ، ونسيم العز يعطر المقاعد والسجاد . وبدأت بشائر الافتتاح . وقف مقدم الحفل يفرد طوله الى الوراء ، يعدل من هندامه ، ينتظر هدوء ضجة الهتافات المرحبة ، وما كاد يقول فافتخار عظيم : ايها السادة .. حتى همس فى أذنه آخر .. فتنحى عن الميكروفون .. وامسكه غيره .. كانت العصبية تتجلى فى عينيه وحركات يديه ونظراته ... قال :

ـ سيدى الوزير .. سادتى الأعزاء .. انها للحظة تاريخية مجيدة .. تعز على الوصف .. تلك التى نبدأ فيها احتفالنا العظيم .. ويا طالما حفيت اقدامنا على الحكومة السابقة .. وها هو الخير يجىء على يد حكومتكم الرشيدة .. فى ظل مليكنا المفدى ... فمرحبا بوزيرنا العظيم فى مسقط راسه الطاهر .. والآن كلمة ..

وتوالت الخطب الحماسية . وقف عجوز يتكلم عن ثورة ١٩١٩ وكيف اشترك فيها .. والمظاهرات أيام زمان .. ومظاهرات شباب اليوم .. ووطنية محمد فريد وسعد زغلول .. ووطنية هذه الأيام .. ثم زعق زعقة النهاية :

ـ ايها السـادة ان الجيل القديم كان أصلب عودا .. وأقدر كفاءة .. لكن ظروفه كانت صعبة ...

واستطرد خطيب السامعين بأن صدعهم بقصيدة عصماء فى مدح المدير :

الأرض ارض والسماء سماء مادمت أنت مديرا لهذه الخيلاء

وازداد اللت والعجن الى ان كادت الحفلة تصل الى خاتمتها السعيدة . وشـارف الوزير أن يقول كلمتـه لولا أن اندفعت أم رمضان الى الصيوان متشنجة ، صارخة ، تشتم العمـدة وشيخ الخفراء وكل الموظفين :

ـ آل ريال دهب آل .. انتو عاوزينى اسكت .. اسكت.. ليه .. هو انى ماليش لسان أتكلم بيه .. ما هم واخدين فلوس عشان الزفت المشروع ده .. لامين منا فلوس .. وايه الفايدة .. ياخدوا منـا وبعدين يدونا .. بيه علمنـا ايه ؟ ! .. كمـان سارقين من الفلوس . كل الناس فى العزبة بتقول انكم حرامية.. والنبى ما اسكت .. خدوه اهه .. والنبى ما تذلونى .. ابدن .. ابدن ..

وطوحت بيدها بالريال الدهب فى قلب الصيوان ، فسـاد الهرج الحاضرين .. وخبط العمدة كفا بكف . وانشلت ارادة شيخ الخفراء . لم يستطيعوا أن يتصرفوا . وحـاول أكثر من خطيب ان يهدىء الموقف دون نتيجة . وكادت الهتافات تنقلب ضد الحكومة والوزير والمشروع ، لولا ان التف العساكر والخفراء

حول أم رمضـــان ، واندفعوا بها الى الخـــارج ، والغيظ يملأ صدورهم .. لكنها ظلت تقاوم .. تضرب بقدميها وساقيهـــا فى الهواء .. تلطم وجهها وتصرخ . طلع عليهـــا عفريتها ، فلم يستطع أحد التغلب عليه . وحين هدها التعب بين يدى العساكر كانت تردد فى صوت مبحوح عاجز ضعيف :

آل ريال دهب آل .. والنبى ولا ستين ريال .. طظ فى الدهب كله .. هو انى ماليش لسان .. والنبى لا يمكن اسكت أبدن .. أبدن .. أبدن .

جنون الربيع

فى الربيع تجيئه الحالة .. شىء ما يقبض روحه ، فيحاول التخلص منه ، يريد أن يتحرر الى الأبد من ظله الثقيل . كلما شم رائحة الزهور ضاق نفسه كأنها رائحة الموت .. عندما كان صغيرا أفلت منه الأمر . فارتاح راحة حلوة حملت عنه الهموم ، وأدخلت السعادة الى قلبه .. أصبحت عادة يشتاق اليها فى كل عام .. لم يهمه أحدا ، الراحة وحدها هى التى يبحث عنها ، ليتحلل جسده كله فيها ، أعصابه تفك من أسرها الطويل ، ينطلق لسانه يقول ما يشاء ، يضرب بأقدامه فى المكان الذى يحب ، يخرج من دائرة التعامل الضيقة الى الدائرة الرحبة الفياضة .. الغيبوبة الدائمة .

الآن يشعر بالخدر اللذيذ ، فيفيض التفاؤل من صدره . ها هى أيام التجديف قادمة . سوف ينزل البحر ، وليكن ما يكون . لم يعد يخاف الغرق ما دام لا يشعر . فى الصباح وجد نفسه يسبح فى الضوء . حاولوا أن يكلموه ، فأبى .

صمت حتى لا تضيع منه لؤلؤته المسلوبة . جلس على المقعد يبتسم ويشرب الشاى ويحلق . من يشق السماء مثله ؟ ! .. هو وحده الذى يطير مصفقا بجناحيه الى اللا حدود .. ضحك ضحكة عالية ، فالتأموا حوله مشفقين ، قالوا :

ـ هل تريد شيئا ؟ .

قال لهم :

ـ أشكركم .. دعونى فى حالى .. ارجوكم ..

قالوا :

ـ ساعتان وأنت صامت ، لا تتحرك .

قال :

ـ أعطونى كوبا من الماء ..

قالوا :

ـ هذا ثالث كوب تطلبه ..

قال وهو يبتسم :

وخلقنا من الماء كل شىء حى ...

وجلسوا حوله ساكنين ، حبس الأب دموعه فى عينيه وهو يستعيد الأيام البعيدة .

***

لم انكب فى ولد من أولادى مثلما نكبت فيه يارب . افلا ترحمنى ؟ ! . لم أقصر فى حقه بدا .. بعت ما ورائى

وما قدامى دون جدوى . لم اترك وليا من أولياء الله الصالحين الا مررت عليه فى زيارة ، سيدى أحمد البدوى ، سيدى ابراهيم الدسوقى ، أبو العباس المرسى .. الخ .. وفشل هؤلاء جميعا فى مساعدتى ، فرحلت الى مصر ، عند حكيم الأمراض العصبية ، ظل يعالجه بالكهرباء ستة شهور متوالية ، دون جدوى أيضا . فجـأة لم أجـده امامى . اختفى عن ناظرى فى شـوارع مصر الكثيرة . عدت الى البلد أطوى حسرتى وأساى . سلمت امرى الى الله وحده ، عادت قدماى تغوصان فى طين الأرض ، ويداى تمسـكان المحراث ، وعيناى على المجهول .. اين ابنى ؟ ! من يستطيع أن يدلنى عليه ؟ ! .

وفى ذات مساء كنا جالسين ، انا والزوجة الغلبانة والأولاد، بعد ان انتهينا من العشاء واذا بالباب يطرق ، والكلاب تعوى فى حمى مجنونة . قالت زوجتى :

ـ مين ؟

قال الطارق :

ـ أنا عيد .

قـالت :

ـ عيد مين ؟ !

أجاب الصوت فى لهفة :

ـ شحته .. شحته ..

واندفعنا كلنا نحو الباب كأننا كنا نبحث عن جوهرة غالية ، ضائعة منا منذ زمن بعيد ، ثم وجدناها فجـأة . احتضناه جميعا

فى لحظــة واحدة . أدخلناه الى القاعة ، فاذا به يبكى ونبكى معه من الفرح والجيشـان العاطفى الذى لا حدود له .. قلت متشككا فى اللحظات الأولى وقد غشيت عينى الدموع :

ــ انى خايف ما يطلعشى شحته ؟ ! .

واقتربوا منه ، ثم هتفوا فى صوت حاسم :

ــ لا .. هوه .. هوه .. الكى أهــه اللى فى دماغه .. موجود ..

قدمنا له لحما مسلوقا كنا ندخره لليوم التــالى .. قعد يأكل بنهم بدائى لم نعرفه فيه من قبل . أصابعه كانت متسخة ، واظافره طويلة ، تتخللها القذارة .. ووجهه لوحته الطبيعة . قفزت اليه أمه تملس على خده ، وتقبله وتأخذه فى حضـــنها ، ثم قالت :

ــ اين كنت يا ولدى ؟ !

قال ونغمة مبحوحة خشنة تتحشرج فى صوته :

ــ عند السيد البدوى ..

قلت فى دهشة :

ــ عند السيد البدوى .. غريبة .. لقد ذهبت الى هناك .. لففت المكان كله .. بحلقت فى وجوه الدرواويش والأتباع واحدا وراء الآخر .. بحثا عنك .. لكنى لم اعثر عليك .

قــال :

ــ كنت لا افارق المقام ابدا .

قـلت :

ـ ولكنى درت حول المقام نفسـه مرات ومرات ..

قـال :

ـ على اى حال .. ازمة وانتهت .. كيف حالكم ؟

رددنا فرحين :

نحن بخير ، لم يكن ينقصنا الا الاطمئنان عليك .. نرجو أن تكون الغمة قد انزاحت الى الأبد .

قال وعيناه تزوغان حوله :

ـ ربمـا ..

قالت الأم :

ـ كن صريحا معنا .. حتى لا نفعل شيئا يغضبك ؟ .

قـال :

ـ انتم لم تغضبونى فى حياتى ..

قالت الأم :

ـ يعنى مش زعلان منا ؟ .

قـال :

ـ لا أبدا .. حد يزعل من أهله ! .

قـالت :

ـ ولكنك نكدت علينا ثلاث سنوات ...

قـال :

ــ لم يكن الأمر بيدى .

وأشار بيده ــ واللقمة بين أصابعه ــ الى أعلى :

ــ بيده وحده . لا أستطيع رد قضائه .

قالت الأم :

ــ الحمد لله .

ودعونا معها شاكرين :

ــ الحمد لله .. الحمد الله .

***

وصفق بيديه علامـة الفرحـة الكبرى بعد أن شرب كوب المـاء ، وزعق زعقة نشوى منطلقة الى النهاية .. هيه دنيا .. ملهاش أمان ! .. ترضى عليك النهارده .. وتقلب عليك بكره .. مفيش غيره هو الراحة .. هو الراحة العظمى .. لكن لكل أجل كتـاب .. وما تدرى نفس بأى أرض تموت . وهب واقفـا يقول :

ــ خلاص انى ماشى .

قـال الأب :

ــ الى أين ؟ ! .

قـال :

ــ بلاد الله واسعة .

ـ الى السيد البدوى ؟ ! .

ـ لا .. بل الى أى مكان .

ـ يا شحته نرجوك .. ارحم أمك العجوز .

ـ لم أفعل شيئا يضر .. مصائبى أتحملها وحدى ..

ـ نحن نريد أن نشاركك هذه المصائب .

ـ لا تستطيعون تحملها . أرى الا أرهقكم معى.. فمشوارى طويل .. طويل .. وطريقى وعر .. يمتلىء بالغبار والأشواك ..

وعادت الابتسامة الساخرة على شفتيه . لم يتعودوا منه الأذى ، فالصمت لغته الوحيدة . انه يكنز سره فى داخله ، لا يريد أن يطلع عليه انس . من يحطم قشرته الصلدة ؟ ! . فى كل ربيع يصنع عالمه الخاص ، يذود عنه كل اعتداء خارجى. من حقه أن يرتاح ، ويتأمل ، ويحقق حريته . انهم يغلونه فى أرواحهم السقيمة العالية الرنين ، وهو يسعى الى الأرواح الهامسة الوديعة المشفقة الحنون . ليس لديهم الوقت الأن يندبوا : يا حزننا ، يا يأسنا ، أو يا عمرنا الذى يضيع .. ويا انسانيتنا التى تذوى . كل شىء يسير .. العجلة لا تتوقف أبدا ، وهو يريد أن يستريح فى ظل راحة ربيعه المميت .

دخل الى خلوته ليعد حاجياته .. المسبحة .. والشال الحريرى .. والعصا والحجاب .. ووقفت العائلة تكون سورا امامه ، قالوا :

ـ لن ترحل .

قال :

ـ بل سوف ارحل .. هل تريدون ان تكتموا أنفاسى فى هذا المكان الضيق ؟ !

قـالوا :

ـ لا .. بل نريد أن تبقى معنا .

ـ وهل أنا معكم الآن ؟ ! .

كز الأب على شفتيه وهو يقول :

ـ طبعا لا .. لكن يا شحته .. نرجوك .

ـ رجاؤكم على عينى وراسى .. ولكن ..

ـ اطلب ما تشاء .

ـ ليس لى طلبـات .

ـ اذن قدر عواطفنا .

ـ ولمـاذا لا تقدرون عواطفى ؟ ! .

ـ نحن تحت أمرك .

ـ نغمة ممقوتة .. اكرهها .. دعونى أسبح فى الملكوت .. لا تحصرونى فى عالمكم الضيق ! .

وسكت الأب والهزيمة ترجعه الى الذكريات .

***

فى عام ۱۹۳۹ ، كان شحتة وسيم الطلعة ، بشرته بيضـاء كاللبن الحليب ، دقيق الملامح ، جميل الوجه ، حلو التقاطيع ، فيه شبه كبير من البنات ، يضـع على رأسه عمامة صغيرة لطيفة

تجعله يبدو اكبر من سنه بسنوات . فى عينيه يكمن طموح هادىء أليف ، وفى لفتاته وتعليقاته الذكية طموح كبير . انه يرتل الآيات بطلاقة ، يغن فيها ويمد ويتلاعب ، كأنه يجرب صـوته لينافس المقرئين الكبار ، لكن الامتحان خذله خذلانا مبينا . ضاعت موهبة الصوت وانحسرت موجات الطموح ، وضمرت الأمنيات ، مالت الى الخفوت والانزواء . وشيئا فشيئا ، هامت الأطياف الكئيبة فى سمائه ، وترنحت الرغبات مطعونة جريحة . ولم يستطع أن يقـاوم .

استكن لسانه فى فمه لا ينطق . فضـل الانسحاب الهادىء الوديع ، ارتد الى داخله حسـيرا يجتر الأحزان والهزائم التى تشعبت فروعها فى نفسه . العالم كله فى نظره رئة معلولة واهنة النبض ، شحيحة الدماء ، سوداء اللون . استحسن قطة بيضاء اليفة ، وراح يعتنى بها الى أن ولدت له سبع بنات ، والسبع بنات ولدن هن الأخريات ، فتوسـع فى الهوايـة المريحـة .. وامتلأت خلوته بالقطط فى الصباح يقدم لها الطعام ، يملس عليها الواحدة بعد الأخرى ، يرتب لها الخرق أيام الشتاء . يأرق من أجلها فى الليل ، ويراقبها فى النهار .. عالم أليف ودود ، تؤثر فيه الكلمة الطيبة ، ويثمر فيه تقديم الطعام ، وتشذب من اخلاقه العشرة الانسانية .

فى مرة وقف بينها خطيبا وهى تموء ، قال :

صديقاتى العزيزات .. زينب ، خديجة ، مريم ، سكينة.. اشكر لكن صنيعكن النبيل ، لأنكن انتشلتننى من ورطة محققة ، كانت روحى فيها على شفا الافلاس .. وحين اتصلت بكن ، عاد الخصب الى ارضى المجدبة ، ارتوت بعصـير الوجود السماوى

ورحيقه .. الآن تهيم نفسى بنفوسكن . كفانا الله شر المكروه والغم ، ونشر حولنا ألوية السلام والطمأنينة .

***

عام ١٩٤٥ ، لا يدرى شحتة سر هذا العنفوان الذى أصابه . كانت الدماء تجرى فى عروقه ، أمسك بالعصا فى يده ، وراح يجوب البلدة هاتفا . يا عباد الله .. الحاضر يعلم الغايب .. أن هذه البلد تحتاج لمصلح عظيم .. امنعوا نساءكم من الخروج أشباه عرايا فى الشوارع .. أدبوا أولادكم وهم صغار حتى لا تتعبوا معهم وهم كبار .. استخدموا الآلات فى زراعة الأرض حتى تجنوا محصولا أوفر . لا تصدقوا الاشاعات التى تصفنى بالجنون .. الحقيقة أنى أستطيع أن أقول ما أريد .. اما أنتم فمغلولون فى ألف قيد .. والحياة لا تحتمل القيود .. عباد الله .. فكوا قيودكم المزمنة .. وانطلقوا فى شعاب الأرض .. كلوا من طيبات ما رزقكم .. وادعوا الله أن ينقذ الدنيا من الشرور والمآسى والأوهام .. الحاضر يعلم الغايب أرجوكم . ولا تحملونى فوق طاقتى .

***

وعادت العائلة تلتئم حول شحتة من جديد ، قالت الأم :

ــ لن نتركه هذه المرة يسيح فى البلاد .

قال الأب :

ــ لو كان الأمر بيدنا ! ...

قال شحتة :

ـ بيده وحده ..

هتفت الأم وهى ساخطة :

ـ ولكنه خلق لنا عقولنا لنفكر بها ...

قال الابن :

ـ العقول وحدها لا تكفى .. انها تضللنا فى بعض الأحيان .

وهمس الأب فى مودة :

ـ يا شحته .. نحن لا نجبرك على فعل شىء لا يروقك ..

رد عليه فى ملل مجدف :

ـ تجبروننى أو لا تجبروننى .. انتهت المسألة .. وخرجت من يدى أنا نفسى ..

قال الوالدان :

ـ ما هى المسألة يا شحته ؟ ! .

ـ المسألة عويصة لا تستطيعان ادراكها .

ـ وهل تنكر تجاربنا فى الحياة ؟ ! .

ـ تجاربكما دقة .. وتجربتى دقة أخرى .

ـ فكر فيما تقدم عليه .

ـ فكرت طويلا .

ـ أيرضيك أن نظل ننتظرك ؟ !

ـ كلنا فى حالة انتظار لا ندرى نهايته .

ـ يا شحته .. نرجوك ..

ـ الحكاية لا تستحق رجاء .. قلت لكما دعانى وشأنى .

زعق الأب فى وجهه :

ـ لا .. لن ندعك تفلت من أيدينا .

ابتسم ابتسامته المعهودة :

ـ هل تستخدم العنف معى ؟ ! .

قـال الأب :

ـ وماذا أستخدم معك ما دمت لا تفهم ؟ ! .

قـال الابن :

ـ أنت تعاملنى كما لو كنت شيئا من الأشياء .

ـ تضطرنى لأن أثور .

ـ لا فائـدة من ثورتـك .. اذا أردت أن تفعلهـا ، فكن طبيعيا .. ليست أول ولا آخر مرة ، يداى ورقبتى وسـاقاى ما زالت عليها آثار الحبال القديمة ...

ـ لن اكتفك يا شحتة .

ـ كتف ولا يهمك .

ووقف الولدان بجواره .. الأب عن يمينه ، والأم عن شماله يلفهما الصمت الكئيب واليأس . لم يعد امامهما سوى التسليم .

فى الربيع تجيئه الحـالة . شىء ما يقبض روحه ، فيحـاول التخلص منه ، يريد أن يتحرر الى الأبد من ظله الثقيل .. كلمـا شم رائحة الزهور ضاق بنفسه كأنها رائحة الموت .. عندما كان صغيرا افلت منه الأمر مرة ، فارتاح راحـة حلوة حملت عنـه الهموم ، وادخلت السعادة الى قلبه . أصبحت عادة يشتاق اليها فى كل عام . لم يعد يهمه أحد . الراحة وحدها هى التى يبحث عنها ، ليتحلل جسـده كله فيهـا . أعصـابه تفك من أسرها الطويل . ينطلق لسانه يقول ما يشاء . يضرب بأقدامه فى المكان الذى يحب . يخرج من دائرة التعامل الضيقـة ، الى الدائرة الرحبة الفياضة .. الغيبوبة الدائمة .

أخبار كاذبة

مات أم لم يمت . ليست هى القضية . منذ سنوات والموت تحت اقدامه فى كل خطوة يخطوها . يراه رأى العين . يتنفسه فى زفيره وشهيقه فى اللقمة فى فمه ، ربما يتمها أو لا يتمها . فى قبة السماء يجيئه من القنابل والصواريخ . فى الأحراش والأودية والجبال والسهول . فى اليقظة والأحلام . فى دقات ساعته . فى عيون رفاقه ونبضات قلوبهم . فى الصحف والمجلات . فى التصريحات والمؤتمرات . اذن هو صديقه الأليف الذى لا يخشى منه . يصارعه بجدع الأنف ، ولوى الذراع ، وأحيانا بالفرار .

فى الصباح قال المذياع : حوصر جيفارا ، ومات . خبر كاذب ، ربما كان صددقا . استيقظت زوجتى وعلى وجهها آثار هموم قديمة . سمعت صوت ابنتى يردد : بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى . صرخ الوليد باكيا . اعطيت له البزازة ،

لكنه رفضها بحسم ، لأنه يريد ثدى الأم ، لا يرضى عنه بديلا ، ثم عاد وافتر ثغره عن ابتسامة مشرقة عندما انسال اللبن فى فمه . قالت زوجتى :

ـ اتسمع صوت المدافع ؟ .

قلت :

ـ تدريبات .. ليس مهماً ..

قـالت :

ـ مالك ؟ .

ـ لا شىء .

ـ اخبار جديدة ؟

ـ عاديـة ...

ـ حرب او لا حرب ...

ـ سيان .. تعودنا عليها ...

وطوقت البيت بنظرة ، ثم سكنت صامتـا . **نهر القـلق** لا يكف عن الجريان ، يحتضن بين شاطئيـه الأحزان الصـغيرة والكبيرة . أمواجه تلطم القلب والنفس . جيفارا يا جيفارا لم يعد اسمك رمزا . هل حقا ؟ ! . وامتد البصر الى بوليفيا . خمسة فدائيين وجيفارا سادسهم ، بل عشرة وهو الحادى عشر . لا ... خمسون .. ستون .. مائة .. الف ... الف الف وهو

معهم .. فى أمريكا اللاتينية .. فى غزة .. العريش .. عدن .. لو طاردوك الى النهايــة .. لو حصلوا على رأسك النبيل .. لو مزقوا جسدك العملاق .. لو فرحوا بدمائك ، فســوف يظل اسمك محفورا على جبين الدنيا ، على أشجار الكازورين والكافور والجميز فى قريتنا ، على حبات القمح فى الحقول ، على ثمــار الفاكهة من كل صنف ، عفوا جيفارا فانى عاجز ، وأخشى أن أطيل ، والقصــة لا تحتمل . وشبع الوليد من ثدى أمه ، فأخذ يناجى .. غ . غيغا . أغ . ورفت بجوار نافذتى عصفورتان تسقسقان ، ثم حطتا تتعانقان . ناديت زوجتى :

ـ هل رأيت ؟ ! .

وانزاحت هموم الليل عن وجهها :

ـ غريبــة ...

وخرجت الابنة الى المدرســة .. وبدأ العمال يقفزون الى جدران العمائر ، وأصــوات المدافع تزداد عنفــا من بعيد .. والتمتمات فى فم أمى تدعو للعالم بالخير .. تصــلى من أجله ركعتين ، وترتل الآيات المنجيات ، همست لها :

ـ ادعى له يا أمى ...

قــالت :

ـ صاحبك ؟ ! .

ـ لا ...

ـ زميلك ؟

ـ لا ...

ورفعت يديها الى السماء ، والبشر فى محياها ... اللهم انصره على أعدائه .. ورأيته يرفرف فوق نهر أحزانى محلقـا بجسده الأبيض الشفاف ، وذقنه الكثيفة ، وتقاطيعه الوسيمة الدقيقة ينقط فمه الغذاء للأطفال ، يطمئن الآباء .. ويشارك العلماء والتجـار والمحاربين . أن شدوا حيلكم .. وافرحوا .. واملأوا الدنيـا خيرا وخبزا ومودة وكبرياء .. ووقفت الكلمـة على لسانى : مات أم لم يمت . ليست هى القضية .

استيقظوا أيها الموتى

فى الظهر ، كان كل همى أن أجد مقعدا خاليا حتى أستطيع أن أرمى برأسى الى الخلف ، ثم .. أنـام ، فلا شىء يزيح الملل غير ملل آخر مثله مميت . فمنذ سنوات وقطارنا العتيد يلجمنى داخله لا أستطيع الفرار . فى البداية ، كنت ثائرا ، أحاول التعرف على الناس ، أنزل فى المحطات ، ثم أعود لأركب حتى أجدد متعة السـفر ..

ـ لكنى فى النهاية يئست ، بل ارتحت أن أفعل مثلما يفعلون . النوم .. لا شىء غيره يضـيع الوقت وينسى الهموم ويريح الجسد ، ويفيد النظر . تذكرت بطل احدى الروايات . كان طبيبا ماهرا ، تعلم فى الخـارج وعاش هنـاك فترة طويلة نسى فيها عادات قومه ، وتنكر لتقاليدهم فلما عاد فوجىء بالمرضى يعالجون عيونهم بزيت أم هاشم ، فتعجب فى بادىء الأمر ، لكنه بعد مرور الأيام ألف الحيـاة بينهم ، فعاد الى تقاليدهم ، ولم يتخل عن علمه الذى تعلمه فى الخارج .. ويقولون انه فى آخر

عمره كان مترهل البدن يحب النساء الشعبيات ، لا يأخذ الا القليل من مرضاه ، يدخن كثيرا ، حتى ان رماد سجائره كان يغطى سرواله الفضفاض .. وهكذا عاش هانيا راضيا بما قسم الله له ، فنفع بلده ، ونفع نفسه .

وقبل ان استعد لوضع النوم الخالد ، نظرت حولى ، فاذا العيون مغمضة ، والأذرع مرتخية ، وتيار كالموت يغطى الوجوه . ضقت من السأم الذى يحوطنى ، كل يوم نوم .. نوم .. استيقظوا أيها الموتى ! ، كدت أصيح بأعلى صوتى فيهم ، لولا تخاذل أكبر منى شملنى .. نم أنت أيها المتمرد الشقى ! . واغفيت سريعا دون مقاومة . وبدأت الرحلة .. تك .. تك .. تاك .. الى أن نستطيع أن نوفق أى كلمات مع صوت العجلات السريع . زمان كنا نقول ونحن أطفال : .. أمى .. بتعجن .. كعك .. بسكر .. كعك بسكر .. تتك .. تتك .. تك . أما اليوم فيمكن أن نقول .. النوم .. بايخ .. النوم بايخ .. يا دى الحوسة .. يادى الحوسة .. واهتز جسدى على اثر ارتجاجة مفاجئة . وقف القطار فى أول محطة رمى زفيرا ، ثم أخذ شهيقا . طلعت عائلة صغيرة تبحث عن بعض الأمكنة . بنتان وولد ، أب وأم . جلسوا أمامى ، فانتعشت فى صدرى روائح الفضول . طردت شبح النوم عن عينى . وازداد النبض فى قلبى، تماما كما نستيقظ على حادث سعيد لم نكن نتوقعه . وانقلب الفضول الى لحم ودم من الذكرى القديمة البكر .

***

فى الأيام الأولى كنت أستظل بحبهما ، وهو ما زال طازجا ، جنينا فى بطن الغيب ، يناغى ويهمس . فى صباح ما ، كانا أمامى كالعصفورين المسقسقين . قالت :

ـ تقابلنى الساعة كام ؟ .

قـال :

ـ الساعة ستة .

قـالت :

ـ فين ؟ .

قـال :

ـ قدام سينما مترو .

ـ فيلم كويس .

قال العصفور :

ـ ما دام انت معاى ضرورى يطلع رائع ...

ولوت عنقها خجلى مسرورة . رفرفت فى سـماء الحب . نقرت نقرتين ، ثم طارت ، رافعة الجناحين . زجاجة عطر تسكب رحيقها على الكون .

***

وجاء الكمسارى ، نغمة مرذولة ، مللت منها .. تذاكر .. اشتراكات . ويستيقظ النائمون . قلت فى سرى : ابعد عنى أيها الشبح الكئيب .. لا وقت للملل . وجه الشمس زاهيا مشرقـا ينير المكان حولى ، يبعث الدفء فى القلوب . عيناها عسليتان واسعتان عند مفرقها ترقد الشعرات البيضاء ، فتزيد أمومتها جمالا ونقاء . وجه الأب كالقمر ، أبيض كاللبن الحليب . البنتان تفاحتان صغيرتان . ترتديان فستانين زاهيين . يعقدان شعرهما

بشريطين حمراوين بلون الورد . كانتــا تشبهان أمهمــا الى حد كبير . أما الولد فقد كان يشبه اباه ، فى سماحة وجهه ، وضيق عينيه ، وغزارة شعر حاجبيه ، وبدلته الزرقاء الأنيقة .

قالت تفاحة من التفاحتين :

ــ محطة ايه دى يا ماما ؟ .

قالت الأم :

ــ المعادى يا ناديه ...

ــ وبعد المعادى ؟ .

قالت الأم ، وهى تطبع قبلة على خدها :

ــ ثكنات المعادى يا حبيبتى .

قالت التفاحة الأخرى :

ــ وبعد الثكنات يا ماما ؟ .

ابتسمت الأم :

ــ كوتسيكا يا منى .

***

وانهمرت الذكرى فى صــــدرى . كانت الدنيــا تمطر فى الخارج ، وقلبا الحبيبين يجيشان فى الداخل ، وذرات الميــاه المتساقطة على زجاج النافذة تشاركهما عرسهما راقصة ، شفافة ، صافية . وهما مشغولان عما حولهما بالعتاب والدلع والتمنى . ودار الفلك دورته .

فقالت الشمس للقمر :

ـ صعب نطلع من بعض تانى ...

قال القمر :

ـ اشمعنى ؟ ! .

قالت الشمس :

ـ كانوا حيشفونا مع بعض ! .

قال القمر :

ـ مش معقول ! .

قالت الشمس :

ـ لا معقول .

قال القمر :

ـ أنت تغيرت .

قالت الشمس :

ـ ابدا والله ..

قال القمر :

ـ بلاش معاندة !

قالت الشمس :

ـ لا يمكن .

ـ لأ بتعاندى .

ـ مش ممكن اعاندك .

قال القمر :

ـ اشوفك امتى ؟ .

قالت الشمس :

ـ افـكر .

قال القمر :

ـ بدون تفكير .

ـ مش النهارده ...

ـ لأ النهـارده ...

***

وغابت الشمس والقمر عنى سنوات . اظلم القطار من الضياء رحت أتخبط فى الملل والسأل والضيق . الوجوه الصلدة لا تتغير والعيون الكسولة تنام . كنت أشتاق للعصفور والعصفورة ، يرفرفان حولى ، يسقسقان فى عالمى . لكن الازدحـام ما زال يضايق الأنفـاس ، فخفق قلبى من جديد ، حملتها على ركبتى ، ثم قبلتها ، فابتسـم الأب علامة الامتنان . همست لها ، وأنـا أحتضنها بين ذراعى :

ـ اسمك ايه بقى يا كتكوتة ؟ .

قـالت :

ـ اسمى منى .

ـ بتروحي المدرسة يا مني ؟ .

آه .

ـ في سنة ايه ؟

احمرت وجنتاها القرمزيتان الجميلتان وهي تقول :

ـ أولى اول ...

ثم تطلعت الى أمها ، وسألت :

مين ده يا ماما ؟

فشعرت بالخجل . فغيرت مجرى الحديث بسرعة :

ـ بتحبي ماما وبابا ؟ .

قـالت :

ـ آه .

ـ اد ايه ؟

قالت وهي تفرد ذراعيها الصغيرتين الى آخر المدى :

ـ أد الدنيا دي كلها .

ـ طب بتحبي ماما أكتر وللا بابا أكتر ؟ ! .

قالت ضاحكة :

ـ الاثنين قد بعض .

وسرحت ببصرها الى الخـارج . كانت الأرض خضراء ، حبلى بثمار الشتاء . وكان رذاذ المطر يغطي زجـاج النافذة . وسرى تيار من الدفء في جسـدي ، فعاودتني الاغفاءة الكئيبة .

فشدتنى الذكريات القديمة . وقالت منى وهى تشـير الى أحد حقول البرسيم :

ـ ايه دى يا بابا ؟ ! .

قلت دون انتظار اجابة أبيها :

ـ دى جاموسة يا منى .. وعارفه اللى جنبها ايه ؟ ! .

هزت راسها فى ظرف لطف :

ـ لأ ...

ـ دى بقرة .. طب اللى جنب البقرة .. اذا كنت شاطره.

قالت مسرعة :

ـ دا كلب ! .

وقرب نهاية الرحلة كان النوم يسيطر على القطار ، الولد الصغير فى حجر أبيه ينام . والأم تنام ، والأب مد قدميه مسترخيا يطلب الراحة ، يغلبه سحر قطارنا ، فيغفو . وأمسكت بأصـابع منى حتى أطرد شـبح النـوم . آدى البيضـة .. وآدى اللى اشتراها .. وآدى اللى شواها .. وآدى .. حت حتيت .. لقول ستيت وزغزغتها فى صـدرها ، فضحكت بسرور . لعبنـا معا ، انتشينا . وكان الملل والصمت ودفء الشتاء يلف ركاب قطارنا الكسول ، ووجدتنى أهتف أنا ومنى فى النائمين :

ـ استيقظوا أيها الموتى ...

مهـرج المـلك

يحكى انه كان فى قديم الزمان ملك اراد أن يسرى عن نفسه اثناء احدى امسيات الصيف اللطيفـة . ولمـا كان يجلس مع وزرائه كل ليلة ، فقد تطلع الى يمينه صدفة ، فوقع بصره على وزير ضئيل الجسم ، صغير الراس ، يتلفت يمينا وشمالا على الدوام ، وله أصابع طويلة لا تتناسب مع قامته القصيرة . وعلى غرة خبطه الملك على غطاء راسـه ، فطار بعيدا ، ولشد ما كان سروره حين وجد راسه خاليا تماما من الشعر ، فانفجر ضاحكا ، وضحك معه الوزراء ورجال الحاشية والخدم . ومن تلك الأمسية ، والملك يتخذ من هـذا الرجل مسخة وانيسا له، يتفاءل به كلما رآه . امره أن يتخلى عن ادارة دفة البـلاد ، واخذ يصاحبه فى رحلاته ونزهاته الخارجيـة والداخلية . وشيئا فشيئا اتقن الوزير المهرج اضحاك الملك من كافة الوجوه ، وفهم مزاجه تماما . فكان يعرض له راسه كلما رآه ، ويزحف على قدميه وكفيـه ، ويقـلد أصـوات الكلاب والقطط والحيوانات الأليفة وحركاتها . كما أنه كان يمشى على يديه ، وساقاه مرفوعتان

الى أعلى مسافات طويلة ، فى حلقات دائرية ، وهو يصفق بقدميه من الفرح والحبور . وحينئذ يسقط غطاء رأسه ، فيسر الملك لذلك سرورا عظيما . ويأمر وزير خزانته بأن يصرف له مكافأة سخية .

وفى مرة من المرات ، وكان الملك فى ضيافة أحد أصدقائه الملوك ، أمر مهرجه بأن يلعب العابه ، فعرض له راسه ، فخبطه الملك ، فاذا بصديقه يكاد يستلقى على قفاه من الضحك ، لكن الملك اغتم . لاحظ أن شعرتين يتيمتين قد طلعتا فى راس المهرج. وحين عاد الى مملكته الواسعة الأرجاء غض النظر عن مهرجه بعد أن فقد مزيته . وأحجم عنه . فاذا ما اقترب منه يداعبه أشاح بعيدا عنه ، واذا قلد أصوات الكلاب والقطط او حتى الأسود ، فانه يتجاهله ، الى ان جاء يوم ، وطلب طرده من القصر. فرجع الوزير المهرج الى بيته مهموما ، يلطخ وجهه بالطين . وجاءته ابنته تقول :

– مالك يا أبى ؟ ! .

قال :

– ضعنا يا ابنتى .

قالت :

– لم ؟ !

قال :

– غضب على الملك .

وقص عليها قصته .

قالت :

ـ لا تغتم ، عندى دواء سوف يقضى على الشعرتين أبدا .

وعاد المهرج الى الملك بعد ان ذابت الشعرتان فى رأسه ، ولم يبق لهما اى أثر . وعادت البهجة الى وجهه . غير أنه بعد أيام قليلة خبطه الملك ، فاذا بالشعرتين تنبتان من جديد . وتحير المهرج ، فاحتجب من تلقاء نفسه هذه المرة . وأخبر ابنته بالأمر . فلم تعره التفاتا ، رغم حزنها الداخلى . وظل الوزير يستعمل الدواء ، والشعرتان تختفيان لبعض الوقت ، ثم تعودان من جديد . وأخيرا جلس ينتحب ، ويذوب الدمع على حظه العاثر الى ان نضبت الدموع من عينيه . وكان الملك قد اتخذ له مهرجا آخر ، راسه خالية من الشعر أيضا . وقطع عن مهرجه القديم المكافآت والمنح التى كان يعطيها له من باب الاحسان . فأرسل له المهرج الرسل لكى يعود وزيرا كما كان ، ولكن الملك رفض ، وامر بحبسه . فكبلوه بالحديد ، وأدخلوه السجن . وبقى فيه سنوات عديدة ، الى أن قامت ثورة على الملك ، وخلع عن عرشه ، فأفرج عن المهرج ، فطلع محطما ذليلا ، وقال بمجرد أن طلع من السجن :

ـ اين سيدى ومولاى ؟ ! .

قالوا له :

ـ لقد خرج من البلاد الى غير رجعة .

قـال :

ـ يستحيل ، انى فى طاعته وخدمته دائما .

قـالوا :

ـ اذهب اليه فى منفاه .

قــال :

ـ لا ... أنتم تكذبون على .

وجرى الى قصر الملكالقديم ، فوجده خاويا ، ينعق فيه البوم . فجن جنونه ، وأخذى يهذى فى الشوارع ، ويقلد أصوات الحيوانات والطيور والأسود . وامسك بيده حبلا طويلا ، راح يضرب به الأرض فى كل مكان . وجاب البــلاد من أقصاها الى أقصــاها ، عله يعثر على الملك المفقود ، دون فائــدة ، والناس يتسلون به ، ويتفرجون عليه . وهجر بيته ، وظل هائما على وجهه فى الشوارع والأزقة والدروب ، الى أن اتخذ له من أحد الكلاب صديقا . صنع لنفسه عربة صغيرة من الخشب ، وبدأ يبيت بها ، يجرها الكلب الى حيث يريد . وتغيرت أحوال البــلاد من النحس الى السعد ، ومن الشر الى الخير ، ومن الظلم الى العدل والانصاف . والوزير المهرج سابح فى ملكوته ، لا يدرى شيئا عما يدور حوله . أطال لحيته وأظافره . واصبحت له رائحــة عفنة نفاذة ، يشمها كل من يقترب منه ، فينفر النــاس منه ، حتى ابنته انطوت على نفسها ، وحلت عليهــا لعنته ، وكتمت احزانها فى صــدرها . ولم تستطع أن تقدم له المساعدة . وكانت كلمــا تراه تجهش بالبكاء . وتمنت أن يرحل عن هــذه البلاد ، كمــا رحل سيده الملك من قبل ، ولكنــه لم يفعل . فحلت النقمــة عليها ، فضمر عودها ، ومرضت بداء الصــدر ، وفشلت فى زواجها عدة مرات ، وباعت كل ما تملك حتى تعيش . وتخلى عنها الأهل والأصحاب ، فباتت تعد النجوم فى الليل . وأشــد ما كان يحزنها هو تلك الأقاويل التى كانت تسمعها ، فى أن اباها ، شارك الملك الفاســد ظلمه وفجوره وعدوانه . واغتصب معه أموال

الناس بالحرام . وفى بعض الساعات القليلة ، كانت تراه فى شبه وعى بالحياة ، واضعا أصبعه تحت ذقنه ، يتحسر على الماضى الذى عاشه ، يود الامساك بخيط الحياة والذكريات ، لكن الحالة سرعان ما تشمله عاتية قوية ، فيذبل جسده ، ويثقل لسانه هائما على وجهه ، يغيب أياما ثم يعود ، ومخلته وراء ظهره ، ممتلئة بالخبز ، له ولكلبه .

وفى ذات صباح ، استيقظ المهرج شبه يقظان ، وراح يجوب البلاد طولا وعرضا ، منذرا بعودة الملك الى ملكه المفقود . والناس مذهولون من هذه الحمى التى أصابته فجأة . وحاولت ابنته أن تهدىء من روعه وهوسه ، لكن المحاولات كلها باءت بالفشل ، واندفع المهرج حول القصر ، ينتظر عودة الملك القديم ، وراح يضرب بحبله على الأرض محذرا من يقترب منه . واطلق كلبه فى الشارع ، وترك عربته الصغيرة ، واخذ يعتدى على بعض المارة . وكاد شغبه أن يحدث ضررا ، لولا أن أمسكه الناس وأوثقوا رجليه ويديه وعلقوه فى احدى ساحات العدل العامة بوسط البلاد ، وتركوه سبعة أيام بلياليها الى أن انقضت عليه النسور وسائر الطيور الجارحة ، فحملته بعيدا ، بعيدا ، الى الخلاء . ومن يومها لم يسمع أهل البلاد شيئا عن أخبار المهرج، غير أن الطيور الجارحة لا تزال تحوم الى الآن فى سماء تلك البلاد ، تبحث عن فريسة أخرى تريد التهامها .

الابـــن العـــاشر

يحكى أن مدينة ما بأطراف الدنيـــا استيقظت ذات صباح على أزمة كبيرة ، فسادها لغط وهياج شـــديدان . وكادت تحدث ثورة لولا أن العقل تغلب على العواطف . فقد ظل امير تلك المدينة عاقرا سنوات عديدة ، يحاول فيها بكل الطرق أن ينجب ولدا ما او حتى بنتا ، لتخلفه فى الحكم . طاف بأرجاء البـــلاد مشرقا ومغربا ، على أطبائها وحكمائها وسحرتها دون أن يلمح بادرة انفراج للضيق الذى يلم به. كانت زوجته تدلس عليه بين الحين والآخر ، فتدعى الحمل ، فيظل يأكله قلق الانتظـــار ، شهرا واثنين وثلاثة الى التاسع المجيد .. حتى ينكشف أمرها ، وتعاود الحكاية مرة ، بعد مرة ، والأمير لا يعترض ، بل يكتفى بأن يمنى النفس والفؤاد ، الى أن اعتزم فى سره أمرا ، كتمه فى خاطره مدة طويلة . ووجد الفرصة ليفاتح زوجته فيه ، قال :

ـ عندى فكرة .

قالت الزوجة :

ـ قل .. ربما يجيء الفرج ! .

قـال :

ـ سوف نستولى على أول مولود فى المدينة ونتبناه ، ثم أتنازل له عن العرش ، على أن يأخذ لقب الأسرة فيما بعد .. ويدير دفة البلاد .. فما رأيك ؟ !

قـالت :

ـ ولمـاذا تتعب نفسك .. فتختار انسانا غريبا .. اختر من العائلة .. وارح نفسك ..

قـال :

ـ لا .. سوف اربيه على يدى .. ارضعه أفكارى وعاداتى وهواجسى .. وأطعمه من دمائى .

ووافقته الأميرة على الفكرة .

***

فلما كان ضحى احد الأيام ، هللت المدينـة من اقصاها الى أقصاها ، بأن زوجة أحد الفقراء ولدت ابنها العاشر . انه الابن الموعود .

وركب الأمير مع حاشيته الى كوخ الفقير . وهنـاك نزلوا يتضاحكون ويتهامسون .

وقال رجل من الحاشية :

ـ أين المولود الجديد ؟ .

فأحضره أبوه . وكان لايزال مقطوع السرة ، احمر اللحم ، يبـكى .

ونظر الواقفون فى وجهه ، ثم قالوا :

ـ لا تبك .. لقد انفتحت لك طاقة القدر ...

وقال الأمير للفقير :

جئناك فى طلب يا رجل .. فهل تلبى ؟

وقبل الفقير الأرض من تحت قدمى الأمير ، ثم تأخر :

ـ أمرك يا مولاى !

قال الأمير :

ـ سوف نأخذ ولدك لنربيه فى القصر .

دهش الفقير وهو فرحان :

ـ حقـا ! .

قالت الحاشية فى نفس واحد :

ـ هل تقبل ؟؟

قال الفقير :

ـ أوامركم .. خذوه من الآن .

واخرجت الأميرة من حقيبتها شالا حريريا ، لفت به المولود ، وغطت رأسه بزعبوط مذهب نادر ، وألبسته حول رقبته عقدا من اللؤلؤ والمرجان والذهب الخـالص . ونظر اليه أبوه ممنونـا سعيدا عندما دس الأمير فى يده كيسا ثقيلا من الذهب الأصيل .

ان هذا المولود الجديد « قدم » السعد عليه ، سوف تختفى أيام النحس من حياته ، فيأكل العيال ، لا يجوعون أبدا ، ويتخلص من قرف زوجته ومناكفتها الأزلية .

وقبل أن يضعوه فى العربة المذهبة ، خرجت الأم ، وحمى النفاس ترهقها الى النهاية . صرخت فى جنون :

ـ ابنى .. اين ابنى ؟ ! .

واندفعت نحوه تحتضنه بين ذراعيها . فابتسم الأمير والأميرة والحاشية ساخرين .

وقال أحدهم :

ـ هذا هو الجنون بعينه ! .

ودخلت الأم بوليدها الى مهده الدافىء ، ترقده فى حجرها ، تدثره بثيابها من البرد . أما الحرير والذهب واللؤلؤ ، فقد رمت به لاعنة .

ومنذ تلك الساعة والمدينة قد انقسمت الى فريقين ، فريق الفقراء ، وفريق الأغنياء ، حتى فى داخل كوخ الفقير الذى شم رائحة الغنى من بعيد ، اشتدت الأزمة الغريبة ، فقد هب الفقير فى زوجته :

ـ جننت والله .. كيف ترفضين الذهب ؟ ! .

قالت المرأة :

ـ اسكت أيها المخبول .

***

كان الزوج يضيق بأولاده التسعة السابقين . وأولى به الآن أن يرمى المولود العاشر فى البحر ليستريح من الشقاء ، أو يرمى بنفسه . غير أن الفقراء التأموا حوله متعجلين . أصواتهم تلح عليه أن يتريث فى الأمر . فالأمير ليس منا ، فكيف نعطيه ابننا ؟ ! قالوا :

ـ يا عبيط .. هل تفرط فى ابنك ؟ .

اشاح بغيظ فى الهواء :

ـ الذهب .. الذهب يا مناكيد ! .

قال الفقراء :

ـ الذهب لا يدوم .. يذهب ويجىء .. أما الانسان ! .

***

وجهز الأمير بعض العساكر من حرسه ليرهب المدينة حتى توافق على التبنى .

ولكن الغليان ازداد لهيبا ، وتجمع الفقراء حول كوخ الفقير . فى أيديهم العصى والطوب والزلط ، يتطاير الغضب من عيونهم . وكف الأب عن هذيانه ، واستسلم للرجال . قعد بينهم مكلوما محسورا ، ينعى حظه البائس . وعاود الأمير حيلته ، فبعث الأميرة الى الكوخ ومعها الوصيفات لتشرح الأمر . فصنع امامها الرجال حائطا ضخما فى البداية ، لكنهم أفسحوا لها الطريق من باب الذوق .

وقالت الأميرة :

ـ ابنك فى امانتى .. لا تخافى عليـه .

قالت الأم المذعورة :

ـ لا ...

الأميرة :

ـ سوف تصبحين وصيفتى الخاصة .

الأم :

ـ لا ...

الأميرة :

ـ وتأخذين الف الف جنيه ! .

الأم :

ـ لا ...

قالت الأميرة بعد ان نفد صبرها :

ـ لا ... لا ... سوف نأخذه بالقوة .

قالت الأم :

ـ لن تستطيعوا ! .

***

وهدات المدينة ، سكت الأمير والأميرة عن اسى وغيظ .

واشتدت سواعد الفقراء فاحتضنوا ابنهم بين صـدورهم الحانية . علموه الحب والود والنقاء والوفاء . اشركوه معهم فى

آلامهم وأفراحهم . حكوا له قصتهم من البداية حتى النهاية ، فتأثر بها كثيرا ، وتذرع بالصبر والجلد والعناد . أطعموه من زرع الأرض وملح السماء ، وتوابل الفكاهة والظرف . فشب قويا معافى، خفيف الروح ، نقى السريرة . شجاع القلب متأملا فى الكون ، مفكرا فى خلاصهم من العبودية ، التفوا حوله ، فازداد ايمانه بنفسه وثقته بهم . بكى وضحك وتألم وصبر وعانى ، واشتدت به الملمات بينهم ، وامتدت اليه الأيدى والسواعد والقلوب ليقوى عوده ، ويستنير عقله . ومرت الأيام .

***

وفى ذات صباح كالذى ولد فيه ، ركب حصانه ومعه اهل المدينة يطالبونه بالحرية ، وخرج له الأمير والأميرة . وكان الكبر قد هدهما ، قال الأمير مأخوذا :

ــ انت ؟ ! .

قال المولود :

ــ نعم ... انا .

وقال اهل المدينة :

ــ ونحن معه ! .

واغمى على الأمير والأميرة من اثر غبار الفقراء ، فاستسلما فى هدوء صاغرين . ودخل الناس القصر فرحين . قالوا للفارس المولود :

ــ هذا قصرك يا .. لك السلامة ..

قال الفارس :

ـ بل لكم السلامة .. مكانى حيث ولدت ...

***

وترنمت موجات الهواء بفرحة رقيقة . حطت اسراب الطيور فوق الرءوس تغنى . وأقيمت الأفراح والزينات فى كل الارجاء وهرب الأمراء والأميرات ورجال الحاشـــية ومن لف لفهم الى المجهول . وجاء والد الفارس يتعثر فى خطواته خائفا ، يريد أن يكفر عن ذنوبه . وتحوطه النـــاس منتظرين ، فقـــال الفـــارس المولود فى اشفاق :

ـ لا تقسـوا عليــه يا رجـــال .. فهو منى وانا اليه على كل حـــال .

لحظة سعادة

ظل الجد مكدرا منغصا طول اليوم ، تذكر الاهانات القديمة التى تحملها فى الوظيفة . كان يعانى من السكر وضغط الدم . لم يتحرك الا فى حجرته الضيقة المعتمة الكابية . كل شيء فيها عتيق عتيق ، عصا الشباب . وطربوش الرجولة ، ومعطف بداية الشيخوخة المبكرة ، ليتها دامت . فى الأيام الأخيرة عاد الى التدخين . وكان قد امتنع عنه أربعين سنة كاملة . انه المتعة الوحيدة فى حياته رغم ضيق التنفس الذى يعتريه بمجرد أن يضع السيجارة على شفتيه . الهم يرقد له فى أركان القاعة ، يتطلع اليه فى شماتة وحقد ، لو كان رجلا لقتله ، لا يستطيع أن يواجهه الا بتنهيدة حارة مستسلمة كسول :

ـ هيه .. دنيا .. تاخد فى رجليها الصالح ع الطالح ...

ويعود يبحث فى ذاكرته عن الأيام الحلوة ، فيجدها بعد جهد وضنى ، شحيحة باهتة ، تتأرجح الظلال فى افقها . وتصيبه

تعاسة مقهورة لا حدود لها . ان العين لتدمع ، والفؤاد ليجزع . .
ولكن النظر كليل ، والقلب ضعيف ، والأذن تسمع بصعوبة .
فقد الجسد الزيت ، فانطفأت فيه الشعلات . واصبح يدعو الله
وهو فى صلاته قاعدا ، يحرك نصفه الأعلى وحده . غاب عنه
الأولاد . كل فى وظيفته . توزعوا على المدن والقرى والنجوع .
ولم يبق معه سوى حفيد واحد يناكفه ، يقطع عليه تأملاته فى
الحياة والكون والحكمة . ولد شقى ، لا يكف عن الحركة والعبث
بمحتويات جيوبه وذكرياته القديمة . لا يدرى لم يشتاق اليه
الآن ؟ ! ، ربما ليطمئن عليه . ناداه بصوت واهن ، فجاءه يقفز
مسرورا فرحا :

ـ نعم يا جدو . . .

قال له :

ـ اقعد يا ولد . . .

قال الحفيد :

ـ حـاضر . .

وقعد القرفصاء ، ثم ضحك بانطـلاق من قلبـه ، ثم قفز
واقفـا :

ـ أنا قايم بقى . . .

نهره الجد غاضبا :

ـ اقعد يا ولد . . رايح فين ؟ ! .

وقعد مرة أخرى ، وهو متجهم مهزوم . كان الجد يفكر فى
مداعبته ، لكنه لم يجد فى جعبته شيئا يقوله . فتعكز على عصاه
الى جواره محايلا :

ـ مالك يا وله ؟ !

قال الحفيد :

ـ عاوز العب مع أصحابى .

وافلت لسان الجد دون وعى :

ـ طب ما نلعب سوا .

ثم عاد وتعجب من أمر نفسه . كيف يحدث هـذا ؟ ! . ولكن الحفيد قفز الى رقبته يحتضنه :

ـ صحيح يا جدو ؟ ! .

وانطلقت الكلمة من شفتيه واثقة هذه المرة :

ـ صحيح يا حسن ..

انبطح على أرض القاعة يمشى على ركبتيه وكفيه ، ثم قال :

ـ اركب يا وله ...

وقفز الحفيد الى ظهر جده . أعطاه الجد العصا ليضرب ، ثم تقدم وتأخر بجسده كالجمل ، وغنى بصوت أشبه بالمعجزة :

ـ حج حجيج وبيت الله .. والكعبة ورسول الله ...

وسر الحفيد وهو يتأرجح فوق الجمل ، وقال :

ـ حـا ... حـا ...

وانزله الجد .. واجلسـه ، وقـال وقلبـه يخفق من التعب :

ـ هه .. انبسطت ؟ ! .

الحفيـد :

ـ لا ...

الجـــد :

ـ أمال عاوز ايه :

الحفيـد :

ـ عاوز لعبة القط والفأر .

الجـــد :

ـ وايه كمان ؟ !

الحفيـد :

ـ والاستغماية .

الجـــد :

ـ وكمـان ؟ ! .

الحفيـد :

ـ ونجمة السما .

الجـــد :

ـ كمـان ؟ ! .

الحفيـد :

ـ والعريس والعروسة .

الجـــد :

– بس كده ؟ ! .

الحفيـد :

– لا .. ويخلفوا صبيان وبنات .

الجـد :

– عـال .

الحفيـد :

– ويحاربوا الأعداء .

– خـلاص ؟ ! .

الحفيـد :

– ......

الجـد :

– غلب حمارك ؟ .

الحفيـد :

– ......

الجـد :

– ويعجزوا ويكبروا زيى يا حسن .. مش كده ؟ ! .

الحفيـد :

– لا ...

ونظر الجد فى وجه حفيده ، فاذا به مفتح الأكمام كالوردة.

شفتاه وخداه وذقنه الجميلة الدقيقة ، وعيناه اللامعتان الذكيتان كلها تتلون بالدماء النقية الحارة . وفجأة قال له من جديد :

ـ أنا عاوز قرد يا جدو .

قال الجد :

ـ حتعمل بيه ايه يا حسن ؟ .

قال حسن :

ـ العب بيه .. باحب القرود يا جدو ...

قال الجد :

ـ وبتحبهم ليه يا حسن ؟

قال حسن :

ـ دمهم خفيف يا جدو ...

قال الجد :

ـ حاضر .. وعاوز ايه كمان ؟ ! .

قال حسن :

ـ وخروف كمان ..

ضحك الجد وقال :

ـ وخروف كمان ... دا انت طماع قوى ! .

قال الحفيد :

ـ عشان أوكله برسيم ...

قال الجد :

ـ ما ندبحه فى العيد احسن ! .

قال حسن :

ـ لا ... أنا عاوز أوكله برسيم بس .

الجـــد :

ـ خـلاص ؟ .

الحفيـد :

ـ لا ...

قال الجد :

ـ عاوز حاجة تانى ؟ ! .

قال حسن :

ـ عاوز ارنب .

وعاود الجد النظر فى وجه حفيده . فرأى فيه خبثا طفوليا ساذجا . أشرقت ملامحه عن ظلال مضيئة شفافة . نسى أصحابه وشعر بالرضى والاطمئنان مع صاحبه الكبير . وكان يريد مواصلة الحديث لولا أن « بعبع » جده كالجمل ، ونهق كالحمار ، فقفز على ظهره متعجلا . واستغرق فى الضحك ، فضحك الجد فى البداية وهو خائف ، يخشى المفاجآت . لكن الحفيد ظل يضربه بالعصا ، ويحكم اللجام فى فمه حاثا اياه على السرعة :

ـ شى ... حا ... شى ... حا ...

الى ان انطلقت الضحكات فى قلبه صافيــة مرفرفة حيــة كالطيور ، ربما بعد ايام طويلة من الكدر والهموم .

عابروسبيل ..



لعبة الطائرات الورقية

فى ذلك الصـــباح كنت خالى البال ، نحيت همومى المزمنة الى حين . اشع على طيفه الأخضر يتسربل بالذكريات . نفضت يدى من الطعام . هدات اعصابى . القادم الشفاف يكره الضجة المفتعلة . كان وهو صغير يحب الرســم ، يحلو له أن يصــور الطبيعة ووجوه أصدقائه المخلصين . يهوى الألوان الزاهية مثل الورود . ما زالت كراســة اللغة العربية بين دفاترى القديمة ، لم تؤثر فيها السنوات بعد ! .. كنت انفض عنها الغبار لأقلب صفحاتهـــا ، أرى ملامح طفولتنـــا ، شجرة القطن .. بوركت يا تبرية الثمرات .. قطتى نميرة . واسمها ســـميرة . تضيع الأحداث واللحظات ، وتبقى كراسة عصام فى قلبى وبين يدى ، أشم رائحتها العطرة . همس لى برفق :

ـ وحشتنى ..

ـ بل انت الذى وحشتنى ...

ـ وحشتنى ايام المذاكرة قبيل الصيف ...

ـ وايام قراءة الشعر ...

ـ وايام هواية الرسم ...

ـ كلها مضت .. نحن نعيش فى الحاضر الملتهب ...

ونظر الى مجموعة من الجرائد أمامى . أمسك واحدة وأخذ يتصفحها ، ثم تركها كما كانت . عبس وجهه اللطيف بغضب رقيق لا يخلو من هم دفين فى أعماقه . سقطت حزمة من ضوء الصباح على جبينه ، فغير مكانه . أصبح فى مواجهتى . عيناه فى عينى . دق قلبى فى صدرى من الفرح .. لا اصدق . عصام صديق الطفولة الذى غاب عنى قهرا يزورنى الآن بهذه السهولة . صمت مكتئبا . نمت تقاطيعه عن فورة داخلية يريد أن يفضى بها الى . لم يعد يستطيع أن يتحمل . اردت أن أعاود معه حديث الذكريات ، فأشاح بيده رافضا . عاود النظر فى جريدة أخرى ، ثم أسقطها من يده . تمايلت أغصان شجرة عالية من نافذتنا . هبت علينا نسمة هواء لطيفة ، فقلت :

ـ من زمان وانت من هواة الربيع يا عصام ؟ ! ..

ـ لم أعد اشعر بأيامه ...

ـ وقصة حبك القديمة .. انسيتها ؟ ! ..

ـ ليس فى أنفى غير رائحة البارود الآن ! ..

وانحدرت دمعة ساخنة على خدى . منذ عامين خرجت القرية كلها لتوديع عصام . النساء كن على أسطح البيوت ينتحبن ، والرجال صامتون عاجزون . تخوض أرجلنا فى التراب المختلط بروث البهائم . عاد عصام الى منبعه . كان الحر قائظا

فى ذلك اليوم من أيـام يوليو الطويلة . الهاموش يسـبح فوق رءوسنا ، والسواقى ترسـل أنينها العتيق . ضاقت مسيرتنا على حافة الترعة حتى كادت الجنازة تتوقف . هتف شيخ فى الخلق الكثير :

ــ أفسحوا الطريق يا رجـال ...

وفى اللحظة الأخيرة جمد كل شيء . ساد صمت القبور ، ثم انشقت الصدور بالبكاء . فاستراحت النفوس . وعدت منكسر الجناح . أتذكر لعبة الطـائرات الورقية التى كنا نلعبها ونحن صغار . كان عصـام مغرما بهـا ، يصنعها بيديه ، يطـيرها بالساعات ، يحلق معها فى السماء ، ولمـا كبر حقق حلم طفولته . ركب طائرة حقيقية . أصبحت اللعبة هما من همومه الأدبية . ولعب لعبة الموت بقلب الطفولة . تلقى الأمر بالهجوم . ارتجف زملاؤه خشية عليه . ابتسم فى وجوههم . عاودته شقاوة الطفولة النقية . شرب جرعة ماء ، ثم طـار . وعلى أحد المواقع سقط بطائرته . الآن يعود الى مقطب الجبين . ضاعت من ملامحه زهوة الطفولة العذبة . ارى اصابة على جبهتـه العالية . اكتسبت تقاطيعه خشونة .

فاجأنى بالسؤال :

ــ ماذا فعلتم ؟ !

ــ فى اى شيء ؟

قال وهو يركز نظره فى عينى :

ــ تراوغنى !

قلت :

ـ أبدا والله ...

قـال :

ـ كن صريحا ...

قـلت :

ـ اولادك بخير ..

قـال :

ـ انا لا اسال عن اولادى ...

ـ اذن عمن تسأل ؟ ! ..

ـ يعنى .. لا فائدة من الكلام ! ..

ـ ما الذى يحزنك ؟ ! ..

ـ اشياء كثيرة انت تعرفها جيدا ...

وخرجنـا نتجول فى الشوارع معا . كانت المدينة تحتفل بعيد الربيع . الحدائق مكتظة بروادها . وعلى شـاطىء النيل كان الناس يتجمعون . انه سباق النيل الدولى . خمسون سباحا عالميا يتبارون فى السباحة . مكبرات الصوت تعلن بدء السباق . الأعـلام ترفرف على المراكب الصغيرة . ارض الجزيرة اخـذت زينتها . أطفال وشيوخ ونساء كثيرون يهتفون لتماسيح النيـل الأبطال . زالت تقطيبة عصـام . حلت محلها أطياف سـعادة فرحة . حلقت بعض الطائرات الهليوكبتر تلتقط صور المتسابقين. رمقها عصام بحنين قديم . فاز خمسـة من سباحينـا بالمراكز

الأولى فى السباق . اخذت النشـوة الجماهير . راحت تصفق وتزغرد وتضرب الأرض بأقدامها الثقيلة . تحلق المصورون ورجال الصحافة والتليفزيون حولهم ، كل واحد يتمنى ان يفوز بلقطـة او كلمة او ابتسامة او لمسة من أطراف اصابع احد الأبطـال .

وعزفت موسيقى الانتصـار الكبير تتجاوب فى السـماء مع السحب العالية ، ثم حملت الجماهير الفائزين على الأكتـاف . وبدأت المسيرة فى شـوارع المدينـة . وقبل أن نودع الضجـة اللذيذة همست لعصام :

ــ مالك ؟

وأومأ خجلا :

ــ لا شيء ! ..

قـلت :

ــ هل يعاودك العبوس ؟ ! ..

ــ لا .. ابدا ....

وهرب بنظراته بعيدا الى الشـاطىء الآخر للنيـل ، ثم اضـاف :

ــ ازعجتـك ؟ ! ..

رمقته بحنان :

ــ بل يؤرقنى حزنك ...

قـال :

— لى مشاكلى ...

— وهى مشاكلى ايضا ...

— لا ... انتم تعيشون فى واد ... ونحن فى واد آخر ...

كلماته تنفذ الى قلبى . تؤلمنى .. تعيدنى الى همى وكآبتى. لن أهرب من صدقه . أعرف رقته منذ الطفولة . كان له خروف ، ذبحه أبوه فى العيد الكبير ، فظل حزينا عليه أياما ؛ لا يضع طعاما فى فمه . ولما كبر كان يكره لون الدماء ، يهرب حين يشم رائحتها ، لكنه كان يهوى لعبة الطائرات الورقية . تدرب عليها وهو صغير ، ثم اجتذبته وهو كبير ، فكانت طريقه الى النهاية . الآن يزورنى للاطمئنان . سلواه أن يعرف طريقنا . اتلعثم أمامه ، تضيع الكلمات من لسانى . أحاول أن أرسم له بعض معالم الصورة . مل هو رسم الصورة . ثار عليها . فحلق بطائرته يريد أن يحطم ركودها الأبدى . انطفأ فى قلبه نبض الدماء ، فازداد لهيب الأرض المشتاقة للحرية .

علت وجهه سحابة كدر خفيفة كادت تطفى على ملامحه الشفافة . خطفت ابتسامة ضائعة من بين شفتيه . حلق بعينيه مرة أخرى الى شاطىء النيل من الناحية الأخرى . كان هناك سرب لطيف من الطائرات الورقية يعلو صفحة المياه الزرقاء على ارتفاع شاهق . لمح أذرع الأطفال تمسك بخيوطها فرحة سعيدة . زال كدر عصام . رأيت ابتسامته تفرش وجهه من جديد . لوح بكلتا يديه القويتين الى الأطفال على الضفة الأخرى :

— هيا يا أطفال ... حلقوا الى عنان السماء ! ..

وفى لحظة غاب طيفه عنى . كانت أصداء سباق النيل ما زالت فى نفسى ، وبقايا حزم الناس تتفرق فى اتجاهات مختلفة.

لم أخفض بصرى عن تلويحة يديه بعد أن غاصت فى لهب الشمس الحارقـة ! ..

***

وفجأة فى أكتوبر عاد الى عصام من جديد ، متهلل الوجه . كانت أنباء الحرب الجديدة على الأفواه . البيانات العسكرية تنعش الروح ، عبرنا قناة السويس ، طحمنا خط بارليف ؛ ورأيت وجهه الناصع البياض ، فرحت به من أعماقى . كان فى مقصورة طائرته ...

همس فى أذنى فرحا :

ــ صباح الخير ...

قـلت :

ــ أسعد الله صباحك ! ..

قـال :

ــ بلغ اعجابى وتحياتى للجميـع . لقد رفعت راسى من جديد اننى الآن فى الطريق الى سيناء ...

قـلت :

بل كلنا ... رفعنا رءوسنا من جديد ! .. وحلق بطـائرته الحقيقية فى هـذه المرة . ما زلت أسمع أزيز طائرته فى أذنى . أرى ابتسامته الشفافة تضىء طريقى ...

بوذا الجديد ...

على ابواب كل ربيع ينبض قلبه بالحب القديم . تتفتح عيناه على الزهور . يقفز فرحا . يعود طفلا مدللا على الطبيعة . يجرى الى الحديقة اليابانية تحت تمثال بوذا يجتر الذكريات . يطلب زجاجة من البيرة الطازجة ، يشعل سيجارة ، ثم يترك لخواطره العنان . يتأمل السحب البنفسجية .

فى ذلك الصباح كان يريد أن يحتفل بعيد ميلاد حبه القديم . لم تزل صورتها أمامه فى هذا المكان .. بفستانها ذى اللون الأخضر المشجر ، تسأله شفتاها :

ـ متى يا حسن ؟ ..

يطير فرحا :

ـ حالا يا حبيبتى ...

الى الآن لم يزل يمسك ضحكاتها بيديه فى هذا الأثير . يستحيل ان تضيع الأيام الحلوة من عمر الانسان هكذا . يتطلع

الى وذا الطيب . يناجيه .. كم احتضنتنى ايها الرجل الطيب فى وقت الأحـزان والشـجن ! . قـام اليه وقبـله . مسـح جبينه العريض بكفـه المرتعشـة . بادله الابتسـامة الشفافـة الوادعة . أطل عليه وجه الحبيبة يداعب روحه المشتاقة :

ـ لم اعد أستطيع أن اتحمل يا حسن ...

ـ ......

ـ لابد أن تفعل شيئا ..

ـ ماذا افعل ؟ ! ..

ـ تجد عمـلا ...

ـ سوف أحاول ...

وفرت الحبيبة منه كما يفر المـاء من بين الأصابع . لم يبق له سوى الذكرى . كانت حورية هى الأولى والأخيرة . مضى على هذا الحب عشر سنوات .. لكنه وقف عند آخر لقاء معها . كانت الدنيـا تمطر ، وهما منكمشان هنا تحت تمثـال بوذا . اخذ كفيها بين يديه يدفئهما . تلاقت عيونهما شـوقا . كانا يحلمان معا . ينظران الى صفورين يتعانقان أمامهما . يطيران مستقسقين حول رأسيهما . غدا سـوف تتعـدل الأحـوال .. يتخرج فى الجامعة يجد عملا . افترقا على أمل لقاء جديد . ظل ينتظرهـا ساعات ، يجول فى الحديقة ، يقطف زهورها ، يئس ، فعـاد الى بيته خائب المسعى . التقى بها مصـادفة تحت ساعة الجامعة .. خفق قلبه فى صدره يريد أن يتحدث معها ، فأشاحت بوجههـا مسرعة . تتبع أنباءها بعد ذلك . رسا مطافها فتزوجت ضـابطا فى البحرية ، متناسق القوام ، سباحا ماهرا . لم يعقه زواجهـا عن اجترار حلمه القديم . بحث عن بيتها ، وراح يطوف حوله فى

الليل ، يمسح دموعه السيالة . يجلس قبالته بالساعات ، يتطلع الى النوافذ ، يلمح طيفها .. أصابعها وهى تنشر الغسيل ، جانبا من وجهها الأبيض السمح ، يعود مطمئنا ، مازال فى العمر بقية ليراهـا .

الحديقة اليابانيــة تغص بروادها من كل لون . أطفـال ونساء وعجائز . الموسيقى تنساب الى أذنيه . العشاق يتناثرون فى أرجائها . أطفأ سيجارته . انتفض من مقعده قلقا ...

الى متى يظل يعيش على الأحلام ؟ .. أشار اليه بوذا من بعيد جرى اليه وادعا . فأل طيب أن ينادى عليه . اقترب منه فى خشية . ظل يحدق فى وجهه الطيب . افتر ثغره عن ابتسامة رائقة . ضحك بوذا من اعماقه لأول مرة . تكسرت أوراق الشجر المحيطة به . اهتزت الأغصان ، فطارت العصافير فزعة . كانت ضحكته محملة بالأسى والمرارة المزمنة . قال لحسن فجأة :

ـ ما الذى يحزنك يا حسن ؟ ! ..

قال حسن :

ـ مقهور حتى الثمالة يا بوذا ...

عاد بوذا الى ابتسامته التقليدية :

ـ أكثر منى ؟ ! ..

ـ اذن لا داعى للشكوى ...

وقت الضحى ، وشمس حلوان اللطيفة تلقى بأشعتها على الخضرة الممتدة . وثمة كلبان صغيران يداعبان بعضهما . يحكان

راسيهما مبتهجين ، ينبشان الأرض بحثا عن طعام . ورجل عجوز غفت عيناه على جريدته . وقف عند صفحة الوفيات . وعلى صفحة المياه تسبح عشرات الأسماك الصغيرة . لا يكف الرواد عن اخذ الصور التذكارية بجوار بوذا وهو صامت . انهم يكررون نفس الصور القديمة . ما زالت صوره مع حبيبته ترقد فى درج مكتبه . يخرجها كلما عزت عليه الذكرى . يمسح عنها غبار السنين . كان له اكثر من مشروع زواج ، ولكنه فشل لأن همه أن يتزوج شبيهة لحبيبته القديمة ، وفى مرة وجد هذه الشبيهه ، ولكنه عندما سمعها تتكلم ، كانت تسرع فى الحديث ، لا شيء يميز صوتها . صوت حورية كان يسحره . فيه الطيبة والوداعة والألفة . بمجرد أن يسمع كلماتها تشمله راحة غريبة . ينسى متاعبه وهمومه بجوارها . يخفق قلبه طربا فى صدره . يزيد حبه للمخلوقات جميعا .. الرجال والنساء والأطفال .. الجبال والأنهار والسحب . شهد بوذا قصة حبه كلها .. من أولها الى آخرها . لم تفارق شفتيه ابتسامة التفاؤل المستسلمة . الآن يرى بوذا مهشم الأنف ، مجدور الخدين ، مضروبا فى رأسه عند الجمجمة . لم تنفع محاولات احاطته بالأسلاك الشائكة . العيال الأشقياء ينفذون من السلك الشائك ليركبوا فوقه ، ليلطخوا وجهه بالطين . مضت أيام الحب النابض، لم يبق سوى اليأس القاتل .. فالى من تلجأ يا حسن ؟ ! .. بوذا مقهور هو الآخر . لا حبيبة تنعش الروح ، ولا زوجة تنجب ولدا يفرح القلب . أصبحت حياتك قبض الريح . سهرات الأصدقاء مملة ... العمل عمل .. الكتب مملة .. حتى الموسيقى التى بدات حياتك هيمان بها ، لم تعد تطيق سماعها . اختنقت الدنيا فى حوصلة الربيع القاتمة .. ماذا ينفع الربيع بزهوره ؟ ! ..

واستيقظ العجوز من غفوته . قلب الجريدة من صفحة الوفيات الى الصفحة الأولى .. لا شىء يهم . كل المسائل تستوى .. الكل يسبح فى بحيرة ضحلة .. عطن أوراق البردى يزكم أنفه .

أحقا هذا نبات البردى صانع مجد الفراعنة ؟ ! .. طلب زجاجة من البيرة . افرغها فى جوفه دفعة واحدة .. الآن تشتد حرارة الشمس .. الحديقة تفور بروادها الكثيرين . مجموعة من الطلبة أتوا فى رحلة ، تحلقوا يرقصون ، ويضربون على طبلتهم . وقرداتى متجول يقحم العابه على الناس . نوم العازب ازاى ؟ ! يتقلب القرد على الأرض عدة مرات . يضحك المتفرجون . يغرق حسن فى وجه حوريته المفقودة . يتأمل جلسة بوذا المسالمة . تمتلىء نفسه بالسأم . مجموعة من الصبية الاشقياء يقذفون بعضهم بالحجارة .. تفادى حسن حجرا كاد يطيح بعينه . جاء الحجر فى عين بوذا المسكين . سال الدم غزيرا من حدقتها . وفجأة اختفت الابتسامة التقليدية من وجهه . طار النور من عينيه . مد ذراعه الحجرية الثقيلة والتقط الحجر ، وقذفه بقوة الى عينى الصبى المجنون ، قال فى سره : العين بالعين .. والبادى اظلم .. انتفض حسن مذعورا . لا يعرف الى اين يتجه .. الى الصبى أم الى بوذا ؟ ! .. التأم الناس حول الحادث . لم يصدقوا عيونهم فى البداية . كيف يفقأ بوذا المسالم عين الصبى الساذج ؟ ! .. شحذوا عزيمتهم لتأديبه . سرت نغمة الانتقام على الشفاه . خرجت كلمات بوذا من أعماقه .. اياكم أن تقتربوا .. لم اعد أستطيع أن اتحمل . كفانى جبنا وسكينة .. الوف الضربات تحملتها فوق رأسى .. لن اسكت بعد اليوم .. لست مسخا ولا أسطورة .. انا انسان

من لحم ودم .. يوجعنى الألم .. وتهزنى الأفراح . صـمت الناس مذهولين . جاءت عربة الاسعاف فحملت الصبى وتركت بوذا فى مكانه . رش حسن ماء الكولونيا على وجهه . ضمد له عينه . ذابت ذكرى الحب القديم .

أصبح لون الزهور بلون الدماء . من ينقذه من همه وكآبته؟! كان بوذا ملجأه الأخير . ترك الناس الحديقـة يتناقلون رواية الحادث فى الشوارع والدروب . كادت الشمس تغرب ، فازدادت جهامة نفسه . رمقه بنظرة قبل حلول الظلام ، قام يجر ساقيه عائدا الى بيته . اقترب من بوذا يهمس فى اذنه :

ـ الوداع يا ابانا الطيب ! ..

جاهد بوذا لتعود ابتسامته الرائقة الى وجهه ، ثم قال :

ـ بل الى اللقاء يا حسن ! ..

عابرو .. سبيل ...

فى حديقــة الزهور كنت أخفى سره .. قبــالتى جلست زوجتى . كان وجهها يشرق بالنور . منذ مدة لم تزرنى فى هــذا المستشفى . بالأمس قلقت على . كنت قد دخلت قاعة الكليــة الصناعية لأول مرة . وهناك كان معنا . قالت زوجتى :

ـ ما أبدع الزهور ! ...

نظرت الى تقاطيعهــا اللطيفــة . كانت كياسمينــة تفوح رائحتها العطرة من حولها . اقتربت أوشوشها فى أذنها :

ـ بل انت أحلى من الوردة ...

ضحكت برقة ثم أضافت : الدنيا حر ...

قلت : نقوم ...

قالت : الى اين ؟ ! ..

قلت : الى أى مكان تريدين ...

ما زال سره فى داخلى . أحاول الابتسام رغم ذهولى لما حدث .. انه حزن من نوع خاص . حزن يصيب التفكير ، لا نستطيع معه البكاء أو التشنج . حزن من النوع الذى يغير رؤيا الانسان الى الحياة . لماذا جئنا .. والى اين نسير .. وما هى الغاية ؟ ! ولكنه حزن قاتل ومعذب ومرير . آه لو أستطيع أن أنفجر فى البكاء لاسترحت . فالدموع تخفف من بلوانا دائما . تزيح الكدر من القلب .. ولكنى لم أقل لها . عندما دخلت الى قاعة الكلية الصناعية ، وفى يدى قطعة الشيكولاتة ابحث عنه لأعطيها له ، لم أجده .. سألت باطمئنان :

ــ ابن خليل ؟ ..

قال لى الرفيق الثالث : أنت معرفتش ؟ ! ..

سألت بلهفة : ماذا حدث ؟ ! ..

قال فى صوت هامس وجهاز الكلية الصناعية يسحب دمه قطرة .. قطرة للتنقية :

ــ البقية فى حياتك ...

ــ متى ؟ ! ..

ــ وهو تحت الجهاز .. ازمة قلبية ...

اذن ، انتهى خليل . وتجسدت صورته فى عينى . لم تكن معرفتنا عميقة . علاقة عابرة كعشرات العلاقات التى يكونها الانسان بالمصادفة ، أو نتيجة تلازم المكان ، أو فى محنة مرض مشتركة . دخلت عليه ويده ممددة على السرير ، مفروز فيها الابرتان الطويلتان ، ابرة لسحب الدم . ثم أخرى لضخه مرة ثانية . قال لى أحد الأصدقاء الأطباء :

ـ ادخل .. اسأله كما تريد ...

جلست على حافة السرير بجواره بعد أن عقمت ملابسى ..

قلت مجاملا : هه .. ازاى الحال ؟ ! ..

ارتفع صدره ، ثم انخفض :

ـ عـال ...

ـحاسس بايه ؟ ..

ـ لا شيء .. كله تمام ...

حسبته احد الجنود فى البداية . فالمستشفى عسكرى ...

كان وجهه مكفهرا من أثر المرض . شفتاه يابستان باهتتان. نحيل العود .. لكنه لفت نظرى فى مودة :

ـ لا .. دا انا رائد فى الجيش ...

وفتح فى قلبى أول طاقة للألم والمعرفة معا . تركته يحكى :

فى حرب ١٩٦٧ ، ظللت اربعة أيام لم اشرب جرعـة ماء واحدة .. كان مساعدى العريف أقوى منى فى معنوياته .. كان يسندنى على كتفه فى عز الحر ، بل حملنى على ظهره عندما انهار جسدى . اللهب كان يشوى أجسـادنا ، وطائرات الأعداء تحلق فوق رءوسنا ، ترمينا بالقنابل والصـواريخ .. لم اكن أستطيع ان اقول آه .. ضاعت انفاسى الى الأبد .. وفجـأة افقت على من يقدمون لنا المـاء .

ظللت اشرب عشر دقائق ، انتفخت معدتى الى النهاية .. من يومها ، وقد تحجرت كليتاى .. و .. و .. !

وقمت من جواره .. اشتريت له قطعة من الشيكولاتة ، اعطيتها له .

***

قالت زوجتي : لنقم ...

قلت : الى أين ؟ ..

قالت وقد أرجعت احدى خصلات شعرها الى الوراء ، فظهرت أذنها الصغيرة الحلوة :

ــ الى الكافيتريا ...

ــ كما تريدين ...

وقطف كل واحد منا زهرة ، ثم قمنا . وصلنا الكافيتريا. المكان هادىء وجميل . وأنا فرحان لوجودها معى ، متألم لما حدث فى الصباح . شربنا عصير برتقال . وكنا « ندردش » فى أمورنا العائلية ، هل نستطيع أن نشترى بيانو لابنتنا هذا العام ؟ . أين نقضى اجازتنا هذا الصيف ؟ .. رأس البر جميلة وهادئة ، لكنها بعيدة . اسكندرية لا بأس بها لولا المواصلات .. و .. وغيمت سحابة عابرة فوق وجهها . قلت لها : فيم تفكرين ؟ ..

قالت : لا شيء ...

وفجأة دخلت الكافيتريا امرأتان تنتحبان . واحدة منهما تلطم خدها وتبكي بمرارة ، والأخرى تشاركها النحيب . جاءنى احساس داخلى بأنها أم خليل . ومع هذا تماسكت . فما ذنب زوجتى التى تريد أن تطمئن على . وانقلبت الكافيتريا الى

نواح . كان يجلس بجوارنا أحد الضباط العظام مع زوجته ، فأجهش الاثنان بالبكاء . واخرجت زوجتى زجاجة عطرها ومنديلها ، ثم أسرعت الى المرأة المنتحبة تلطف عنها . وانا صامت لم أعد قادرا على البكاء . فقد فاضت أحزانى من قلبى الى تفكيرى . هذا العبث ما نهايته ؟ .. لا جدوى من البكاء . كفانا قهرا وعذابا . مزيد من الدموع .. مزيد من الضعف والانهيار . وبعد فترة جاءت امرأة ثالثة شابة ، وبمجرد ان رأتنى أشارت الى وهى تنتحب :

ـ أهه .. كان معاه .. كان معاه والله ...

***

وانحصرت فى زاوية مظلمة . نعم كنت معه ، انا بعينى . ولكن ما ذنبى .. ما ذنب زوجتى .. ما ذنب الضابط العظيم وزوجته ؟

كان خليل فى الصباح معنا فى قاعة الكلى الصناعية . ثلاثة مرضى ، والطبيب المعالج جلس على حافة المكتب ، واضعا ساقا على ساق . كان يرسم لنا خطة العلاج ، ومشروعاته فى زرع الكلية . أول شيء الغذاء بدون ملح ، والماء بحساب ، حتى لا يترهل الجسم ، ويصبح مخزنا للمياه . وهذه المياه تؤثر على القلب والكلى وكافة أعضاء الجسم .. فاهمين ؟ .. قالها الدكتور « ز » وهو يبتسم .. يشع من عينيه ذكاء ريفى قديم هو الذى جعله طبيبا مرموقا ومحبوبا فى نفس الوقت ...

وقال خليل : ولكن الطعام لا طعم له بدون ملح يا دكتور ؟..

رد الدكتور : تستطيعون أن تستعيضوا عن الملح بالتوابل . . الفلفل . . الكمون . . البهارات . .

هتف خليل متحفزا :

ـ يعنى الشطة ممكن ؟

ضحك الدكتور وهو يقول :

ـ ممكن شوية صغيرة . . .

قال خليل :

ـ طيب . . والفشار ؟

رد الدكتور « ز » :

ـ يعنى . . بس مش كتير . . .

وتركنا الطبيب بعد ان اطمأن علينا . وفى عودته عندما نسى علبة سجائره ، سمع خليلا يهتف فرحا :

ـ طظ فى الملح ما دام الواحد يقدر ياكل شطة . . .

وخرجنا انا وزوجتى من الكافيتريا بسرعة . لقد سالت دموعى فى هذا المستشفى كثيرا دون جدوى . عقلى الآن هو الذى يفكر ووجدانى يتأمل . بالأمس كان خليل يشكو لى . . لقد تزوج منذ خمس سنوات . ولم ينجب . يرجونى أن أدعو له بطفل يملأ عليه حياته . سألنى عن الأولاد . . هل هم نقمة أم نعمة ؟ ! لم أستطع أن أجيبه . . لانى حائر أنا الآخر . شكرنى على قطعة الشيكولاتة . فوعدته بقطعة أخرى فى المرة القادمة . . ذهبت اليه بها . . لم أجده . لمحت جثة ممددة على سرير داخلى ، مغطاة بملاءة بيضاء ، لا شىء يبين منها . كنت اريد أن اذهب

اليه لألقى عليه النظرة الأخيرة ، ولكن زوجتى تنتظرنى على الباب ، لا تعرف شيئا ...

***

وعدنا الى حديقة الزهور ، لكننا فى هذه المرة كنا صامتين، تحوطنا الكآبة .. قالت زوجتى :

ـ فاكر الصبح كنا بنقول ايه ؟

ـ فاكر ...

ـ ما أبدع هذه الزهور ! ...

قلت :

ـ ولكن ها هو باب الموتى من هنا ! ..

هتفت زوجتى :

ـ لنقم ...

بادلتها اللهفة :

ـ لنقم .. لنقم ...

***

وعبر السور الخارجى للمستشفى كانت العربات تمرق مسرعة .. ومياه النيل الخالد تترامى امامنا كالفضة . وبعض الفتيات والشبان يحتفلون بقدوم الربيع . يرفعون أيديهم فى الهواء فرحين مهللين . والسحابات البيضاء تحلق فى السماء ، وثمة أشرعة بيضاء تخوض النيل . يلوح الهواء أقمشتها . فتندفع فى طريقها سابحة وديعة .. منذ آلاف السنين والمراكب الشراعية تعبر النيل .. فهل نحن عابرو سبيل ؟ ! ..

البهــــلوان ...

فى تلك الليلة كان المرح يشيع فى بيت المعلم مسعود بعد صمت ممل سخيف . ففدا سـوف تذهب العائلة الى القناطر الخيرية بكامل هيئتها . جهزوا كل شيء ، الفطير المشلتت المعتبر، رفضوا الفسيخ ، فقد مضى عهد الفسيخ . انهم الآن من ابنـاء الذوات . العربـة فى الجراج تنتظرهم . خلعوا الأثواب الملس والبرنج ولبسوا الدبيير . انتقلوا من السيدة الى الزمالك مباشرة. المعلم مسعود بدأ عاملا فى فرن الأمانة ، فأصبح اليوم صـاحب اكبر شركة متحدة لمخابز العاصمة . دنيا تعطى من تشاء وتذل من تشاء .. المهم .. لم يحتفظوا بذكرى من أيام زمان سـوى عبده .. قدمه سعد عليهم فى كل الأحوال . لم يتمرد مرة واحدة فى حياته .. منذ أن كان مسعود عاملا صفيرا وهو معهم ، يعمل مرمطونا فى البيت ، ثم ترقى أيام العز الى درجـة بهلوان . لبس البنطلون والقميص واقتصرت مهمتـه على نزهـة العيـال ، أو الاشراف على مصروف البيت . وفى أوقات الفراغ وليـالى

السمر بالذات تجلس العائلة فى الصـالة الكبيرة وعبده بينها ، يقلد اصـوات الحيوانات والطيور والنـاس . يقيم لهم مسرحا صغيرا ، يقوم فيه بمهمة الممثل والمخرج والمؤلف معا . الكلمـات فى فمه سكر ، والابتسامة على شفتيه كالعسل . استغنت العائلة بهـذا المسرح المحندق اللطيف عن اى تسلية اخرى . وعبده يبتكر فى كل ليلة هزليات جديدة يستحيل أن ترقى الى فكرهم أبدا . يزغزغ الصغار قبل أن يناموا بتمثيليات على قدر عقولهم ، حتى اذا ما دخل الليل يسترسل فى الغويط ، يمثل دورين أو ثلاثة فى آن واحد ، واذا تعب من التمثيل ، فانه يقف متـأملا ليقول نكتـة من واقع الحـال على السليقـة . وتكركر العـائلة من الضحك على الشلت التى تجلس عليها . ترتشف الشاى والقرفة ، ولا بأس من لقمة سد الحنك أو الفاكهة .

فى تلك الليلة كان عبده فى منتهى التجلى . بدأ بالضحك العالى بدون سبب ، ظل يضحـك ويضحـك الى أن ضحكت العائلة ، هو يريد أن يسلس الضحك معه دائما . لم يفعل شيئا يستحق الضحك ، غير وقوفه وسط الصـالة صامتا ، ثم انفجر فى الضحك فجـأة .. وتنوعت نغمات الضحك معه خفيفة وثقيلة . عالية ومنخفضـة .. ملعب كبير ، من صنعه .. ثم فجـأة سقط على الأرض مغشيا عليه وهو يضحك .. لمـاذا ؟ لا أحد يدرى . ثم سكت . انعدمت حركته تماما ، وغمز بعينيه ، ثم حرك أذنيه ، فلم يتمالك الصغار أنفسهم ، فانفجروا ضاحكين صائحين .. عبده .. عبده .. عاوزين القرد .. عاوزين القرد .. وقبل القرداتى ، فرد كفه للحـاضرين يلم النقود . والى الآن لم يتحرك المعلم مسعود .. فاللعبة لم تلتهب بعد . بدأ يلعب .. لم يكن

فى ذهنه شىء محدد .. طلبوا منه أن يلعب لعبة العريس والعروسة .. فغطى وجهه بقميصه . وقال :

ـ انا مكسوفة .. لا .. لأ .. يا عبده .. وقفز فى الهواء بخفة ، ثم وقف نصف وقفة ، دافعا بأصابعه تجاه الست الكبيرة .. سو .. سو .. سولالانا .. سو .. سو ، الى أن تشبعت الصالة بضحكات الأطفال .. عبقت فى الجو ، فملأته رقة وفرحا وسرورا . واختفى عبده ليعود بعد قليل وعلى جسده ملابس مهلهلة .. معفرة بالدقيق والعجين .. محنى الظهر ، منهك القوى .. وعلى الفور بدا أنه يقلد المعلم مسعود فى بدء حياته العملية أيام الفقر ، يستعيدها عبده بخفة دمه وظرفه اللطيف ، فيهلك المعلم مسعود من الضحك فيقوم فيضربه على قفاه وصدغه . وعبده مسرور غاية السرور لا يرتاح خاطره الا اذا فرت دموع السرور من عينى الحاج وهو يقول : الله يجازيك يا عبده .. فكرتنا بأيام زمان يا عكروت ! ..

هذه الليلة المعلم الكبير وسط عائلته الكريمة ، يستعدون للذهاب الى القناطر الخيرية غدا . والليلة يقضونها فى غاية الأنس .. عبده كالطيف اللطيف وسطهم . حركاته وسكناته تفتح قلوبهم عن آخرها للضحك . يرمقونه ليستعيدوا تاريخ المعلم القديم ! ..

جلس عبده وراء منضدة كالحة يهتف بصوت مبحوح متعب:

ـ يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم .. دنيا ! ..

وانفجرت العائلة فى الضحك من جديد .. نظروا الى المعلم ، فلاحظوا العبوس يغطى وجهه . كان يتململ فى مكانه . أشعل سيجارة نفث دخانها بضيق ، لكنه ضحك . لم يستطع أن يدارى

مرارته ، فخرجت الضحكة باهتــة صفراء ، اشبه بصرخة بكاء . وقام عبده يحمل على كتفه لوح الخبز وسط الصــالة ، يئن تحت ثقله :

ـ دنيا غرورة .. ملهاش أمان .. تعطى من تشاء وتذل من تشاء ! يارب عدلها .

وكركرت بطن الســت الكبيرة من الضحك .. فهى تعرف المعلم أيام الفقر .. يستجلب العطف والرثاء من اى مخلوق .. فى البيت يستأسد عليها ، طالمــا كان يرجوها ان تنظف له بدلته الكالحة . لقد سار فى شوط الترقيات درجة درجة .. اصطفاه صــاحب المخبز ليكون كاتبــا عنــده .. فهو يعرف القــراءة والكتابــة .. ومن يومها وقد خلع الجلابيــة ولبس البنطلون والجاكتة .. وبدأ يخنصر فى الحساب . عرف طريق الولس . قفز الى أعلى الى أن أصبح المتحكم فى المخبز ، ينهى ويأمر كيف يشاء ، ليس فى الحساب فحسب ، وانما فى العملاء كذلك . وقطب عبده حاجبيه ، ثم زعق فجأة :

ـ انت يا كلب .. فين بقية الفلوس .. خد .. هنا ! ..

وارتعش المعلم مسعود . هــذا الولد لا يريد ان تمر الليلة بسلام . انه يجدف فى المــاضى . يجر قدمى معه الى الهــاوية . كيف تجرأ الى هــذا الحد ؟ ! ..

وكان الضحك لا يزال يأخذ على العائلة لبها . تشبع البيت كله بالضحكات ، والدموع الســارة المفرحة .. انتشرت فزقزة اللب واكل الحمص والفول السودانى . وانفرط عقد الســت الكبيرة ، فلم تستطع أن تتحكم فى نفسها . كانت تريد أن تقوم

وترقص وتستعيد أيام زمان .. أضاع المعلم مسعود شبابها من شقاء الفرن وعذابه . حملها الهموم الكبيرة وهى صغيرة ... تحملت منه الاساءة وسوء التقدير والفرق فى المضاربات والمساومات والسمسرة الى النهاية .

انها تريد لحظة سعادة تنسى فيها ما فات .. تمسح عن جبينها اسى الأيام وشظف العيش .. الزمالك وحدها لا تكفى.. ما زالت مغلولة الروح والقلب والضمير .. كل هذا الأثاث لا يساوى عندها شيئا . عبده هو الوحيد..المخلوق الظريف الذى يخفف من بلواها .. العب يا عبده كيف تشاء..مثل كما تريد.. هرج .. اقفز .. ارقص .. تلعبط بجسدك على الأرض .. ازعق بأعلى صوتك .. اهمس .. افعل ما تريد ما دمت تقلد لنا المعلم مسعود فى شبابه . ورمقته بنظرة اعجاب .. جسده كاللولب المطاط .. عيناه حلوتان تشعان ذكاء وطيبة ومودة .. عشرة ايام ، بل سنوات من العمر ، لم نر منك يا عبده سوى الاخلاص والوفاء والتضحية حتى نرتاح .. يستحيل أن يكافئك المعلم..فقد سرت معه رحلة العمر فى السراء والضراء لم تتذمر.. ارتضيت دائما ان تكون فى الحضيض ، وان يرتفع المعلم الى القمة ، لا تطمع فى شىء سوى ان تأكل لقمتك الصغيرة وتتنفس هواء نقيا .. ثم تضحك ، فيضحك الآخرون . وهذه متعتك التى خرجت بها من الدنيا . ويكفيك ان تخرج فى نهاية العمر بقلب سليم . وماذا اخذ المعلم مسعود غير الكدر والأوجاع وضيق البال وحفنة من الأمراض تعذبه ليل نهار ، ولا تهتم يا عبده بالمظاهر .. فانت اعلم بها .. كلها هباء .. فما فى القلب فى القلب ! ..

ومسح عبده جبينه المعفر بالدقيق . عاد الى ايام الفرن الأولى . وقف امامه والحر يلفح جسده . لهث من جو المكان الخانق . أمسك بعصا طويلة ليسحب بها العيش من الفرن . كان يجاهد بذراعيه النحيلتين الضعيفتين . وفجأة تطلع الى العائلة لا يدرى ما هذا الهم الذى حط عليها . سكتوا جميعا فى لحظة واحدة ، ولكن عبده حرك ذراعيه بالعصا رائحا غاديا ، ولعب حاجبيه ، فعادت العائلة الى سرورها . كركرت الضحكات من أفواهها مرة أخرى .. لكن المعلم مسعود ظل مشدوها يبحلق فى عبده بغيظ . متى ينتهى هذا الوغد من العابه ؟ ! .. ليحكم نفسه قليلا ، فهو لا يريد أن يدخل الكدر الى قلب العائلة . كانت أيام بؤس وعذاب وشقاء .. تحمل فيها الذل والعبودية والاضطهاد .. لكنه بقدر ما تحمل حمل الآخرين ، وعبده يقلب عليه الأوجاع ، ينغز قلبه بابرة حادة محماة بالنار والأحزان القديمة . فلتكف عن العابك الخطرة يا ولد .. لا أريد أن ألقى اليك الأمر ، فأنت لبيب تفهم بالاشارة . وغمره بنظرة شاملة عله يعى ، ولكن الزمام كان قد أفلت من عبده الى النهاية .. انسجم فى دوره تماما . جعل يمسح عرقه ويلهث ، يسحب الخبز بالعصا ، يدندن بالمواويل الشعبية . عوج الطاقية الى الشمال والى اليمين والى الأمام والى الوراء متعاجبا متخايلا . هذه طاقية أيام الشقاء والبؤس . كانت ترقد فى صندوق زجاجى على الحائط فى حجرة الجلوس يراها الجميع . وكان يفخر بها دائما . وحين تنشب بينه وبين أى انسان خناقة ، فانه يشير اليها بفخر واعتزاز قائلا :

ـ الطاقية اهه .. أرجع لها تانى .. أنا مش خسران حاجة ! ..

ولكن الطاقيـة اختفت حين نقلوا الى الزمـالك .. أين راحت ؟ ! سأل عنها فلم يجدها . غضب وهاج ، فلم تجد ثورته شيئا . كانت الست الكبيرة قد أخفتها . وبعد فترة نسى المعـلم مسعود الطاقية ، بل ارتاحت نفسه لاختفائها ، فقد تخلص من آخر اثر لأيام البؤس والعناء . وها هو عبده يذكره بها ليضحك . ربما كف عبده عن تمثيليته الساخرة . لم يفلح معه لفت النظر ، فليجرب وحدة الانسجام مع العائلة . وضحك .. فجـاء ضحكه نشازا كعزف الآلات البرونزية .. لم يمس قلبه .. ملأه مرارة وغصـة مفاجئة لم يكن يتوقعها . ما الذى يحزنه من تمثيليـة عبده ؟ ! .. تعود دائما أن يضحـك عندما يراه منسجمـا فى دوره .. يفرح أكثر حين يشعر بفرح العائلة .. وقـام يخنقه الضيق .. شرب ثم عاد . ولمحته الست الكبيرة .. فسألته :

ـ مالك يا حاج ؟ ..

قال وهو يشيح بوجهه بعيدا :

ـ مفيش .. مفيش ...

قالت الست :

ـ لا .. باين عليك متضايق شويه ؟ ! ..

ـ لا .. أبدا .. لا متضايق ولا حاجة ...

ـ لا يا حاج .. دى مش عادتك .. فين يا اخى ضحكتك اللى بتجلجل ؟ ! ..

وحاول المعلم مسعود أن يهرب من أطياف الأزمة القادمة . قام ، فأقعده الجميع :

ـ رايح فين يا بابا .. رايح فين ؟ ! ..

وقعد . اكتسى وجهه بابتسامة مبطنة بالتوتر والقلق . مم يخاف ؟ ! هو يعرف نفسه جيدا . شيء ما يدخل الكدر الى قلبه . ليست تمثيلية عبده وحدها .. ولكن عبده ايضا كان ينبغى أن يفهم .. ينقل الى تمثيلية أخرى ، وما أكثرها ؟ ! لماذا توغل فى هذه التمثيلية وحدها ؟ ! .. هناك تمثيلية الست الكبيرة وهى تطبخ مثلا .. ومضحكة جدا .. لكن عبده توقف عند المعلم مسعود . فحياتهما قسمة مشتركة . يبدو أنه وجد نفسه أيضا . وخفت قزقزة اللب ، ثم تسللت الأيدى الى فطير القناطر .. فطاب سماع الأذن ولذ أكل الفم . ودار عبده حول نفسه دورتين خفيفتين لطيفتين ، فظنت العائلة أنه يريد أن ينهى اللعبة .. فصاحت به أن يستمر .. فقفز الى مساحة أخرى مديرا يده فى الهواء علامة على طست العجين ، ثم قعد يعجن بيديه وكفيه كالمعلم مسعود أيام زمان . وانفجر سيال من الضحك جديد . طبقة من الضحك العنيف الذى يحرك الصدور ويدمع العيون .. وتمايلت الأجساد مع الموجة ، اعترتها نشوة ثملة ضاحكة . وراحت تتخفف من أحزانها القديمة ، تطهر قلوبها فى حفل الليلة الصاخب . وكان صبر المعلم مسعود قد نفد . هب واقفا يلعن عبده وتمثيلياته ، آمرا اياه أن يصمت : جاريا وراءه بالعصا فى أرجاء البيت .

ـ يا كلب .. يا خبيث .. انت زودتها خالص .. هو أنا كنت بعجن فى الفرن كمان ؟ ! ..

وحط هم ثقيل على العائلة .. تسللت الجهامة الى

وجوههـا . استيقظ الأطفـال مذعورين لا يدرون ما يجـرى حولهم . كظمت البنتان غيظهما وهما فى غاية الضيق . تبخرت الضحكات . هرول عبده الى الخارج خائفا مذعورا من قبضـة المعلم الصارمة . وعـاد صوته الكئيب يملأ أرجـاء البيت صراخا واوامر . اصبحت رحلة القناطر فى طيات المجهول . من يدرى هل يوافق عليها .. أو تعمق الأزمة فى داخله ؟ ! .. وبدأ البيت يغرق فى الصمت الممل السخيف من جديد .

أحلام ضائعة

فجأة دبت قدماه على أرضها ، حنينه اليها لا يقاوم . قفز فوق مشاكله وهمومه . خفق قلبه فى صدره . سرى فى جسده خدر لذيذ . رائحتها لا تغيب عنه أبدا . نسمة واحدة فى ظلها تنعش الروح . من غيرها يطبب الجراح ؟ ! .. فى كل مرة يراها من جديد يشعر أنه يراها لأول مرة . ودائما أكبر منه فى عواطفها وطيبتها ووداعتها ! .. سنوات وهى ترضعه الخير والوفاء ، لم تكشر فى وجهه لحظة واحدة . يفتر ثغرها عن بسمة حلوة .. مرحبة به . اشتياقه الى الشجرة العجوز التى يقعد تحتها لا يحد . هناك ينسى كل شىء . مضايقات الزملاء .. وقهر الرؤساء .. وضجيج المدينة الكئيب .. وأحزانه العتيقة . يسترخى بجوارها شبه سعيد .. قليل من السعادة يكفيه .. الآن يتيه فى حواريها الضيقة . يلقى السلام على الرجال والنساء .. كل واحد منهم يعرفه ، يذكر أيام طفولته وصباه . هنا يشعر بالانتماء ، لكن الغيبة الطويلة تؤلمه ، تعذب وجدانه.

هؤلاء قوم لا يعترفون بالاعتذار . يستقبلونك بخطاياك وذنوبك..
تسبح فى بحر مودتهم الى آخر العمر . شرب الشاى الأسود المر ،
فتلوى فى بطنه ثعبان متمرد .. لأول مرة يحدث له هـذا ..
ربما نسيت معدته طعم شاى الفلاحين .. تعودت على الويسكى
فى الفنادق الكبرى . أحضروا له روح النعناع والشيح المغلى .
ثم مدوا أيديهم الى الطعام جماعة فأودعوه جوفهم فى لحظات ..
تظاهر بحمد الله معهم ، لكنـه ما زال جوعان . عاد وطلب كوبا
من اللبن الحليب بدعوى ان الطبيب وصفه له بعد كل اكلة ..

اشرقت عيناه على لون اللبن الناصع البيـاض . فرح فرحا
شديدا . تذكر أمه وهى تحلب له معزته الصغيرة لترضعه لبنها .
هذا اللبن ليس كالمبستر . انه لايزال دافئـا ، ذا رغوة مزبدة ،
عليه علامات ضرع الجاموسـة الطيبة . تمنى أن يعيش على شرب
اللبن الى آخر حياته . يقولون ان اللبن الرائب يطيل العمر ،
لو طلب لبنا رائبا لأتوا له « بمترد » كبير يكفى عائلة . انه الزبادى
بلهجة مهذبة . لم يسترح بعد . هو يعرف أن هنـاك لحظـة
تدخـله الى اعمـاق القريـة . ليست هى الأكـل او الشرب
أو الحديث .. عندما يقعد وسط الحقل قريبا من البهائم والزرع
والمياه.. يريد ان ينسى متاعبه وقلقه ، أمنيته أن يستعيد بكارة
نفسـه . ليقفز الآن فوق المـآسى . لو نظر حوله مدققا لهرب
من القرية حالا . هـذا التخلف يحتاج الى مئات العقول والأيدى
والآلات . يكفيه لحظة النشوة التى يعيش فيها .

فى الليل تمدد تحت « عريشة » العنب..العناقيد مدلاة..
وقف يقطف منها ما يريد . ظل يأكل فى الظلام .. ثم نزل الى
خط البطيخ .. تحسسه بسرور .. حمل واحدة كبيرة .. شقها
بقبضة يده . مد وجهه كله داخلها يأكل . طلع قمر « اربعتاشر »

يلقى بضـوئه على العنب والبطيخ ومياه الترعة الساكنة . صفق سرحان معلنا بدء فرحه الحقيقى بالأرض . اصبح قطعة منها . حاولوا أن يتحدثوا معه فرفض . لن يسمح لأحد أن يعكر صفو خلوده . غطس بوجهه فى مياه الترعة. .تمدد على ظهره فاردا يديه واصابعه الى النهاية . وصل شعاع القمر والنجوم الى عينيه . انبثق الظلام عن لون فضى مزدهر . أخذ يعد النجوم .. واحدة .. ثلاثة .. مليون . لفحته نسمات الصيف اللطيفة فأغفى .. حلم أحلاما طيفية مفرحة .. يركب مهرا سرجه مزين بالقطيفة .. تلتف الورود حول جيده .. يتبختر فى حقول قريبة .

رأى كل الفلاحين يعيشون فى رخاء وسـلام . لم يعد يسمع انباء تزعجه .. الآن يحلم بالوصول الى القمر والنجوم .. رائدا أبوللو الخامسة عشرة يسبحان أمامه فى حالة انعدام الوزن .. يحاولان الحصـول على عينات من احجـار القمر الثمينـة .. يمشيان على سطحه كورقتى شجرة رقيقتين تهزهما الرياح .. تحررا من أحقـاد البشر وصراعهم . فتح عينيـه على شبح بجواره . تطلع فوجده عم عبد المقصود أبو جبل .. احد كهول القرية .. الشعر الأبيض يغطى رأسـه .. وضوء القمر ينعكس على تجاعيد وجهه البرونزى يبدو كتمثال صلب .. تحمل تقلبات هذه الأرض .. شـهد ظلم السنين قدم له سيجارة ، ثم قعد يؤنسه قال :

ــ كيف الحال يا أستاذ سرحان ؟ ..

قال سرحان :

ــ كيف حالكم أنتم ؟ ! ..

ــ كما ترى .. ها نحن كما كنا لا جديد ...

ـ ومحصول هذا العام ؟ ..

ـ أصابنا القحط والله يا أستاذ سرحان . .

ـ والعيـــال ؟ ! ..

ـ مات اثنان .. وبقى ثلاثة ..

وطافت الكآبة على وجه عم عبد المقصود . وضع كفه تحت ذقنه ثم صمت ..

فهمس سرحان :

ـ ما الذى يحزنك يا عم ؟ ..

قال عبد المقصود :

ـ شيء يطول شرحه ..

ـ مثل ماذا ؟ ..

الأمثلة لا تحصى .. أقلها ضعف بصرى الشديد ..

وفجأة انبسطت أساريره بضحـكة شرخت الســكون . أصبحت نفسه تعاف الشكوى . هتف فى سرحان :

ـ لا اريد أن أثقل عليك ...

ـ انى منكم واليكم ..

ـ الأيام تغير البشر يا أستاذ سرحان ...

ـ من يدرى ...

ـ كيف ؟ ! ..

ـ لا تهتم .. عندنا فرح الليلة .. انى أدعوك لحضوره..

قال سرحان فى سره هذا فأل طيب ، لا بأس أن اكمل عرس الطبيعة بعرس البشر .

ثم قال فى العلن :

ـ وأين الفرح ياعم عبد المقصود ؟ ..

ـ بجوارنا .. فى حقل المحلاوى ...

ـ اذن الى هناك ..

ومن بعيد كانت أصـوات المزامير تنبعث اليه . وهو صغير طالما اندفع الى هـذه الأفراح . غاصت قدمـه فى الوحـل ، فانتشله عم عبد المقصود بجهده الكليل . قابلتهما ترعة صغيرة لم يستطع أن يقفزها فشـمر العجوز عن ملابسـه ، ثم حمله الى الشاطى الآخر .

سقطت نظارته فظل يتحسس الأرض . لم يكن يرى شيئا حوله . اقتربت الضجة اللذيذة ، فانتعشت روحه من جديد . لا يهم .. كل شيء يهون فى سـبيل اسـتعادة بكـارة النفس والوجدان . وصلا الى درب سوى ، ثم مالا معا يشربان من أحد الأزيار على الطريق . كان طعم المـاء مرا . بصق ليطرد رائحتـه العطنة من فمه . ها هى أنوار « الكلوبات » تقترب . أصبحا فى قلب العرس . وقف الجميع تحية له . انهم يعلمون بقدومه منذ وطأت قدماه أرض القرية . انهالت « النقطة » على « الغازية » باسمه الأستاذ سرحان .. مصر .. ام الدنيا .. الزمالك .. شارع فؤاد .. كل الزمالك .. الصحافة .. كل واحد بيكتب فى الصحافة .. الناس الأكابر ..

قام وفى يده خمسون قرشـا الى المنصة ، تلألأت الورقة.. فقربوا منها كلوبا كبيرا . اشرأبت الأعناق ترى أعظم « نقوط » فى تاريخها . هتف سرحان من أعماقه ـ وعينـاه مغرورقتـان بدموع الفرح ـ أهـل بلدى .. منيـة أبو الفرج .. كل واحد باسمه ..أيام زمان . الطفولة .. الصـبا .. الشـباب .. عم عبد المقصود أبو جبل اللى وصلنى لغاية هنا .

ونزل مسرع الخطـا وقد حمى الرقص والطبـل والزمر والتهليل . وقبل أن يقعد فى مكانه قام فى موجة أخرى منتشية بورقة ثانية . وارتفعت صيحات الاعجـاب . قاموا اليه مهللين. وانحنت « الغازية » بصـدرها عليه .. هذا ابن البلد العظيم . زغردت النساء فوق أسطح البيوت الواطئة . واندفع شـباب القرية الى المنصـة يلعبون التحطيب . اطلق احدهم عيـارا فى الهواء . قفز الى المنصة واحد من أبناء القرية المجـاورة . اخرج من جيبه ورقة بخمسين قرشا .. صمت قليلا وهو يتطلع الى الموجودين . رفع اصابعه بالورقـة فى حركة دائريـة على مدى الساحة .. ثم بدأ يتلو : أهل بلدى .. ميت ابو العز .. كل الفلاحين .. الرجـالة .. اصحاب الشهامة .. اللى حـاربوا الانجليز .. وعقب بورقة اخرى فاهتاج الجمع .. ضاع اصحاب القروش .. الحلبة الآن للكبار .. وقال : العيال .. عيال ميت أبو العز .. ونزل ..

لكن صمتا مفاجئا حل بالناس .. شعر اهل قرية منية أبو الفرج ـ والفرح فرحهم ـ انهم تعرضوا للاهانة .. فكيف تجىء سيرة العيال هنا .. ومن هم الذين غلبوا الانجليز .. انهم هم .. الجميع يعرف ذلك جيدا .. وهو مسجل فى دفاتر الحكومة

القديمة . واستحثوا سرحان أن يقفز مرة أخرى .. بل هو الذى أخذته موجة من الحماس .. فوجد أيديهم تدفعه فى جنون .. فأخرج ورقة بجنيه ، ولف بها لفتين ، ثم رفع أصابعه بها ، ثم قال : اهل بلدى .. منية أبو الفرج .. اللى غلبوا الانجليز.. احنا اللى غلبنا الانجليز .. احنا اللى غلبنا الانجليز .. القطط .. الأرانب .. النمل .. كل حاجه فى بلدى .. اهتاج أهل ميت ابو العز . ضموا صفوفهم .. تحلقوا يناقشون التحدى.. بعضهم نادى بالانسحاب ، والبعض الآخر نادى بالبقاء وضرورة الانتصار .. جرى واحد منهم وأطلق عيارين من بندقيته فى الهواء للارهاب ، فجاوبه اثنان من أهل منية أبو الفرج . وحل على العرس الاكتئاب المفاجىء ..

ما الحكاية . قام شيخ كبير عاقل يخطب فى الجماعة : أيها الناس .. كل عام وأنتم بخير..انكم جميعا ابناء أرض واحدة.. عيب عليكم هذه الأعمال .. لكن الغيظ كان قد اشتعل فى الصدور . وسقطت القذائف فى « المليان » . هربت « الغازية » بأفراد تختها فى لمح البصر . سالت الدماء على الأرض . انطفأت « الكلوبات » . لم يعد أحد يسمع غير الصراخ والعويل وأصوات الاستغاثة .

تحسس سرحان راسه وصدره ، فأحس بلزوجة الدم فى يده . بكى من القهر وقلة الحيلة . تحامل لينهض ، فلم يقدر . لا أثر لنظارته على عينيه . تلوثت ثيابه بالدماء .

اتكأ على كتف عم عبد المقصود العجوز . كان يريد أن يصفعه .. أن يفرغ فيه حقده .. اين هؤلاء الناس المسالمون

الطيبون الوادعون . أحضروا له الماء المسكر ، فشربه وهو ساخط . لم تعد تنطلى عليه هذه الحيل الساذجة .

وتطلع الى وجه القمر ، فوجده على وشك المغيب . اتجه نحو الأرض . كان الجرحى لا يزالون يئنون ، وبعض الجثث لا حراك فيها .. فاغرة أفواهها . ضاعت زهوة الليل من قلبه . عاودته كآبته وأحزانه القديمة . أخذ يلعن حظه والأحلام الضائعة .

انتقـــام

كان قد انتهى الى البت فى أمره . طلقة بخمسة مليمات وتنتهى المسألة . لم يبق فى روحه أمل فى الخلاص الا بقتله . عشر سنوات وهو يدخل الى قلبـــه الكدر اليومى فى الصباح ، يحمله معه الى البيت . ينام على رؤية شبحه العقيم ، ثم يستيقظ مذعورا على يده القوية تجذبه بقوة .. اصح يا حمار .. انت لسه نايم .

ويهرول عباس الى ملابسه ، يحشر نفسه فيهـا بسرعة البرق ، ثم يقفز الى الباب وقلبه ينفطر داخله ، عندما يشـم أنفاسه فى الأوتوبيس تعود اليه حالة الكدر الهادئة التى تعود عليها . لاشىء ينغص عليه حياته ســوى هــذا الوجه العابس .. متى يتخلص منه الى الأبد ؟ ! ..

وتداعت فى رأسه الذكريات .. أنت جبان يا عباس .. تسبه وتسخط عليه لطوب الأرض حتى اذا ما وقفت أمامه كنت

كالكتكوت الغلبان ، تفرك يديك خوفا لا تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة . أين ضاعت منك كلمات السب والسخط ؟ . .

ثم تخرج مكسور الجناح . . تجر خيبة أملك ومرارتك الذليلة . . وفى اليوم الثانى تصمم على أن تتكلم . . تكرر المحاولة دون جدوى . . عشر سنوات الى أن استسلمت له تماما . . بل انك تسمع صوته فى كل لحظة : « انت لسه نايم ياحمار ؟ ! » ثم تصمم الآن على قتله . . كان من زمان . . ويزداد نبض قلبى فى صدرى . . لا . . لابد . . المسدس فى جيبى والعزيمة فى داخلى . هذا الظالم لابد أن يلقى جزاءه . لم أعد أتحمل . جعلنى أمشى محنى الظهر . عيناى منكسرتان الى الأرض دائما . روحى مسحوبة منى أبدا ، آكل نفسى وعقلى وشعورى . اصبحت خرقة قديمة مهلهلة . زوجتى تشفق على . أولادى يحتقروننى . اصدقائى على القهوة يعيروننى ، مهما غلبت فى الطاولة ، فأنا مهزوم . . كلما أحسست بفرح فأنا مهزوم . . اذا تذكرت أيام الشباب فأنا مهزوم . . أو نمت مع زوجتى فأنا مهزوم لم أعد أتحمل الهزيمة . فلأسقط رأسه الى الأرض أبدا . ولأر دماءه أمامى . أغرف منها وأشرب ، انتقاما وشفاء لنفسى . ولفحه صوته الكئيب . . اسمع ياعباس . . خد . . هات . . اكتب . سجل ، وعيناه لا ترتفعان عن الأوراق أمامه . تحسس المسدس فى جيبه . انه ساخن يود الانطلاق . وملأته نشوة مفاجئة . سوف يمسح الجبن من على جبينه . يرفع قامته فى كبرياء لأول مرة ولو للحظة واحدة ، وليحدث بعد ذلك ما يحدث ! لم يعد يهمه شيء . ليطلق مسدسه فيحسم المسألة . كفى أيام الاضطهاد الطويلة التى عاشها . . أيام السجن ، بل حبل المشنقة ارحم

منها . ليمت فى لحظـة مرفوع الراس خيرا له من ان يعيش السنوات مخفوض الجبين .

واستيقظ على باب المكتب الواسـع . ضغط على جيبـه بشدة .. القى تحيـة الصـباح وهو مضطرب . قال له زميله عبد البارى :

ـ مالك يا عباس ؟ ..

ـ مفيش حاجه ..

ـ مش عادتك انك تسكت يعنى ! ..

ـ امال اعمل ايه ! ..

ـ تشتم الباشكاتب يا اخى ؟ ..

ـ دا راجل طيب ..

وفى داخـله :

ـ لم يعد هناك وقت للكلام .. المسدس هو الذى سوف يتـكلم ..

قال عبد البارى :

ـ طيب ازاى ؟ .. غريبة !

ـ والله راجل طيب .. مش مصدق ؟ ! ..

ـ والله مانى مصـدق يا أخى .. انت مش لسه كنت داير تسب فيه على القهوة امبارح ؟ ! ..

واقترب منه عبد البـارى الى ان استند بذراعيـه على مكتبه . وتطلع فى عينيه :

ـ إنت مش طبيعى يا عبـاس .. مالك .. حد من العيال عيـان ؟

حدق فيه عباس بذهول :

ـ لا .. أبدا .. هى الساعة كام دلوقتى ؟ ! ..

ـ الساعة تمانية ونص أهه ..

ـ ياه .. اتأخرت كتير .. مش كده ؟ ! ..

ـ طبعا .. دا حضرة الباشكاتب حيخصم لك اليوم .

ـ مين قال لك ؟ .

ـ هوه .. جه هنا بص عليك ومشى .. قال لنا لما ييجى عباس بلغوه ان يومه مخصوم .

وغلى الدم فى عروق عباس . انتفض قلبه فى صدره يغلى بالحقد .. وضع كفه على المسـدس . اصفر وجهه . شملته برودة مفاجئـة . يبست نظراتـه فى الفراغ . اعترته نوبة من الذهول . كتمت أنفاسـه مرارة غريبة . عاودته حالة الجبن القديم . تداعت يده القابضة على المسدس . استسلم لشعور الهزيمة الذى اجتاحه .

وفى لحظة كان الشبح يقف أمامه : مسحوب الوجه . طويل القامة . فى روحه سقم أبدى لا يستطيع التخلص منه .. على عينيه نظارة قديمة سوداء . جسده نحيل جدا تكاد عظامه تبين من جلده . آثار الربو فى أنفاسه . صـدره يعلو ويهبط كطلمبة المياه التى شح من تحتها الرواء . رموشه الغزيرة تغطى عينيه الجاحظتين ..

الآن .. القاتل أمام المقتول . العين فى العين . قال المقتول:

ـ اتأخرت ليه يا عباس ؟ ! ..

قال القاتل :

ـ آخر مرة اتأخر فيها ..

المقتول :

ـ مفيش حاجه اسمها آخر مرة .. يومك مخصوم ..

ـ كان ابنى عيان شويه يا بيه ..

ـ لا ابنك ولا بنتك .. خلاص ...

ـ مفيش داعى يا بيه .. دى آخر مرة ..

وافترقا الى لقاء . رائحة الحقد تنتشر فى المكان . الهواجس والظنون تلعب بالصدور . من يغلب الآخر ؟ ! .. المسدس أم الخبث . الصراع محتدم الأوار .. والشوط مازال بعيدا .. لكن اللهب يكاد يشتعل لأوهى الأسباب ، والموظفون يتفرجون . تزقطط قلوبهم فى صدورهم .. فالوقت يمر وهم يشبعون فضولهم ، والصراع يحرك العالم الراكد الذى يعيشون فيه . يريدون جنازة ليشبعوا فيها لطما .. كل يلبد فى داخله كالقنفذ . يخشى أن تجىء « رجله » فى الموضوع . العيون على الأوراق ، والأيدى تكتب . ودفاتر الصادر والوارد راقدة كجثث الموتى على المكاتب . وتشجع واحد منهم يقول :

ـ خبر ايه يا رجاله .. هو احنا انكتب علينا الذل ! ..

هبوا فيه محتدمين :

ــ اقعد يا حسين .. اقعد ..

وهمس آخر :

ــ الحمد لله .. انى ماليش دعوة ياعم ! ..

ــ الحكاية خسرانة . خسرانة .. قالوا يا جحا عد غنمك .. قال واحدة نايمة وواحدة عيانه .

وانخفضت النفوس الى الحضيض حول المكاتب . لم ترتفع غير نفس عباس . كانت تحلق فى صفاء . لم يعد يقبل الضيم ، سلاحه فى جيبه . وسمع شـهقة عالية من الحجرة المجـاورة فكفت خواطره فى راسه .

ثم تبعت الشهقة شهقة اخرى . وصرخ واحد من الموظفين :

ــ الباشكاتب جالوا الدور يا أولاد ! ..

وتجمد عباس مكانه . لم يعد ينطلى عليه هـذا الكلام ، مرات كثيرة انتابت الباشكاتب ازمة الربو . تستمر معه دقائق ، يشرب فيهـا جرعات ماء ، أو يشم الكولونيا ، ثم يفيـق أعتى مما كان . صوته الكئيب يعلو بالأوامر والسخريـة والسب ، يجرى اليه الموظفون . فى تلك اللحظـة كان منكفئا على مكتبه ، روحه مسحوبة ، كأنما يلتقط آخر انفاسه من الدنيا . وانتزع كلماته بصعوبة .

ــ شوية ميه .. ميه ..

واحضروا له المـاء . قطروه فى فمه قطرات . رشوا عليه العطر . تحلقوا حوله مندهشـين . لا باس عليـك يا حضرة

الباشكاتب رغم قسوتك . نحن لا نملك شيئا نقدمه لك .. لا .. بل نملك وهتف واحد :

ـ الحقونا بالدكتور يا اخوانا ! ..

وتحامل عباس على نفسه ، فقام يدفعه الفضول . المسدس يفح فى جيبه . وأشرف على دائرة الموظفين المدتفة حول الباشكاتب . وتصلبت قدماه عند مدخل الحجرة . من يستطيع أن يقتحم هذا الجدار المنافق ؟ ! .. من لحظات كانوا يسبونه علنا . يضحكون ويسخرون من هيكله العام ويزعق واحد :

ـ يا اخوانا وسعوا كده خلوا الراجل ياخد نفسه ...

وينفرط عقد الحلقة قليلا . يهفون عليه بجرائد الصباح التى لم يقرأها بعد . حملوه ومددوه على احدى الأرائك . المسدس يبرز فى جيب عباس . يحاول أن يبتلع حقده فى صدره .. لكن الهزيمة لا تزال تهد جسده وروحه . لقد فعلها الباشكاتب مرات كثيرة قبل ذلك ، وقام كالحصان الأحمق . يصيح فى الموظفين الذين قطروا له الماء فى فمه ليشرب ، ورشوا عليه العطر حتى يفيق . وتخطو قدماه خطوة لتتراجع خطوات ، ثم يتغلب فضوله .. يقترب من الأريكة . يمسك يده . كانت باردة كالثلج . احس نبض قلبه من عروقه . كان ضعيفا واهنا . تطلع الى وجهه الأصفر العليل . لاتزال أطياف الخبث الأبدى ترفرف عليه . لأول مرة يسكن لسانه داخل فمه عندما يراه . سرت الراحة فى نفسه . لم يعد فى حاجة الى المسدس . صفعة واحدة تقضى عليه . لابد أن يقضى عليه الى النهاية . هؤلاء الأوباش يقفون حوله .. مازال الفل يأكل قلبه . واشتهت نفسه دماءه . حرك يده فلانت معه فى ضعف . قطر الماء فى

فمه ، ففتح عينيه شاكرا الجميل ولو .. تلك خدعة قديمة يعرفها جيدا .. لن يثنيه عن عزمه اضطهاد عشر سنوات . يستحيل أن يضيع فى غمضة عين . زفر بضيق ومرارة . كان ينوء بالحمل الثقيل الذى يحمله . الاصرار على القتل يملؤه غرورا وقسوة ، والخوف من المجهول يحوطه بالرعب والذعر . وسحب الباشكاتب لسانه بصعوبة :

ـ انت اتأخرت النهارده يا عباس ؟ .

ـ آه اتأخرت ..

ـ وحياتك معدتش تتأخر تانى .. دى مسئولية عليه !..

واغمض عينيه من جديد . حتى فى لحظات غيبوبته لا ينسى التأخير . ولأول مرة يشم فى صوته رائحة الطيبة أو الضعف لا يدرى . لقد أصبح الوقت متأخرا للعتاب . لو كان التأخير هو السبب لأتى فى الميعاد لا يتأخر دقيقة ، ولكنه تراكم السنوات العجاف فوق صدره .

وطافت بخياله الأيام الماضية السوداء .. حادث واحد لن ينساه ابدا .. يوم اخرجه السعاه من مكتبه .. كان الصباح جميلا ومشرقا .. وهو فى حالة هادئة .. أرسل له ليطلع على دفتر الصادر .. جرى اليه بالدفتر .. ظل واقفا امامه كالصنم .. واخيرا تجرأ . جلس امامه .. فهب فيه أن يظل واقفا .. وحتى لا يعقد المسألة .. وقف . لم ينطق الباشكاتب بكلمة طوال الساعة . فقال له عباس :

ـ خلاص يا حضرة الباشكاتب ؟

زعق فيه بعنف :

ـ لسه يا أخي .. انت مستعجل على ايه ؟ ! ..

ـ اصلي واقف بقالي ساعة ...

ـ ما تقف .. ان شا الله تقف ساعتين ..

ـ طيب امشي وانت تبعت الدفتر على مهلك ..

ـ لا يا سيدي .. استنى اما تاخده معاك ..

ـ يا حضرة الباشكاتب أرجوك .. عنـدي روماتيزم في رجلي ..

ـ يا أخي بلاش هوسه ..

ولم يتمالك نفسه . هجم عليه يريد أن يفترســه . فقام الباشكاتب يصرخ :

ـ طلعوه بره .. طلعوه .. بده يضربني ..

واخرج بين أيدي السعاده وعلى أكتافهم .. وبعدها فتح معه التحقيق . شهد الجميع ضــده . فأوقف عن العمل . ثم توسط أولاد الحـلال فعاد . ومن يومها والباشكاتب يتسلى به . يوم خصم .. ويوم جزاء .. ويوم تقرير .. كدر كل يوم .. ينفذ في الروح كالسم وفي الجسد كالطعنات المحماة بالنار ..

الآن يرقد الجسد مريضــا .. لكن الروح كمــا هي .. تلبسـها الشر والخبث والأسقام .. وهو يريد أن يقضي على هذه الروح ، لا يهمه الجسد .. واعتراه الشـك في المسـدس الراقد

فى جيبه . ضغط عليه خائفا ، ثم تطلع للموظفين كالملهوف حتى لا يراه احـد ! .. تمتم فى سره .. لو عرفوا نيتـك فسـوف يضعون الحديد فى يدك .. اصبر حتى تنتهى المسألة .. السجن أمره هين .. وحتى حبل المشنقة .

وسمع الجسد الراقد يتأوه . تصعد أنفاسـه وتهبط . تتحشرج الكلمات فى فمه . يطوح بيديه فى الهواء ، يطلب النجاة. يبدو أن ازمة اليوم لن تنتهى بسـلام . وهـدأت أفكاره بعض الشيء . مد يده بجرعة ماء أخرى الى فم المريض ، فشرخت جوفه العطشان ، ثم تمتم بكلمات العرفان بالجميل . لم يكن يدرى من الذى يقدم له المـاء . طلب أن يسندوه قليلا . فمال عباس الى الجسد المهدود . ذراعه وراء ظهره ، والذراع الأخرى عند راسه والأنفاس تجاه الأنفاس . وتلاصق القاتل والمقتول . الخبث مع المسدس . نبض القلبان فى صدريهما . وتلاقت العيون. وكادت تهزهما صدمة اللقـاء القريب . أن يفرغ كل منهما ما فى نفسه للآخر .. لكن كتلة الحقد والانتقام ارتعشت فى أعمـاق عباس .. لا .. لا .. لن تخدعنى من جديد .

وهمس الصوت المنهك :

ــ متزعلش منى يا عباس ..

وقال عباس :

ــ لا .. أبدا .. أنا مش زعلان ..

وفى داخله وهو يمضغ ملح الانتقام تحت ضرسه :

ــ اتأخر العتاب جدا ..

وانهـار جسده بجوار المريض . كان الموظفـون لايزالون يطلبون الاسـعاف . يهرولون فى أرجاء المكان دون جـدوى . يتحلقون الأريكة . الأفواه تبث الكلمـات الميتـة ، والشماتة فى أعطافهم . وهو فى عنق الزجاجة ، لا يستطيع أن يخرج من دائرة الانتقـام .

وود لو جرى الى بيتـه وترك الحجرة بمن فيهـا . انه كابوس يرسخ فوق روحه . وصرخ أحد الزملاء :

ـ الاسعاف جت يا جماعة .. الاسعاف جت ! ..

وحملوه بين أذرعهم الى النقـالة . وركب معه البعض . وتراجع عباس وقد شهق من الفرح ان تخلص من هذه الورطة .. لكن حضرة الباشكاتب طلبـه بالاسم . وتعجب .. ضرب كفا بكف متحيرا .. ما هو سر هـذا الاختيار السخيف ؟ ! .. انه يود أن ينقذ نفسه . وجذبه أحد زملائه من ثيابه :

ـ اطلع يا أخى .. الراجل عاوزك جنبه ..

العربة كئيبة تذكره بالموت . وصـدر الباشكاتب يعـلو ويهبط . يمسك بيده كحبل النجاة الوحيد . همس له بضعف :

ـ انت لسه زعلان منى يا عباس ؟ ! ..

ـ لا أبدا يا حضرة الباشكاتب ..

ـ لا .. أنا عارف انك زعلان ..

ـ لا أبدا ...

وفى داخله :

ـ خداع .. لم يعد يجدى الاعتذار ..

ـ انا كنت غلطان معاك يا عباس ..

ـ لا .. لا غلط ولا حاجه ..

ـ لا يا عباس انا غلطان فى حقك كتير .. سامحنى يا عباس ..

ـ فاكر نهار ما طردتنى من المكتب يا حضرة الباشكاتب .

ـ فاكر يابنى .. انا باستسمحك محدش عارف الموت من الحيا ..

ـ وفاكر نهار ما كتبت التقرير اللى حرمنى من الترقية؟!..

ـ فاكر يا عباس ، ماذا ينفع العتاب ..

لقد شحن قلبه بالحقد . كيف يفرغ حمولته الثقيلة ؟ .. ليس الأمر بهذه البساطة . ونظر الى الجسد الممدد امامه ..

وكان وجهه أصفر كالكركم .. ويداه يابستين بجواره .. وعيناه غافيتين مستسلمتين ..

وهش عباس ذبابة صفيقة تعف على الجبين الباهت .. كان المسدس فى جيبه قد كف نبضه تماما .. لمسه فوجده باردا .. وطلب الباشكاتب يده حتى يعتدل قليلا .. فأعطاه يدا مضطربة خائفة .. ما زالت مخنوقة بنار الانتقام .. وتحامل على نفسه ليقعد نصف قعدة .. وفتح عينيه الواهنتين .. ونظر فى عينى عباس . ولأول مرة كانتا صافيتين .. لا اثر فيهما للخبث .. وخفق قلب عباس . لمسه بصيص العينين الصافيتين الودودتين المعتذرتين .. وهمس له الباشكاتب مرة اخرى :

ـ انت اسمه زعلان منى يا عباس ؟ ! .

ولم يرد عباس ، انما أشاح ببصره قليلا .. أرعشته هزة من الخجل المفاجىء .. كيف يستكين لها .. خفق قلبه فى صدره بالراحة . تنفس من أعماقه .. عاد والقى نظرة خاطفة على غريمه ، فوجده يغفو فى النعاس .. استسلمت عيناه للتعب .. شفتاه مزمومتان على أزمة أبدية .. ما زالت الذبذبة تطوف على وجهه الأصفر العليل ..

وهرب عباس بعينيه الى الطريق .. كانت الأرض مفروشة باللون الأخضر ، محصولات الشتاء تغطيها .. البهائم تأكل برسيم الشتاء اللذيذ .. وقطع السحاب المحملة بالأمطار تستلقى فى السماء كالنساء الحبليات .. وحلقت روحه مع الوجود .. ثم عاد فمسح جبين غريمه بأصابعه .. كان الجبين باردا كالثلج .. ورمقه فى اشفاق لأول مرة ، لماذا تعذبنى ؟ ! وبدون أن يشعر كانت يده تتسلل الى جيبه على المسدس ، تسحبه لتطوح به بعيدا .. بعيدا .

قرنفلة من وادى الموت

فى مدينة الكذب والضلال ، كان يسير وسط جثث القتلى والمشوهين .. ارواح الأحيــاء تجدف مع ارواح الأموات كالعاشق والمعشوق .. تختلط الألوان . يقفز اليه بعض القتلى مهروبين .. احدهم ضخم الجثة ، طويل القامة ، يلهث من شــدة الجرى . نظراتــه منكسرة الى الأرض . فى مؤخرة راســـه جرح ينزف بغزارة . امضروب هو أم ضارب ؟ ! ..

سأله : فلم يستطع الاجابة ..

همهم بعد فترة .. لقد صرعت عدوى وصرعنى .. قلعت له عينه اليمنى ، فقلع لى عينى اليسرى ، ضربتــه فى نافوخه ، فشج لى رأسى ، قطعت له ذراعــه فأطلق رصاصــة اصابت فخذى .. لقد قتلته وهأنذا قتيل ! ..

وفى عرض الطريق توقف . كانت هنــاك مظاهرة . أشــبه بجنازة عساكر البوليس يقفون بعصيهم الغليظة ، وطبيب شرعى

يفحص جثة عروس صغيرة . ضابط البوليس يأخذ اقوال بعض الشهود ! ..

ــ هل أخذتم رقم السيارة الهاربة ؟ ..

هب فيه الشهود :

ــ لم تكن سيارة يا حضرة ! ..

ــ اذن .. خناقة ..

ــ ولا خناقة ..

ــ اعتداء على الشرف ! ..

ــ شرف من ؟ ..

ــ شرف البنت الصغيرة ! ..

ــ يا حضرة .. انت بتخــــرف .. ولا وقــت للدينـــة للتخريف ! ..

قال الضابط ساخطا :

ــ طيب دلونى أرجوكم على معالم الجريمة ؟ ..

قال الشهود :

ــ هــذا القتل شيء عادى جدا ، لا سـبب له ، ولا غاية ، يحدث فى كل مكان من المدينة ، وفى كل وقت .. ربما انتحرت الفتــاة ! ..

فتح الضابط فمه مندهشا :

ــ انتحــار ؟ ! ..

قال الشهود :

ـ نحن لا نستطيع أن نجزم بشيء .. نحن نخمن فقط ! ..

هتف مغيظا :

ـ أنا لا أستطيع أن أعتمد على التخمين .. حسبى أن أعتمد على الوقائع ! ..

ـ اعتمد على أى شيء تريده .. لكن نرجو أن تتركنا فى حالنا .. نحن نريد أن ندفن البنت قبل أن تتعفن الجثة ! ..

وتطلع الى وجه العروس قبل أن يغادر المكان .. كانت عيناها ما زالتا نديتين بريئتين تضيء جبهتها بذل القهر والاستسلام ! ..

خلع قدمه من أرض المعركة بصعوبة .. تلوثت ساقاه بالدم . زحف الى حلقه طعم الموت . كان فى قمة عدمه وعبثه .. حاول أن يشم رائحة قرنفلة كانت فى يده ، فزكمت أنفه رائحة التراب .. شعر بالقيء المفاجيء ، انحرف يفرغ ما فى بطنه . ثم قعد على الرصيف مع المتسولين والشحاذين والصعاليك ولمامى أعقاب السجائر . ثم مر موكب جامعى القمامة .. كانوا يضعون شاراتهم المزركشة على صدورهم . يختالون من التخمة ! أبدوا استعدادا طيبا أن يحملوا القتيلة فى عربتهم . تناوبوا الندب والعويل . ظهر من بينهم حانوتى قميء متخف ، حاول أن يقتحم الجميع بصفاقة . حطت عليه الأيدى الثقيلة ، فانهار تحت ضرباتها . لفظ أنفاسه تحت الأقدام . حمله الناس الى جوار العروس .

وبدأ تحقيق جديد .. من الذى ضربه ضربـة الموت .. لا أحد يستطيع أن يعرف .. هل مات من المفاجأة والدهشة .. ربما ! المهم انه كلب ومات ؟ ! ..

وغلى الدم فى عروقه . قال الى متى يصمت على هذه المذبحة الكئيبة ؟ ! لابد ان يفعل فعلا .. اقترب من الجمع . قال :

ــ يا متوحشون .. كيف تقتلون الحانوتى .. الرجل الطيب ؟ !

هجمت عليه سيدة شرسة :

ــ وانت مالك ؟ !

قال :

ــ هو انسان مثلى .. مقهور ! ..

قالت السيدة :

ــ كلنا مقهورون ! ..

قال :

ــ اذن .. لماذا يقتل المقهور أخاه المقهور ؟ !

ولم يكمل جملته . فقد تحوطته الأيدى والأذرع . شالته من على الأرض ، ثم زرعته فيها بعنف . شعر ببصقة ساخنة على وجهه . عشرات الأكف هبطت عليه تؤدبه . ما الذى حشرك يا سخيف ! مقهور أم غير مقهور . العروس تستحق القتل ، والحانوتى يستحق القتل . من الذى قتل ؟ هذا شىء لا يهم ؟ نحن جميعا مذنبون ..

لكننا أبرياء ، قتلة .. لكن مقتولون ، سفاحون طبعا . لكننا طيبون ! القتل يجر وراءه القتل .. من قتل فى الصباح . يقتل فى المساء .

وارتعشت منه ساقاه . انهار كيانه على الأرض . وصاحت الحلقة تبكى وتندم على فعلتها . لقد أصيب فى الصميم ، ثم سرعان ما ضحكوا ملء قلوبهم . لقد حققوا انتصارا باهرا على غريم متمرد من بينهم . دس أنفه فيما لا يعنيه ! ..

والقمه احدهم ضربة بكعب حذائه . فلم يعد ينطق بشىء . حاول النهوض ، فكبا متعبا ! زحف بنفسه الى جوار الجثتين الصريعتين . فهلل القتلة فرحين ! .

اذن لقد أضافوا رقما جديدا للمقتولين . قبض على قرنفلته بشدة ، فأشاحوا اليه بأيديهم أن يرمى بها تحت الأقدام .

وانبعث أنين الموت الخافت من صدره . فتدفق قليل من الحنان الى قلوبهم ، فتركوه يعانى فى لحظاته الأخيرة ! .. وتقدم فاعل خير ينقط قطرات الماء فى فمه . ثم تشهدوا فى نفس واحد . ابتسم فى سخرية . ثم رأى هذه الابتسامة تنتقل على وجه العروس ، ثم على وجه الحانوتى ، ثم انتقلت الى وجه ضابط البوليس ، ثم الى وجه الطبيب الشرعى ، ثم انتشرت على جميع الوجوه ، تعجب فى سره ، ما الحكاية ؟ ! وجاءه الجواب لطمة فجائية مدهشة ، أدارت الدنيا فى عينيه ، وغشى النور امامه . بدا انينه يضيع فى اللغط الغريب .. واقترب منه الضابط والطبيب والكاتب ، وبدءوا عملهم .. كان يرد ويده تشير الى الجثتين . غمغم بحروف لا يعرفها ولا يفهمون منها شيئا . دمه اختلط بأرض الساحة ! ..

قال الضابط :

ـ هل لك علاقة بهاتين الجثتين ؟

اشار بالنفي .

هتف الضابط :

ـ يا كلب يا ابن الكلب .. اذن ما الذى حشرك فى هذه المعركة ! ..

ثم شك فى الأمر . هل حقا يشتمه الضابط ؟ ! لم يكن يسمع كل ما يقال .. ضاعت طبلة أذنه فى الزحام .. يشتم او لا يشتم لن يلتفت الى هذه التفاهات الصغيرة .

وطقت بجواره صرخة محمومة :

ـ كيف يا جماعة ؟ ! ..

وارتفعت الأكف تهبط على صاحب الاحتجاج الجديد ...

وفى لمح البصر وجد جثة جديدة بجواره . غريبة .. الى متى تظل مهزلة القتل تحدث أمامه ؟ ! أفضل شىء له أن ينشغل ببقايا عالمه هو . طظ فى كل شىء . مدد ذراعيه بجواره . وضع كفيه على صدره متشابكتين ، تماما كميتة قدماء المصريين . أسبل عينيه بنفسه .. وشيئا فشيئا ذوت الضجة من حوله . بدأ يجدف على صفحة أخرى ، لكنه عند اللحظة المناسبة بصق بملء فمه ، عبر الضباب الكثيف الذى يكتنفه ! ..

قصاصات ورق ...

يونيو الكئيب ، وقت الغـارة المشئومة . كان الجنين فى بطنها ، والابنة بجوارها . وقفوا داخل البيت . الواحدة بعد الظهر ، هدف العدو مطار .. التصقوا ببعضهم بعضا ، قرروا أن يموتوا معا او يعيشوا معا . ضحكت الابنـة فى اليوم الأول والثانى ، اما فى اليوم الثالث ، فبـدأت تبكى . أدركت خطر الحرب . لم يذق الطعام . اذنه على الراديو . أسقطنا ثلاثين طائرة ، اربعين ، خمسين ، ثمانين ، الى ما شاء الله . وعلى الناحية الأخرى ، رفع الراية البيضـاء على بيتك يعصمك من الخطر . أطع أوامر جيش الدفاع الاسرائيلى . لا يصـدق . نوع من الحرب النفسية . وفى اليوم الثانى نزل الى الشـارع يهرول يبحث عن ساحة التدريب . يلعن كل شيء — يريد أن يحمى زوجته وأولاده لحظـة واحدة تعطيه الثقة ، لحظة الزحف على الأرض . يفرد ذراعيـه عن آخرهمـا .. يقبـل التراب ، يا أرضى الحبيبة .. لن اجبن بعد اليوم .. طلقـة المدرسـة الثانوية تدوى فى أذنه . ليته سار فى الشوط الى نهايته ، لكن

النحت استحوذ عليه . شده الى ساحته .. الحياة هى الفن ، والفن هو الخلاص ، البداية والنهاية ، العذاب والفرح .. لكن تمثاله يخذله ، ينزل من عليائه الى أرض الواقع ، يتحدث كالبشر .. يبتهج ثم يأرق ، يأمل ثم ييأس ، يفزع فى الليل ، يتهور فى النهار ، وتلك هى المصيبة .. انفرط عقد الجبروت والقوة .

***

ـ الآن .. يقعد وسط تماثيله يفكر ويتأمل . منذ لحظات هب من نومه مذعورا يجرى :

ـ طفوا النور .. طفوا النور .. غارة .. غارة .. !

احتضنته زوجه مشفقة :

ـ لا يا حبيبى .. دا مش غارة .. دا رعد ! ..

ـ انباء غارة نجع حمادى ما زالت تعيش فى وجدانه . ظل يثرثر وحيدا مكتئبا ، يمتلىء قلبه بالمرارة والسخط :

ـ كيف نزلوا ؟ ! ..

ـ نزلوا أم لم ينزلوا .. ليست هذه هى القضية ! ..

ـ لابد أن يتكون الجيش الشعبى ...

ـ لابد .. لابد ...

ـ ضعنا يا اولاد ! ..

ـ لا ... هم الذين ضاعوا .. الخونة والمرتشون ...

ـ حل سلمى .. وحل عسكرى ...

ـ لا ... حل شعبى فقط ...

اليوم لم يسكن للسماء جفن . طول النهــار وعيونها تدمع . وفى بعض الأحيان تبكي بحرارة ، ثم تتشنج ، تريد أن تمزق شرايينها . ثم تنتحر ! .. وهو صغير كان يفرح لسقوط المطر ورؤية البرق وسماع صــوت الرعد .. اما الآن ، فان غضب الطبيعـــة يختلط بشــبح الحــرب . أين أيامــك الصـــافية يا قوس قزح ؟ ! .. لا فائدة من النوح . نحن نعيش فى الحاضر الملتهب .

امسك مطرقته ، راح يعالج كتلة الخشـــب الصغيرة بين اصابعه الحساسة ، قطعة بيضاء بلون رمز السلام .. لم تعد الحمامة وحدها ترمز للســـلام .. كل الحيوانات الأليفة رمز للسلام . احتضن نخلته الطيبة بين ذراعيــه ، هى أيضــا رمز للسلام منذ القدم ، رغم حشفها الخشن .. ولونها الداكن ! .. المهم ما فى القلب .. ما فى الخــلايا والشرايين .. تظل النخلة تثمر على مهل ، فى العام مرة لأجيال واجيال .. منها الى باطن الأرض مباشرة .. كل يتفــاهم بلغته .. وفى الســـماء رزقكم وما توعــدون . واذن فســـوف ترتوى النخــلة رغم حزنــك يا يوسف ! .. لو استمعت الى همسها منذ سنين ، لكنت اليوم أسعد حالا .. احذر الدعاية السخيفة .. لن احظى بلحن اذا تغنيت فى جمالى .. وصفت رونقى وحسنى .. اعطى عنــدما تقدم لى المــاء ، وتراعينى فى الغــذاء ! ولكنــه معذور على كل حال .. فحين ينطلق كل شىء فى اتجــاه الريح الرابحة ، فمن الصعب ان يقف ضدها ! وما ضيعه فى الدعاية السخيفة ، حاول أن يعوضه فى خلق تماثيله ! ..

القى ببصره الى حديقته الخضراء ، زهور الشتاء اللطيفة تغزل الوانها فى زخرفة بديعة . ما قيمة الزهور ، وداخل البيت يشتعل بالنيران .. اللحظة للمدفع والصاروخ . كيف يشم رائحة زهرة ، والآخرون يشمون رائحة البارود وشياط الشظايا المحترقة ؟ ! تحسس جسد قطته .. لحظة سعادة غامرة ، حين يشعر بكتلة الخشب تتشكل بين يديه الى مخلوق جديد ، تتحول من ركود الموت والتفاهة ، الى نبض الحياة . لكن آه .. لو استمع الى صوت نخلته .. يجب أن يقترب منها ، يحتضن جذعها الحنون :

ــ نادم على ما فات يا عمتى الطيبة ! ..

ــ هـه !

ــ تسخرين ؟ ! ..

ــ لقد مضى وقت الاعتذارات ..

ــ اريد أن اجسد السلام فى رمز ..

ــ جسد كما تريد .. ولكن ابتعد عن العواطف المتضخمة.

***

عند قدمى تمثاله رقد .. ربما ينقذه من الغم ، ينتشله من الضياع .. نظر الى كيانه الذى قد من الصخر .. الندوب تغطى صفحة وجهه ، الأسى فى عينيه ، مهزوم يبحث عن خلاص.. اطياف السخط ترفرف حوله ، لكنه لايزال يدخل الرعب الى قلبه ، يرمقه بنظرة حادة من طرف عينيه ، حزم الضوء ترتعش فى الحديقة ، الأرض تهتز تحت قدميه ، هـذه النظرة يعرفها

جيداً ، لم يفلت منها مرة واحدة ، سهم موجه اليه ، لا يستطيع
رده بسهولة . حاول تفاديه ، لكن عبثا .. وفى النهاية يسمع
الصرخة المتوعدة .. الى اين المفر ؟ ! .. هذا التمثال من صنع
يديه ، ومن تصميم عقله ، تصور جمجمته .. قلبه .. روحه ..
وكان كلما ضرب ضربة ، شعر أنه يبرز عصبا من الأعصاب ..
فكيف يتمرد عليه ؟ ! .. قام وخبط رأسه بغيظ ليؤدبه ، فانحنى
اله مكسور الجناح .. وعلى تجاعيد وجهه ظهرت ملامح
الشيخوخة المبكرة .. لم يفرح به بعد .

سمع خطوات زوجته تقترب .. وجهها الرائق يخفف من
بلواه . كلماتها الهامسة يرتاح اليها .

* * *

ايام حرب السويس ، كانوا يسمونها حمامة السلام ..
اليفها الرقيق يسعده . كانا يسيران وسط المدينة . وفى امسية
شتوية ما نزل المطر .. وتحت احدى المظلات وقفا يتفاديانه :

ـ ماذا تقرئين ؟ ..

ـ أحب تولستوى ودستوفسكى ...

ـ وانا احب الفلاحين ...

ـ لم أذهب الى القرية بعد .. !

ـ يستحيل ان تكونى مصرية ! ..

ومن اول زيارة الى قريته حمل اليها حفنة تراب : هذه
وثيقتى اليك .. استطيع ان اقدم البط والأوز هدية .. ولكن
التراب هو الأصل .

ابتسمت :

ـ عاوزه أروح بلدكم ..

ذهبا معا الى المجوهراتى . حفرا اسميهما على دبلتين بلا تاريخ . ماذا يفيد التاريخ ؟ ! .. نبض القلب المحب هو التاريخ .

* * *

همست له فى اشفاق :

ـ تأكل ؟ ! ..

ـ يعنى ..

ـ مالك ؟ ! ..

ـ لا شئ ..

ـ خلصت التمثال ؟ ! ..

ـ التماثيل كالشعر .. لا تفيد ! ..

ـ ضرورى تعقدها ؟ ! ..

ـ لا .. ابدا ..

* * *

على مهل جاءته الذكرى المدفونة فى اعماقه . غزة يا غزة .. ين انت يا حبيبتى .. ليتنى لم أعرفك ! .. ثلاثة أيام ومضت الذكرى .. شبعنا مهرجانات شعر .. تصدع راسى من قصائد

المدح والهجاء .. ويا احمد المرتجى فى كل نائبة .. داخلت أعصابى من مخلوقات النمل العجيبة ! .. وكنت حبلى بالخطر ، رغم البسمة على شفتيك ، والضياء على جبهتك .. قدمت لنا افخر اطباق الطعام : اللحم ، الدجاج ، الديوك الرومية ، والسمك ، واروع أصناف الحلوى التى تشتهرين بها . وعلى شاطئك .. انحنينا نجمع الأصداف للذكرى .. آه .. لو صدفة واحدة الآن .. أصدافى القديمة ملكتها ابنتى .. وابنى الجديد لم ير أصدافك بعد .. لم يعرفك بعد ! ماذا اقول له عندما يكبر ؟

وفى خان يونس القى بيننا صاحب الذراع الواحدة أبياتا من الشعر .. تعجبت من المعنى رغم سخطى على قرقعة المنابر.. لم نعد دمى مزوقة يتفرج علينا الناس .. واشار ببقية ذراعه المقطوعة الى جدار قريب :

هنا كانت معركة للمقاومة مجيدة .. قطعت فيها ذراعى ، ومات أخى وآخرون . خجلنا لحظات ، ثم سرعان ما تذكرنا الغداء الدسم الذى ينتظرنا .. غرقنا فى التجديف . الواقع يلطم خيط الرحلة بجهامته ولهيبه .

وبعد المأدبة الفاخرة خرج الأعيان واصحاب النياشين والعقال الزاهى ، انقض المشردون الصغار على البقايا ، كادت تحدث معركة تشوه الصورة .. لولا لطف من الله .. أشرنا عليهم أن يتركوا الجوعى يأكلون .. والا ؟ ! ..

وفى المساء غضب منى الرفاق .. كان السؤال يبدو سخيفا .. لا يليق بجلسة أنس وتعارف ..

ـ يا كتاب فلسطين ، ماذا تسجلون فى بطاقاتكم الشخصية .. والجنسية بالذات ؟ !

كانت أمنيتى الا يكتبوا أردنيين .. أو لبنانيين .. أو .. لابد ان يسجلوا .. فلسطينيين ! ..

غزة ...

يا غزة .. ما الذى ذكرنى ؛ ..

وفى مواجهة البوابة الكئيبة وقفنا نلتقط الصور التذكارية ، نشير الى الأرض المحتلة .. لحظتها لم أشعر اننى مصرى .. فلاح .. من أبو كبير .. او انشاص .. ادركت اننى عربى .. فلسطينى .. محروم من أرضى ..

غزة يا غزة ، أشياؤك ما زالت عندى ، أصدافك تدفئنى.. ليتنى ما عرفتك ! ..

وسط الظلمة ، كانت دقائق لا تنسى .. محل « لاباس » يموج بالحركة ، بالمينى جيب والميكروجيب . الهواء المكيف الدافىء يلسع السيقان والأفخاذ الزجاجية العارية . معذرة .. هى بينهم ، شعرها يسترسل على كتفيها فى ضفيرتين طويلتين ناعمتين ، جبينها يتألق بالضياء مثلك يا غزة .. تحمل فى أعماقها السر .. حطت كالطيف ، رفرفت على أرض القاهرة كالطير .. كانت تتعجب :

ـ هذه حياتكم ؟ ! ..

وهو يرتشف عصير البرتقال :

ـ احوال ! ..

ـ آه .. لو رأيتم الأغوار ؟ ! ..

ـ تحبين حياتهـا ؟ ..

ـ مرفئى الذى أرتاح لديه ...

ـ وأسعد لحظاتك ؟ ..

ـ عندما ينادوننى .. بيا .. أختى ..

ـ لك اخوة ؟ ! ..

ـ هى اخوتى .. ابى وامى .. وكل وجودى ..

وعلى الباب بعد أن ودعها لم يرفع عينيه عنها ، عن طيفها وهى تتيه وسط الزحـام .. كقرص الشمس قبل أن يغيب .. ربما لن يراها بعد اللحظة .. وربما تشرق كل صباح ..

* * *

وهو صغير ، شـعر الوطن من خـلال الأشـياء الصغيرة ، الاستحمام فى الترعة ، أكل البلح الأحمر ، صـيد السـمك ، الاستغماية حول قصر الجن ، الذهـاب مع أبيـه الى سـوق السبت .. كان أبوه يبكى فى اخريات أيامه ، عنـدما تواجهـه الصعاب .. ابنه الآخر مريض فى مستشفى الأمراض العقليـة منذ خمسة عشر عاما .. فقد الذاكرة يتوق لرؤيتـه ؛ ولكنـه لا يقدر ، يبكى .. الكبار كالصغار ، دموعهم سـهلة المنال .. مات أبوه صافى النفس .. نقى السريرة ..

ليته جسده فى تمثال ! ..

* * *

ذات صباح ، عندما كان طالبا بالمدرسة الثانوية قرأ عنوانا فى الجريدة : بيفن يصرخ ، بريطانيا العظمى يستحيل أن تتخلى عن مصر ، تعتبرها قطعة منها .. غلى الدم فى عروقه ، كان يخرج فى المظاهرات ، أما اليوم ، فعليه أن يقودها ، فناء المدرسة هادىء خامل .. الطلبة لم يتجمعوا بعد ، ملوا المظاهرات والاعتصام ، والمطالبة بالسلاح ، لم يجد وقتا للتردد ، اعتلى حجر احد السلالم ، تشنج صوته بغضب ، لن نصبح قطعة من بريطانيا أبدا ، تحلقت حزم الطلبة .. أيها الزملاء ، انجرف السيل وراءه .. عاش كفاح الشعب المصرى .. بيفن بيفن .. يسقط بيفن .. وطلع آخر مستقل .. بدأ حديثة بطلقة رصاص فى الهواء .. فتأججت النفوس السلاح .. السلاح .. نريد السلاح .. ثم عاد الى قريته .. يحب أشجار البرتقال واليوسفى والمانجو ، يحتضن أشجار الكازورين والكافور ، يقبل رمالها .. يهمس لنفسه : هذه قطعة منى ، يستحيل ان أفرط فيها .. من يومها لم يعتل منبرا .. اتجه الى عالمه الخاص ، تماثيله ، ربما يجد فيها السلوى والعزاء .. يحقق زعامته الذاتية .

* * *

وبعد عشرين عاما يسقط تمثال القوة ، لا يستطيع صلب كيانه الا أمامه ، اذا زاره زائر ، ينحنى مهزوما ، خجلا ، يبكى على الذكريات .. يتحسر على الماضى ، لم يبق منه سوى عينين حادتين تجيلان النظر ، بحثا عن الخلاص ! يزأر فى الفضاء ، فلا يجيبه سوى الصدى .. ان ضاعت الأكف والأذرع والآذان .. تضرب وتسمع وترى .. الى النهاية .. هى الضحية

والفداء .. الضاربة والمضروبة .. القاتلة والمقتولة .. اخرج من قوقعتك يا ...

* * *

بالأمس كان وزوجته يستعيدان الأيام ، يرتبان أمر حياتهما، يبتسمان ، يقرآن اعلانا فى احدى الجرائد .. فقد كلب أصيل من نوع « الراكشون » لونه رمادى داكن ، طويل الجسم ، قصير الساقين ، اسمه « كلايد » من يعثر عليه ، له مكافأة مجزية .. يتصل بتليفون ... أو بفيلا ايناس بالمعادى ! ..

كانت لطيفة ، على جسدها روب جديد ، وعند مفرق شعرها وردة بيضاء ، كبرت منى ، قلت المشاحنات ، ازدادت الصداقة .. الولد الصغير يتدحرج بين ساقيهما ، يضحك كالكبار ، يقلد صوت الكلب .. هو .. هو .. يفرد له أصابعه ليلعب معه .. آدى البيضة .. وآدى اللى شواها .. وآدى اللى قال .. حت حتيت .. لقول لستيت .. يضحك قبل أن يكملها له ، يمشى على كفيه وركبتيه كالجمل ، يركب فوق ظهره فرحا .. ليلة طيبة يحب أن يتوجها باللحظة الحلوة ...

ـ يهمس لها :

ـ منى ..

ـ نعم ..

راسها على صدره . يقبل شعرتها البيضاء . يسرى الدفء فى جسديهما .

ـ أنت نمت ؟ ..

ـ لا .. أبدا ..

يتململ الصغير يريد الثدى . تقوم لترضعه ثم تعود .

غريبة ! ما هذا الحياد السخيف ! لفحت البرودة الفراش . ما فائدة الرجال ؟ ! .

هزموا فى الحرب ، كل شيء لا طعم له ؛ ولا لون ولا رائحة .. الشعر عبث .. النحت عبث .. الجنس عبث ! .. أرض سيناء ملوثة .. الغرب يئن ويتوجع .. المرتفعات محصنة .. وأرض فلسطين تنتظر ، تتحدى ، تشرئب ، بالرصاص ، بالخنادق ، باللهب ! تعانى المخاض الأليم ! ..

* * *

اقترب من تمثاله :

ـ زعلان ؟ ! ..

ـ لا .. أبدا ..

ـ ضرورى تتعدل ..

ـ ضرورى طبعا ..

ـ خذلتنى يا شيخ ! ..

ـ صنعتنى بيديك ..

ـ كان المطلق يسيطر على ! ..

ـ وما ذنبى أنا ؟ ! ..

ـ والآمال تعذبنى ..

ـ الذنب ذنبك ..

ـ آسف لما حدث ..

ـ لست مسئولا عن شيء ..

ـ بل مسئول ..

لمس الحجر الأملس . كادت الدموع تطفر من عينيه . احتضنه . قبل رأس تمثاله معتذرا عما بدر منه فى الماضى ، همس اليه :

ـ لم أقصد اهانتك .. تجاذبتنى الأهواء ، طوحت بى ، كادت تقتلع جذورى . العتاب لا يجدى ، عينى وعينك على نفس الاتجاه . ليس المهم أن ينظر أحدنا فى عين الآخر كى يحبه .. بل أن ننظر معا فى نفس الاتجاه .. قالها سانت اكسبوبرى .. وأيضا قال : ان ميزة الانسان هى أنه يحمل فى أعماقه شيئا أثمن من ذاته .. وجيفارا : على الانسان أن يكون مستعدا دائما لمكافحة الظلم فى أى مكان فى العالم .. هو الوحيد الذى تخلى عن السلطة فى سبيل المبادىء .. لا فائدة من التعديد .. ما فات مات .. ولكن :

ـ اظنك توافقنى ؟ ..

ـ يعنى ! ..

ـ كن صريحا ..

ـ لا باس ! ..

ـ يا تمثالى العزيز ..

ـ أمرك يا مولاى ..

ـ اخلص النية ..

ـ سوف أحاول ..

ـ مد الى ذراعك ..

ـ الصعوبات فى وجهى ..

ـ يمكن أن نتغلب عليها ..

ـ واذا فشلت ؟ ! ..

ـ نحن معك .. ملايين الأكف والأذرع.. العيون والآذان..

ـ ثم تكبرون على كتفى .. اليس كذلك ؟ ! ..

ـ نعم .. ولكن هل نسيت ؟ ! ..

ـ لم انس شيئا ..

ـ تعبنا وشقاؤنا ! ..

ـ قلقكم ووساوسكم وظنونكم ..

ـ قلة نومنا واشجاننا ..

ـ فرحكم وشرودكم ..

ـ جوعنا وعطشنا ..

هتف بذكاء :

ـ كل ذلك يهون فى سبيل لحظة الخلق .. فلا تمنوا على كثيرا ..

وتراجع مذعورا . لا ذنب عليه اذن ، الذنب ذنبه . ليتحمل وحده عذابه وقلقه ، ضيقه وحزنه ، ومن جديد :

ـ ما رأيـك ؟ ! ..

ـ رأيي رأيك ..

ـ خاب ظني ..

ـ ابدأ من جديد ..

ـ ألا يغضبك ذلك ؟ ! ..

ـ مصلحتك فوق كل شيء ..

ـ ليس بهذه السهولة ..

ـ كن بسيطا ..

ـ اخاف المجهول ..

ـ لا تتفلسف كثيرا ..

ـ هزمت مرة ..

ـ ليس بعد هزيمتي من هزيمة ! ..

ـ آسف لما حدث ..

ـ ألم تستوعب كلمات عمتك النخلة ؟ ! ..

ـ ......

ـ لا وقت للعواطف المتضخمة ..

ـ رمز جامد أشك فيه بعض الأحيان ..

ـ بل هو الأصل .. المنبع والمصب ..

ـ خرساء لا تنطق ! ..

ـ شبعنا كلاما .. تصمت ثم تثمر .. أما أنتم ! ..

ـ تصفعنى كلماتك ..

ـ تصفع نفسك بنفسك ..

ـ لا تقس على هكذا ...

ـ لقد قسوت على كثيرا ..

* * *

وجه الحسناء يطل عليه ، يهمس له ، نحن نريد لكل البشر أن يتمتعوا ، أن يعيشوا الحياة ، مع الفن ، فلا تضيع لحظاتك الحلوة .. نفرح عندما يضحك الأطفال ويلعبون .. نسعد عندما يذهبون الى الشاطىء .. غايتنــا أن ترى العيون أجمل ما فى الكون ، أن تجوب الأقدام كل شبر فى الأرض ، بحثا عن شاطىء للأمان .. ألا تضيع لحظة سعادة واحدة على مخلوق .. دمنــا فداء لسعادتكم .. حسبنا أن تبتعدوا عن الدعاية السخيفة ، ولا تبتذلوا نفوسكم .. و .. و ..

وينتهز الفرصة :

ـ وعينا التمثال ؟ ! ..

يخفق الصــدى :

لا تهتم .. عش شجاعا .. أو مت شهيدا ..

فنجان قهوة

فى هذا الصباح وجدته أمامى وجها لوجه . لم أستطع أن أجيبه من بعيد . ابتسم كل واحد منا ، عشر سنوات ونحن نلقى السلام من بعيد . لا اعرف عنه شيئا . اليوم أرى كفه لأول مرة . كفه بضة تشوبها الحمرة . أقرب الى كف الأنثى المترهلة . ربما من باب تعاطف الجار مع جاره ، ثم عدت وشككت فى الأمر كله . فما من جار من جيراننا الا وله مع الأستاذ عنتر قصة طريفة ، فهل حل على الدور ؟ حكاية يرويها احد الأصدقاء ، فقد عزمه الأستاذ عنتر على اكلة سمك . وعند الغداء .. وضع أمامه سمكة عجفاء صغيرة .. لكنه احتفظ لنفسه بالسمك الكبير البلطى .. فلما اغتاظ الصديق سأله فى مرح :

ـ هل هذه اصول .. تعزمنى .. ثم تحرمنى .. تضع امامى هذه السمكة الصغيرة .. وتستولى انت على البلطى الكبير المقلى والصيدية ؟ ! ..

قال له الأستاذ عنتر وهو يلتهم قطعة السمك :

ـ لا ابدا .. أصـل اللى قدامى ده سمك أخضر .. تحب تاكل منه ؟ !

قال الصديق :

ـ أخضر .. أخضر يعنى ايه .. آكل طبعـا .. هـات السمك قدامى بس .. ماله السمك الأخضر ؟ ! ..

وحكاية يرويها صديق آخر ، يقول : دخلت عليه وهو يأكل موزا ومشمشا . كان أمامه موزة واحدة مقشرة واربع مشمشات. قسم الموزة الى قسمين . أعطـانى النصف وهو فخور . قال وهو لا يبدى أى اسف ، عندى فى الثلاجة خمس موزات ، آكل فى كل يوم واحدة . لا أحب أن أغير من عادتى أبدا ، سامحنى .

فى هذا الصباح قال فجأة .. وانا صامت اترقب حديثه :

ـ اتفضل يا استاذ نشرب فنجان قهوة سوا .. تعـال يا أخى داحنا جيران من زمان .

لم أمانع . كان الصباح شتويا ، تملأ شمسه السماء . ولا بأس من التسلية والكسل . ولأرى وأسمع وافكر ، وهـذه مهنتى . دخلت حجرة الاستقبال . الأرضية مصنوعة من الباركيه اللامع والستائر الوردية على النوافذ . وأربعة مقاعد مذهبـة من طراز لويس الرابع عشر . وسجادة عجمى فاخرة . دخل ثم عاد وفى يده « عـدة » القهوة .. بابور السبرتو .. والكنـكة الصغيرة جدا .. وقالب من السكر .. وجرعة ماء .

وتأهب كأستاذ فى القانون الدولى يريد ان يلقى محاضرته على طلبته ، امسك برطمان البن بين أصابعه :

ـ دا بن مفيش منه .. أنا اللى طاحنه بايدى ، أصل القهوة دى أمزجة .. آه .. كنا نتراهن زمان على عمل القهوة .. واكسب أنا الرهان .. فى مرة كسبت جنيه من أحد الأصدقاء . المسألة مسألة فن وذوق .. تمام زى الطبيخ ، ثم سألنى فجأة :

ـ بتعرف تطبخ يا أستاذ ؟ ! .

لم اجبه اجابة قاطعة ، لكنى أومأت :

ـ يعنى ! ..

قال الأستاذ عنتر :

ـ يعنى ازاى .. الواحد لازم يتعلم كل حاجة .. المكرونة بالبشامل دى ما تخدش منى حاجة ، دقائق وحياتك وتاكل صوابعك وراها .. تتغدى معايا النهارده ؟ ! ..

شكرته وأنا أتأهب للقيام .

امسك بيدى بشدة ..

ـ تقوم فين يا راجل .. يعنى انت وراك ايه .. ادحنا قاعدين الحمد لله المعاش بيكفينا واكثر شوية .. لا نريد سوى الستر .. أنا فلاح .. أحب الفلاحين .. يبدو انك فلاح أيضا أليس كذلك ؟ .

قلت :

ـ نعم انا من أصل ريفى .

قال الأستاذ عنتر :

ـ الفلاحون ناس طيبون .. عشريون .. خليك قاعـد يا شـيخ .

وارتشف رشفة من فنجان قهوته ، ثم قال :

ـ ايه رأيك ؟

قـلت :

ـ حلوة كتر خيرك ...

قـال :

ـ لا .. انا مش عاوزك تجاملنى .. قوللى بجد .. البن عاجبـك ؟

أضفت :

ـ والنبى حلو قوى ..

وضع فنجان القهوة على المنضدة أمامه . ثم نظر الى ، ربما ليختبر صلابتى .

ـ انت نظامك فى البيت ايه ؟

تعجبت للسؤال المفاجىء . فماذا أقول له . ومن اية ناحية يسـأل . ما الذى يريده منى الأسـتاذ عنتر ؟ سكت ربما مر السؤال لكنه أعاده على هذه المرة بصوت قوى واضح :

ـ با أقول نظامك ايه فى البيت ؟

قـلت :

ـ الحمد لله .. كله تمام .

قــال :

ـ لا .. يعنى بتاكل ازاى وتشرب ايه .. وتصحى امتى.. وتنام امتى .. كلمنى عن نفسك شويه ..

قلت ساخرا لأول مرة :

ـ أنام فى العاشرة .. وأستيقظ فى السابعة .. وهـذا هو كل شىء .

ـ ومتى تفطر ..

ـ فى الثامنة تقريبا

ـ وممَ يتكون فطورك العادى ؟ ! ..

أضفت بتثاقل وضيق :

ـ قطعة من الزبدة وملعقة عسل نحل .. ونصف رغيف.. وقليل جدا من الشاى ! ..

هتف وهو يصفق :

ـ ألم تجرب اللحمة فى الفطور ؟ ! ..

همست بضعف :

ـ لا والله ...

ضرب المنضدة بيده قائلا :

ـ لا ازاى .. جربها مرة .. مرة واحدة بس .. صحتك حتكون زى الحصان .

ثم أضاف وبمناسبة اللحم أحب أن أسألك :

ـ من أى جزار تشترى لحمتك ؟

قـلت :

ـ الجزارين كتير .

قـال :

ـ لا ... كتير يعنى ايه ؟

واعتدل فى جلسته ، ثم أضاف :

ـ تعرف ان الجزارين دول أكثر ناس يستقطعوا .. لكن على مين ياعم .. طب دانا مرة اشتريت حتة لحمة ضانى حلوة.. وفضل باقى عند الجزار قرش صاغ .. خدته منه .. وأعطيته بقشيشه .. تعريفه .. كفايه عليه تعريفـه .. يقولون أن القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود .. وأنا أقول ان المليم الأحمر ينفع فى اليوم الزفت ..

لم اعلق بشىء . نظرت اليه . كان يجلس أمامى وشىء مغيظ حانق يتلوى داخله ، لا اعرف سره .

تأملت قامته القصيرة ، فابتسمت . نظر الى بتحد غير متوقـع :

ـ هل هناك شىء يدعو للابتسام يا استاذ ؟

قـلت :

ـ أبدا .. افتكرت حاجة تضحك ...

تململ الأستاذ عنتر فى جلسته متأهبا للحديث :

ـ تسمع على الست منيرة المهدية يا أستاذ ؟

قلت :

ـ طبعا ، كانت ملكة غير متوجة ..

انبسطت أساريره الوردية ، ثم بدأ يحكى :

ـ تصدق انها كانت عاوزه تتجوزنى .. اى والله .. كانت بتحبنى جدا .. كانت غاوية شبان .. وأنا صغير كأن وجهى زى القمر فى ليلة اربعتاشر .. فتى الغلاف فى المجلات .. عملت ملحنا ، وكانوا يرسمون صورتى على باب المرسح .. ويكتبون تحتها .. الليلة تسهرون مع ألحان بيتهوفن الشرق .. لقد اضطهدونى لأنى فلاح أصيل لا اقبل الضيم . وقفت ضدهم جميعا .. حقدوا على .. من يستطيع أن يقول كلمة الحق يا أستاذ فى هذه الأيام .. كلهم عيال على الفن .. تاكل موز ..
تذكرت حكاية الصديق ، فقلت بسرعة :

ـ شكرا .. شكرا .. استأذنك لأن لدى بعض الأعمال التى أريد انجازها ..

امسك بيدى هذه المرة باستماتة ووحشية :

ـ لا يمكن .. لا تحاول .. اقعد يا استاذ .. الآن هم يتحدثون عن الدراما .. قطعا لا يفهمون شيئا عن الكلام الذى يرددونه ليل نهار .. كنت أريد أن يعرفوا شيئا عن شبابى .. لقد انشأت فرقة مسرحية . كانت مدرسة تخرج وتعلم فيها كل هؤلاء العباقرة الذين يتشدقون اليوم بالدراما .. اننى الآن اقعد فى بيتى وحيدا .. لا ولد ولا بنت .. لكن تاريخى يشهد لى .. من هؤلاء الأوباش حتى يتحدثوا عن تاريخ المرسح والسينما

والفن والأدب والثقافة ؟ بعضهم كتب مذكراته ، والآخرون يثرثرون ، لكنى سوف أكتب الحقيقة كاملة فى الخمسين سنة الأخيرة . من طقطق للسلام عليكو . سوف أفضح الجميع ، أضعهم على مشرحتى الخاصة . كذب ونفاق وغش وتدليس .. هذا بعض تاريخ المرسح المصرى . اما الحقيقة والأصالة ، ففى عقلى وحدى .. أنا صاحب التجربة الخطيرة .. لكن الناس ينسون أو يتناسون .. انه سوق مكتظة .. تضيع فيها أقدار الرجال .. اجبلك موز يا أستاذ .. اعملك قهوة تانى ، اعمل شاى ؟

ـ شكرا .. شكرا ، كتر خيرك . اريد ان أقوم ..

وبدأت أفكر فى لهجة الأستاذ عنتر ، صوته وحياته . لا أرى اثرا للأولاد ولا للزوجة . تجرأت وسألته :

ـ الأستاذ متزوج ؟ ! ..

قال :

ـ لا والله .. دى مسئولية مقدرش عليها .. ياعم الواحد يعيش حر نفسه أحسن .. انا النهارده لا ولد ولا بنت ..

همست :

ـ لكن الأولاد زينة الحياة الدنيا ..

قال :

ـ يعنى .. الحمد لله على كده ..

قلت :

ـ يعنى انت مبسوط ؟ ! ..

قــال :

ــ لا مبسوط ولا زعلان ...

ثم هتف كمن تذكر فكرة ضائعة :

ــ فى الحــق انى ســعيدا جدا .. أعيش فى بســطة من الرزق .. لدى عربة صغيرة على قدى .. وهــذه الفيلا .. وقطعــة أرض فى البــلد .. ثم عمــارتى المطــلة على البحر فى الاسكندرية .. تدر على دخــلا لا بأس به .. ومعــاش يكفينى ويفيض .. ثم ان لى بعض المشروعات التى تدر دخلا أعتز به ..

وصمت لحظة ، ثم قال :

ــ هل جربت تربية الخراف يا أستاذ ؟

ضحكت وانا أقول :

ــ لا والله ...

قــال :

ــ دى تجارة رابحة .. كل عام تدر على المئات .. على العموم .. لا أريد أن أتعبك معى .

وتطلع الى مستدركا ، وكأنه يقرر أمرا لابد أن أعرفــه جيــدا :

ــ لكنى فى الحــق لا اقرض ولا أقترض .. وهــذا هو مبدئى الذى أسير عليه منذ الطفولة .. ناس كثيرون يطمعون فى يا أستاذ .. يحسدوننى على النعمة .. يعتقدون انى أهبل .. بريــاله .

ورفع يده فى عصبية ليقول :

ـ أنا حازم جدا فى هذه المسألة ...

ثم خفض من صوته :

ـ أجبلك موز .. أعملك قهوة تانى .. والا اعمل شاى ؟ ! ..

كاد رأسي ينفجر من الغيظ . ما الذى أوقعنى فى يد الأستاذ عنتر ؟ لقد ظللت عشر سنوات ألقى عليه التحية من بعيد ، وكأن الزمن يخدمنى . يكفينى شر المتاعب .

فى هذه اللحظات يقبض على .. كأنه لم يتكلم فى حياته أبدا .. يتشدق بالكلمات .. يملأ فمه بها كما يملأ الجوعان فمه بقطع اللحم الطازجة الشهية .. يستغل طيبتى وانسانيتى ، ويدعى أنه فلاح وابن أصول .. والناس يحسدونه . وكنت قد قررت القيام لآخر مرة .. وقفزت الى الباب دفعة واحدة .. لكنى فوجئت بأنه مغلق .. فكرت .. هل حبسنى الأستاذ عنتر ؟ عدت الى مقعدى منكسر الجناح خجلا .. قلت :

ـ انت قافل الباب ؟

قال عنتر :

ـ يا سيدى .. أصل اللصوص طيروا النوم من عينى .. مرة أخدوا النياشين التى حصلت عليها من التمثيل .. ومرة استولوا على طبنجتى التى أدافع بها عن نفسى .. ومرة استولوا على ملابسى كلها .. وهكذا .. فى أية لحظة ليس هناك أمان على أى شىء .. الفيلا كما ترى من دور واحد .. وهى فى مفترق الطرق .. وعلى الشارع مباشرة .

قلت فى سرى : نياشين .. اية نياشين التى يتحدث عنها.. هل كان ممثلا حقيقيا ؟ انى لم أره يمثل ولو مرة واحـدة . والست منيرة المهدية ، هل كانت تحبه حقيقة . حيرنى الأستاذ عنتر ، قلت محنقا :

ـ ارجو أن تفتح لى الباب حتى اخرج .. ارجوك .

نظر الى وهو يبتسم فى سعادة :

ـ حاضر .. بس كده .. اتفضل ..

قمنا ، ثم وقفنا معا فى صالة البيت . وضع كفه البضة على كتفى . بدأ يروى لى ذكرياته عن تكوين النقابات المهنية . كيف انه المؤسس الأول لهذه النقابات . كيف دخل فى معركة حاميـة الوطيس مع سيدة الطرب العربى والموسيقار المشهور ، وجوقة المعروفين كلهم . نظرت الى الأرض مستسلما حتى أفلت من قبضته ، فوجدته يسحبنى مرة أخرى الى حجرة الاستقبال ، يعطينى سيجارة لأول مرة ، وكان قد دخن ما يقرب من العشرين سيجارة دون أن يقدم لى واحدة .

فى هذه اللحظة وددت لو انشقت الأرض لتبتلعنى ، وانتهى من حياتى . قد بدأ الصداع يضرب مؤخرة رأسى ، وقلبى يدق فى صدرى بعنف ، وأذنى توش ، وشىء كالطاحونة يلفنى . انه المرض الذى يصيب الانسان من الثرثرة الغليظة .

نظرت من النافذة . قلت أقفز منها لأهرب . لكن يبدو أنه تنبه الى هـذا الخاطر ، فقام وقعد بجوارها ، يحرسها فى صمت ماكر ، وأغلق بعنف الشيش ، ثم قال :

ـ أعملك شـــاى .. اعرف طريقـة جديدة تغيب عن الجميع .. تعطيه طعما خاصا ..

قلت من باب الفضول واليأس :

ـ بتعمله ازاى ؟ ! ..

شمر عن ساعديه فى حركة تمثيلية ، ثم قال :

ـ شوف يا سـيدى .. تكيل الميـه الأول .. وبعدين تسيبها تغلى .. تحط نصف ملعقة شاى صغيرة عليهـا .. تقفل البراد .. وتحط عليه حتة قماشة .. حتى يحتفظ بسخونته .. تسيبه خمس دقائق أو عشرة .. وبعدين تصب .. يطلع شـاى رائع .. تحب أعملك شاى ؟ ! ..

قـلت :

ـ يعنى ..

قـال :

ـ انا تحت أمرك .. بس ما عنديش شاى .. خلص من امبارح .. أصل انا أستهلك شاى وسكر كتير جدا ..

شهقت بغيظ :

ـ هيه .. دنيا ..

أمسك الخيط ببرود وحيادية قائلة :

ـ صحيح دنيا .. اين أيام التلحين الأولى .. هل تعلم انى قمت بالدور الأول فى أوبريت كليوباترا لأمير الشعراء المرحوم أحمد شوقى بك .. أين أيام العز والعظمة ؟ ! ..

وبدأ احساس بالقضاء والقدر يتسلل الى داخلى . استسلمت من جديد . الغيت فكرة القفز من النافذة من راسى. مددت قدمى لأسترخى .. فتطلع الى مسرورا . وسحب سيجارة بدأ يدخنها ، قال :

ـ ما رايك فى صينية بطاطس باللحمة ؟ ! ..

قلت :

ـ حلوة قوى ..

قال :

ـ نسيت أن أقول لك اننى متخصص فى عمل التورتات .. فى الثلاثينات زارت مصر فرقة « ك » الانجليزية . وانتدبونى لصاحبتها .

وعند سفرها ، صنعت لها تورتة كبيرة جدا ، كتبت عليها باللغة الانجليزية : « جود باى » وبعد الأكل .. سألوا عن المحل الذى اشتريت منه هذه التورتة .. قلت لهم : أنا الذى صنعتها بيدى .. قالوا : مش معقول .. قلت : أمر الله أنا اللى عاملها .. هتفوا فى نفس واحد : جود .. فرى جود .. اكسلنت . أمال ضرورى الواحد يتعلم كل حاجة .. من عمل التورتة .. الى الباذنجان أبو خل .

ثم هتف فرحا :

ـ نرجع لصينية البطاطس باللحمة .. ايه رأيك لو عملنا غدوة النهاردة سوا .. اشتركنا يعنى فى غدوة لطيفة .. عندى البطاطس .. وسيادتك تطلع تجيب اللحمة .. على حسابك

طبعا .. اصل أنا محدد جدا فى هذه المسألة .. صريح وواضح.. طبعى انجليزى ..

هتفت وأنا فى منتهى السعادة :

ـ موافق جدا ...

فالمهم أن افلت من هذا السجن .

قـال :

ـ طب وحتجيب اللحمة منين ؟ ! ..

قـلت :

ـ من جنبنا اهـه ...

قـال :

ـ ونوعها ايه ؟

قـلت :

ـ ضانى معتبر .. تاكل صوابعك وراها ..

قـال :

ـ طب استنى عشان تقشر البطاطس معاى قبل ما تطلع .. آه والنبى وتجيب معاك الطماطم والبصل والسمن .. آه أصل أنا محدد جدا فى هـذه المسألة .. أحب كل واحد يتحمـل مسئوليته ..

قـلت :

ـ حاضر .. قشر انت البطاطس ، أكون أنا جبت اللحمـة بسرعـة !

قـال :

ـ زى بعضه يا سيدى ، يعنى جيت فى جمل .

ثم قام واضعا يده على كتفى فخورا ممتنا لضيافته لى . كنت حذرا للغاية حتى لا يرجع فى كلامه . تثاقلت وكأنى لا أريد مغادرة البيت حتى يطمئن . وودعنى على البـاب بابتسامتـه الشهيرة . وبمجرد ان وضعت قدمى على أرض الشارع هرولت الى بيتى والبول ينحصر فى داخلى .

وعندما وصلت قابلنى أولادى مندهشين :

ـ مالك يا بابا ؟ ! ..

ارتميت على السرير منهارا :

ـ لا شيء ...

قـالوا :

ـ لا شيء ازاى .. وانت وشك اصفر قوى .. انت كنت فـين ؟ !

قـلت :

ـ لا ابدا .. مفيش حاجة أبدا يا اولاد ..

غير انى بصقت بملء فمى ، ثم استغرقت فى نوم عميـق ..

رحلة ...

فى البداية كانت النشوة تتدفق بكيانى . الفرح يهزنى . الدهشة تغمر نفسى . الانبهار يلفنى . أصبحت كدودة القز وسط شرنقتها الجميلة ، تغزلها ثم تموت . كنت أسبح فى بحر الرحلة الخصيب . بمجرد أن وطأت قدماى تلك الأرض ، بدأت رءوس الثيران المذبوحة تستقبلنى .. هؤلاء قوم كرماء . زحف الراقصون والراقصات من كل حدب . كانوا يدقون الأرض بأقدامهم الصلبة ؛ الشخاليل فى سواعدهم وسيقانهم ، والخرز عند مفرق شعورهم وجبينهم ، ريش النعام فوق رءوسهم ، الابتسامات على وجوههم ، ماء الحياة المتدفق يجرى فى حباب عيونهم . تحلقوا حولى فرحين . دق قلبى فى صدرى .. أنا عاجز مشلول أمام صيحاتهم المدوية الى السماء . العازف ينفخ فى قرن الثور ترحيبا ومودة .. يزداد لهيب الفن فى نفسه . فيدور دورتين .. ثم يسقط على الأرض وما زال قرن الثور فى يديه .. يستميت به كابنه الوحيد .. تأخذه النشوة العارمة ،

فينفرط عقد جسده مع ذرات التراب . يلتحم بالأرض يستقطر
فرحها قطرة قطرة . شهقت فى سرى . عجيبة .. فازداد العزف
شدة وتوقيعا . وازدادت أوداجه تورما .. فبانت حبات العرق
على جبينه الأسمر العريض .. فنان عجوز ، يدخل السرور الى
قلوب الناس منذ عشرات السنين . ابتلعت كلمات على لسانى ..
لا فائدة منها . يستحب أن أرتشف من هـذا التيه على مهل ،
أحصل على متعتى فى راحة .. اعترانى نوع من الزهو والفخار..
تجوس قدماى هذه الأرض لأول مرة .. رحالة حديث يؤمن بالعلم
والحياة . امرأة نصف عاريـة تعتلى جـذع احدى الأشـجار
الجرداء .. ثدياها ضامران صغيران ، لا تفهم شيئا مما يجرى
حولها .. قردة شبه عارية .. تتلفت فى خـوف وتوجس ..
وتحت نفس الشجرة باقة من النسـاء الجميـلات المبتسمات
الوسيمات المكتحلات . منذ فترة طويلة وهوايتى المفضلة جمع
الصور التذكارية . حجرتى تغص بالعشرات منهـا .. صـور
حيوانات وطيور وبشر من كل الألوان والأجناس . صور لطفولتى
ثم لصباى ثم لشبابى . وفى هـذه الرحلة لم أكف عن التصوير .
التقطت عدة صـور للمرأة فوق الشجرة والنساء تحتها . كنت
معجبا بنفسى دون ضوضاء ، متواضعا بفخر واعتزاز . هتف
الانسان الفضولى فى داخلى :

ـ أرايت الى هذا التيه ؟ ! ..

قلت باقتضاب :

ـ جميـل ..

ـ هلل على غير عادته :

ـ أنت تتجاهل هـذا الفيلم السينمائى الخطير ..

ومن بعيد سمعت هتافات مدوية .. المـاء .. المـاء .. نريد المـاء !

وقال الفضولي :

ــ هذه مناطق العطش الواسعة .. تستطيع أن تستغلها أطيب استغلال .

لم أعرف ما أقوله . انكسرت عينـاى الى الأرض . فجأة أحسست بالعطش . جف ريقى فى حلقى . تطلعت الى وجـه طفل ضامر بجوارى استعطفه :

ــ أريد أن أشر يا ولدى ..

قال الطفل بخجل :

ــ ما عندنا مويه « ماء » ياعم ..

ــ اذن من أين تشربون ؟ ! ..

ابتسم الطفل هامسا :

ــ لا نشرب كثيرا .. كل يومين أو ثلاثة ..

ــ وبهائمكم يا ولدى ؟ ! ..

ــ تظل ظمأى أسبوعين أو ثلاثة ! ..

كان الطفل الأسمر ، الواسع العينين ، العريض الجبهـة ، المبتسم الوجه يرمقنى بحياء . لا يريد أن يثقل على . تتسـم اجاباته بالايجاز ، لكن فضولى لم يصمت :

ــ ماذا تعمل يا ولدى ؟ !

ـ راعى غنم ..

ـ وما راتبك فى اليوم ؟ ! ..

ـ لا آخذ راتبى باليوم ! ..

ـ طيب فى الشهر ؟ ! ..

ـ ولا فى الشهر !

ـ اذن فى السنة ؟

ـ فى السنة يعطينى صاحب الغنم خروفا .

وارتكز الصبى الحلو التقاطيع على حربته معتدا بنفسه .. قدماه ثابتتان فى الأرض ، وعيناه على غنماته فى المرعى . التقطت له صورة جميلة . أعشاب السفانا الهائشة تغطى الأرض أمامى . الجفاف يسود كل شىء . هذه المساحات تصبح جنة فى الخريف . تهطل السيول فيخضر كل شىء . يشرب الناس والزرع والطير والحيوان . وقفت أمام احدى الأشجار الضخمة كأمنا حواء دبت على جذعها الهائل آلاف الشقوق والأفرع والنتوء تخضب لحمها على مر الزمن . التقطت لها صورة . النسوة يقفن بصفائحهن ينتظرن الماء . هذه الشجرة تعد مخزنا كبيرا للماء على مدار السنة . مددت بصرى الى داخل الجذع الضخم . كانت هناك بركة صغيرة من المياه الراكدة . حملت بعض الماء بكفى . كان طعمها مرا كالعلقم . قلت فى سرى .. أهذا هو الماء الذى ينتظره الناس ؟ ولكنى شربت . هنا يشم الانسان رائحة الماء ، أشعر بمذاقه العطن . كنت سعيدا لأنى التقطت صورة لهذا المنظر الفريد . لم يعد لدى وقت للتأمل . أجمل شىء أن أحتفظ بالصور التذكارية . انا مزهو بالرحلة . لا أعيش اللحظة مرتين . أعيش كل لحظة باحساس جديد .

ما أحلى السفر والترحال ! الخراف والماعز أيضا كانت تتجمع عند شجرة القلقيز الساحرة . أملها أن تحصل على قطرات من الماء ، تعرف بسليقتها مكانه ، تناغى كالأطفال عند ما يقدم لها . تستحلب ريقها بعد جرعاته . صخرة كبيرة ملساء يقف على قمتها ماعز لطيف . ينتظر هو الآخر جرعات الماء . كل المخلوقات هنا عطشى .. الرجال والنساء والأطفال والخراف والطيور أشجار التبلدى يتحلقها الناس ، يقولون ان ثمارها تشفى الأمراض وتقوى الحب . طابور طويل يقف ليأخذ كل انسان دوره .. مرضى العيون ، مرضى البطون ، مرضى الصدور. مازال همى الوحيد أن التقط الصور التذكارية . قلت للصبى الحلو التقاطيع :

ـ اشرب .. الماء أمامك ؟ ! ..

قال :

ـ لا ..

ـ ألم تكن عطشان ؟ ! ..

ـ نعم ..

ـ لماذا لا تشرب ؟ ! ..

ابتسم ..

ـ لأن معدتى مفطومة منذ لحظة ميلادى ! ..

ـ كيف ؟ ! ..

ـ عندما تلدنا أمهاتنا لا يقطرن لنا الماء فى أفواهنا فور ولادتنا .. علينا أن نصمد ساعات .. حتي نتعود علي العطش!..

قلت بدهشة :

ـ عجيبة ...

قال الصبى :

ـ لا عجيبة ولا حاجة .. وعندما نكبر يربطوننا فى أماكننا حتى لا نجرى فنعطش ! ..

أقعدته فوق مكان مرتفع . التقطت له صورة ، ثم أنزلته ، التقط له أخرى وهو يركب خروفا ، ثم وهو يمسك حربته ، ثم وهو يهش على غنمه . كان طفلا عذبا لا أحب أن أتركه .

وفى المساء شاهدت لعبة الصراع . اللاعبون يدهنون أجسادهم بالجير الأبيض ، يصدرون صيحاتهم التقليدية .. هى .. هى .. شهور وهم محجوزون فى أماكنهم .. يشربون اللبن الحليب ولا يختلطون بالنساء . وعملت كاميرتى كما لم تعمل فى حياتى . كل لاعب على حدة فى البداية ، ثم وهو فى قمة المصارعة . عضلاتهم .. ووجوههم .. وأقدامهم وسيقانهم وأذرعهم .. كل شىء يغرى بالتصوير . الخرز فى رءوسهم وريش النعام فى شعورهم . وبلغت قمة النشوة فى لحظة الانتصار . كان البطل يلهث ، يتصبب العرق منه بغزارة ، تحوطته النساء معجبات مزهوات فخورات ، كل منهن تريد أن تستحوذ عليه . وعن قرب التقطت لحظة الفرح الغامر وزغاريد النساء وصياحهن ، ثم بدأت « الحكامة » (١) تغنى .. وبدأ الظلام يحل فى تلك

---

(١) الحكامة : مغنية القبيلة فى غرب السودان أشبه ما تكون بشاعر القبيلة العربية القديمة يخافها الناس ، فلسانها سليط ، اذا ذمت أحدا فعليه أن يترك البلدة ، ترتجل الشعر ارتجالا حسب الموقف الذى تقف فيه .

الأرض ، أريد أن أعود . سادت لحظـة صمت كئيبة . شعرت بالغربة . اسرعت الخطـا مهرولا فى الصحراء . الظلام يكتنف كل شيء وصوت الرياح يصفع وجهى ، الشـوك يدمى قدمى ، كمية الفرح تطير من صدرى . عيناى تطفران بالدموع الجامدة المتحجرة ، الانبهار ينكسر فى أعطـافى . كفت نغمـات الفنـان العجوز فى اذنى . بهتت رقصات الراقصين والراقصات فى عينى. لفنى ظمـأ شـديد كئيب .. زحف الى أناملى ، فبدأت ترتعش دماء رءوس الثيران المذبوحة تملؤنى رعبا . لم يبق لى سـوى الصور التذكارية على صدرى ، وطيف الصبى الأسمر الصغير العطشـان .

القوقعة ...

فى النهاية استسلمت الى قوقعتى . لم يعد لدى شىء افعله . اروع شىء ان اتأمل ، قفلت النوافذ والأبواب وكل الكوى المضيئة التى تتسرب منها اشعة الشمس . ارتميت على ظهرى ، فتاه بصرى فى بحيرة الظلام . عجزت مع العدو القواد ، بالأمس استقبلنى بالأحضان والقبلات اللزجة .. واليوم لفحتنى نعومته النسائية .. فلم أستطع أن أقاوم . كانت كل خطوة محكمة . بعد الخلوة سوف افرغ لخدمة البيت ، ابدا فى تصليح أقفال الأبواب ، اخرج عدة النجار لأدق المسامير فى المقاعد المتكسرة ، امسك ماكينة الحلاقة لأسوى شعر ابنى الصغير ، وعند العصر احمل جردل الماء لأروى شجرة الليمون الصغيرة بالحديقة . صوته المسوف الكئيب فى اذنى .. غدا .. بعد غد .. بعد أسبوع بعد شهر .. ولا جديد سوى الفراغ والابتسامة الباهتة التى هزمتها السنون ، ثم اتعود الحقد على احد . فقط انا حزين لما اصابنى . فكرت طويلا دون جدوى . الآن أصبح فى الظلام

والسكون المميت . وجهه يشرف على .. يكاد يخنق عزلتى . هتفت بأعلى صوتى :

ـ اغرب عن وجهى ايها الأفاق ! ..

قال :

ـ بل انا ..

قلت :

ـ وليكن .. لا يهمنى ..

قال :

ـ هل تتحدى ؟ ! .

قلت :

ـ كفى .. كفى .. ارجوك ! ..

وبدأ فى استخدام أسلحته التقليدية . فرش ابتسامة على شفتيه . أومأ براسه الى الأرض . خفض من صوته الى درجة الهمس :

ـ هل تكرهنى ؟ ! ..

ـ لا ...

ـ اذن لماذا تهرب منى ؟ ! ..

ونفضت يدى من الظلام ، فاذا هى بيضاء للناظرين . كنت اريد ان اصفعه على وجهه .. لكنه افلت منى بنعومة :

ـ الى اللقاء ! ..

ـ بل الى الجحيم أيها المعذب ! ..

قمت اتحسس طريقى ، فسقطت على الأرض . دمعت عيناى لضعفى . لمست كفى الجدار . نهضت ألعن .. بئست بها من تمثيلية . لن أكون طرفا فيها .. يا مستبدى الصغير .. لك لطمة منى طال الزمن أو قصر . ورأيت بعينى الخيال طائرا أخضر يرفرف بجناحيه محلقا بجوارى . فتفاءلت خيرا . تسللت الى أذنى أصوات موسيقية عذبة لا أدرى مصدرها . هدا البركان فى داخلى بعد أن نثر بعض همومه الى الخارج . أشعلت عود بخور هندى ، فأضاء قوقعتى بصيص من الضوء . شممت رائحته العتيقة ، فتذكرت غاندى .. لم يكن يملك غير سرواله وبعض لبن ماعزته ! .. لكنه قتل برصاص طائش . هل انتظر طلقات الرصاص .. لا .. لا .. سوف اقاوم .. لا استطيع ان اقرأ فى الظلام .. الكتب تعطينى الشجاعة والكبرياء والصلابة .. بصيص عود البخور الهندى يلمع .. وجه غاندى يشرق معه محبة وضياء .. يستحلفنى أن أهدأ :

ـ يا ولدى العزيز ...

ـ نعم يا سيدى المعلم ...

ـ لا تتسرع ...

ـ لم أعد أتحمل ...

ـ ما زلت صغيرا .. لم تجرب كثيراً ...

ومسحت كفه لحيته السمراء النابتة العجوز . تطلع الى بعينيه البلوريتين النقيتين . دهشت من المفاجأة . احقا أننى فى

حضرة غاندى . لم أكن الا طفلا عندما سمعت نبأ موته ، ولكن صورته كانت واضحة فى عقلى وقلبى . انه يزورنى الآن ليواسينى ، لاشك ان له أصحابا كثيرين يفعل معهم نفس العمل ! .. يزداد بصيص عود البخور اشتعالا ، ثم يضمر ، يصبح رمادا ، فأشعل عودا آخر . ما أحلى لعبة أعواد البخور الهندية ، وعود وراء عود ، وعلى الجدار كان هناك سرب من النمل ، رائح غاد ، لا يمل من حمل طعامه . وقفت بأصبعى فى طريق واحدة ، فاذا بها تلف خلف أصبعى وفى فمها نتف الطعام ، فردت كفى أمام المجموعة السائرة ، فحدث اضطراب هائل تشتت فيه الطرق والدروب ، ولكن التجمع سرعان ما عاد الى مسيرته من جديد يشق دربا آخر .. تابعت عشرات الرءوس والأرجل الزاحفة فى مسيرة لا تعرف التعب . اين أنتم يا جيوش النمل البشرية لتقفوا فى وجه المستبدين الصغار .. انا لا أملك سوى الانتظار والألم ! .. أصابنى ذعر مفاجىء ، زحف النمل على جسدى .. أحسست دبيبه على ساعدى وعند صدرى ، ثم سرعان ما شمل جسدى كله .. هجوم منظم لا استطيع مقاومته .. لم أجد سوى الهرب .. اعتذرت لغاندى .. اطفأت آخر اعواد البخور الهندية .. فتحت باب حجرتى .. دخل الضوء غامرا يفرش كل شىء فيها . تأهبت لملاقاة عدوى ..

أين تذهب هذا المساء ؟ ..

عندما انطفأ النور فى غرفته . أضاءت الذكريات وجدانه . وهو صغير كان جلالة الملك يفتتح مسجد بلدته . ألبسوهم الملابس البيضاء .. السراويل والفانلات حتى الأحذية .. ثم انتظروا على شريط السكة الحديد فرحين .. سوف يلمحون طلعته .. انه يوم العيد .. يعيش جلالة الملك .. وبهدوء كان الديزل يتبختر أمامهم .. رأوا ذراعه ووجهه الأبيض البلورى .. ابتسم لهم .. صاح الأطفال مهللين .. لا يدرى كم يحب أن يسترجع هذه الصورة فى ذهنه .. وطافت بخياله الصور الأخرى الشفافة .. الاستحمام فى ترعة القرية .. صيد السمك .. صحبته لأبيه الى سوق السبت .. اللعب فوق قش الأرز .. أو على أكياس القطن . أكل الباذنجان الأخضر والفلفل والفول والأذرة المشوية .. وراكية النار التى يشع منها اللهب .. أيام الشتاء والصيف .. حصاد القمح .. زرع البسلة وشتل الطماطم .. وعود القصب يركبه كالحصان .. أو ساق البرسيم

يصفر فيه .. لكن لا رجعة الى الوراء .. نحن المساكين تنقص أعمارنا يوما بعد يوم .. نخدع أنفسنا حين نقول انها زادت .

وفى الصبا انفكت عقدة لسانه .. وهى خارجون من المدرسة الثانوية ثار مع الثائرين .. أين الغذاء والكساء يا ملك النساء .. قود الثورة يا نحاس .. قود الثورة يا نحاس .. الحجر يصيب رأسه .. ينفجر الدم منه .. وفى الصباح والشاش يغطى .. وجهه قفز وسط طابور الطلبة .. وعاش الكفاح المسلح .. أطلق رصاصته الأولى .. فتجمع الحشد .. أيها الزملاء الأعزاء .. ان الحرية لا تشترى ولا تمنح . انها تنتزع بالقوة .. أو بالمقاومة .. وصعد آخر .. وتأجج الموقف .. وارتفعت الأيدى ملوحة فى الهواء وخرج من البيضة .. بدأ ينقر الحياة نقرة نقرة .. وعندما عاد الى قريته تعجب .. ظل يحكى لأصدقائه أياما عما حدث .. وهم يستعيدونه فى كل ليلة . وهو فخور يلون ويضيف ويحذف كما يشاء . يؤلف ويتخيل .. والصبية مندهشون صامتون فرحون . ثم خاضت قدماه طين الأرض .. ساعد فى زرع القلقاس والكرنب .. رفع الفأس وعزق .. بللت المياه العكرة جلبابه .. ذاق « بلح الأمهات » وهو يتساقط من النخلة .. ثم أشعل نور غرفته من جديد .. الآن تطحنه الأحداث .. يشحنه التوتر .. تخنقه الأزمة .. لم يذهب الى عمله اليوم .. لا جدوى من الروتين .. لابد من التغيير ، نحن فى أوائل طوبة .. السماء ملبدة بسحب سوداء تروح وتجىء دون أن تسقط الأمطار .. وفى بعض الأحيان تهب ريح باردة .. المسألة اكبر من أن يواجهها بمفرده .. لن تجدى قوقعته شيئا .. قام وصنع كوبا من الشاى الدافىء .. لهيب المحنة يزداد اشتعالا .. لم يعد يستطيع ان يصبر ، اصبح هذا الشىء

الغريب يسرى فى دمه وعقله ، يعجز عن الفرار منه . قضاء وقدر، لابد منه ، ربما ورثه عن أجـداده .. واجداد اجداده .. منذ الوف السنين . ونهر الذكريات لا يكف عن التدفق ، لا يدرى من أين يغرف .. أمن منبعه .. أم من مصبه ، وكلاهمـا مر كالعلقم وهو نصف ميت .. نصف حى .. يريد فك قيوده .. لكن قيوده تتشابك مع قيود الآخرين .. والآخرون ليسوا على استعداد لأن يفكوا قيودهم .. كل واحد منهم يعزف على آلته الخاصة .. عاجزون أن يوقعوا لحنا واحدا .. منذ أعوام كان يزحف على أرض الجزيرة .. العرق يتصـبب من جسـده .. يلهث حتى يصـل الى هدفه .. متعب ولكنه سعيد يجد غذاء روحه وذكرياته . السلاح فى يده . والأرض فى حضنه ، لم يكن وحده ، انفاس رفاقه تدفئه ، وحرارة حماسهم تلهبه . شيء ما يريد الوصول اليه . تتعفر جبهته بالتراب ، تدمى أصابعه من حصى الأرض . جرعة المـاء لذيذة تروى ، واللقمـة ساخنـة تشبع . للكلمـة طعم وللهمس طعم ، وللصـمت طعم ، وحتى للشجار وللاختلاف طعم .

فى هـذا الصباح رفض فطوره . ألقى نظرة سريعـة على الصحف .. كلها تبشر بالعام الجديد .. تمتلى بالاعلانات .. وأين تذهب هـذا المساء .. والوفيات السوداء .. الدكتور قاتل زوجته يتحدث كيف قتلها .. انه يعرفه . كان هاويا للقصة.. مأساة أم جنون .. لا يهم .. الزوجة ترقد الآن فى قبرها .. الحالة فى نفسه راكدة الى آخر المدى .. وضرب جدار الغرفة بغيظ وحنق . سعد بهذه الضربة المفاجئـة . تركت آثارها فى يده . تململت زوجته فى سريرها :

ــ انت مش نايم يا حسن ؟ ! ..

ــ لا .. ابدا .

ــ ليه يا حبيبى ؟ ! ..

ــ تعبان شوية ! ..

وفركت عينيها المتعبتين . كان السواد يرقد تحت جفنيها. اخذت راسه بين كفيها . قبلته . مسحت شعره بكفها . ابتسمت فى وجهه ، تنهدت قائلة :

ــ كنا عاوزين نسهر الليلادى ..

فك راسه من بين يديها ، وقال :

ــ يعنى .. ياما سهرنا ..

قــالت :

ــ الدنيا كلها سهرانة ...

همس فى ضيق :

ــ نروح فين ؟ ! ..

ــ زى ما تحب ..

ــ ... فين يعنى ؟ ! ..

ــ ملهى الالباما ...

زفر مهموما :

ــ وشبابنا فى الخندق ؟ ! ..

ردت فى ضحكة رائقة :

ـ انت كده .. دايما حمال الهموم ! ..

واقتنصته الذكرى . عند بيت حانون كانوا يقفون . أخذوا الصور التذكارية ، الجنود الاسرائيليون على بعد خطوات منهم ، النظارات المكبرة على أعينهم . خفق صدره بالمرارة ، هنا ارضنا ، متى نصل اليها ؟ ! .. لن تجدى كلمات الشعراء الطيبة . كان الخطيب قد وقف بينهم بالأمس يحدثهم عن أمجاد فلسطين ثلاث ساعات .. مدنها وقراها والعبقريات التى خرجت منها . شعر بالصداع . لا يرى الآن ولا يسمع غير دبيب خطوات الجنود الاسرائيليين .. خلف البوابة البيضاء ، الكئيبة .. رائحة البرتقال المنعشة تدخل قلبه .. تسرى فى جسده .. الآن يقفون على ضفة القناة .. منذ ايام ذهب الى السويس .. زال الريب من نفسه لأنه يعيش فى قلبه . الرفاق لا يثرثرون اليوم .. ارتعشت أعصابه من الحقد الذى صبته القنابل والصواريخ على المدينة .. لكن الحياة لا تموت .. يونانية بلغت الثمانين تمشى مسرعة .. تحمل فى يدها بعض الطعام .. صممت على البقاء فى المدينة .. وعلى احد الجدران انكفأ اصيص زهور .. جفت أعوادها .. كانت ظمأى .. تتحرق الى الماء العذب .. دلقه فوقها .. كل شىء ظمآن هنا .. وقف امام جذع نخلة محروق .. مال اليه يتحسس حشفه . كان قد تحول الى تراب ناعم املس .. سقطت دمعة من عينه .. هو يحب النخل منذ أن تفتحت عيناه على بلحه بالقرية .. اكرموا عمتكم النخلة ، طيبة واميرة .. قال تعالى : « وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا .. فكلى واشربى وقرى عينا » .. تعطى كثيرا .. ولا تأخذ سوى القليل .. فى بيته

بزغت نخلة صغيرة بطريقــة شيطانية .. كافحت حتى تنمو ..
تململ الولد الصغير يريد ثدى أمه .. رقدت بجواره .. ظل يمص
الثدى الى أن عاد الى نومه .. ســاعة تدمير المطــارات كان
ينتفض من الخوف والغيظ داخل الرحم .. زجــاج النوافذ
يهتز .. أصوات « الفيكرز » تسمع عن قرب .. أسقطنا ثمانين
طائرة .. تسعين .. أدار مؤشر الراديو على جميــع محطــات
العالم .. بكى الطفل يريد أن يشرب .. ظمآن هو الآخر .. أسرع
الى فمه بالمــاء .. ارتشف قطراته وهو نعسـان .. وفى العاشر
من يونيو .. سار فى المشهد الكبير .. انهمرت دموعه الحقيقية
طوال المسيرة .. ظل قلبــه يرفرف فى صدره كالفراشة المحلقة
المتعبة ، لا تريد أن تريح جناحيها الضعيفين الرقيقين .. ليس
هناك رصــاص أو قنابل .. هنــا المصرى كريم العنصرين ..
والحنــاجر تحترق .. .. بــلادى .. بــلادى .. لك حبى
وفؤادى .. وينساب النهر .. له ألف ألف ذراع .. وألف ألف
وجه .. وألف ألف حجرة .. وثمة مسحوق غريب .. غريب
يلم الشمل .. يسرى فى الدماء .. انه المسحوق الذى ارتشفه
منذ أن وقف للملك بفانلته وسرواله الأبيض الصغير ، لحظة أن
وقف عند بيت حانون أمام البوابة البيضاء .. فور أن نام على
سطح الفرن الساخن .. وأكل العيش الفلاحى المرحرح .. هو
لا يستطيع تحديد كنهه .. لا يعرف مداه .. كل ما يدريه انه
ميت صبابة فى اعطافه .. يزكم انفه كلمــا ذهب الى قريتــه ..
يتحدث مع الفلاحين .. يشرب شايهم الأسود .. يتمدد على
أرضهم البحبوحة .. يشم رائحة روث البهــائم .. يتأمل اجترار
الأبقار والجاموس للبرسيم الجاف .. وتردد صوته كالصدى ..
الوطن فى محنة .. لابد وان يحمى ذكرياته .. ان يقف مرة أخرى
رغم الأسى عند بيت حانون .. كيف يجتــاز الصحراء .. آلــة

واحدة للعزف لا تنفع .. لابد من ألف ألف آلة .. والف ألف أصبع .. واستيقظت زوجته مضطربة .. قلقة عليه .. بالأمس كان يناقشها فى قانون الأحوال الشخصية الجديد . كانت غاضبة من تعدد الزوجات ، ناقمة على الذين يريدون أن يفرضوا الوخم على المرأة . احتضنها بين ذراعيه مزهوا .. شعر بخجل من نفسه .. الآن تحاول أن تطبب له جراحه .. قامت وقدمت له كوبا من عصير البرتقال .. اسندت كتفه بذراعيها .. رفعت العصير الى فمة حانية .. سرى تيار من الراحة فى عروقه .. ابتسم لها ممتنا .. قالت هامسة :

ــ ما الذى يضايقك ؟ ! ..

قال :

ــ تعرفين كل شيء ! ..

قالت :

ــ غدا تنصلح الأحوال .. ربما ! ..

ــ مللت الوجوه الباهتة ..

ــ حاول أن تغير ..

ــ لن ينصلح حالى الا بشيء واحد ! ..

ضحكت وقالت :

ــ وتسيبنى لوحدى ؟ ! ..

قال :

ــ الأعمار بيد الله ..

وانتفض واقفا يرتدى ملابسه . تجمعت ذكرياته كلها فى هذه اللحظة . بدأ ميلاد عامه الجديد .

رمق الصحيفة بطرف عينيه .. ثم اشاح عنها سريعا . يعرف أين يذهب هذا المساء ! ..

أشياء تحدث كل يوم ...

فى لحظة نشوة طافت اصابعه على حافة الخطاب ، ثار فضوله فى نفسه . كان كالمدمن ، لا يستطيع أن يقاوم رغبته . لابد ان فيه شيئا ذا قيمة ، ربما سر من الأسرار ، المهم ان يعرفه، هواية لذيذة ، لا يخسر من ورائها شيئا ! يكفيه أن يضيع الوقت اثناء هذا الليل البارد ، يفتح الرسالة ، يقرؤها ، ثم يعيدها كما كانت ، آلاف الرسائل يفتحها ، ثم يعيدها كما كانت ، منذ سنوات وهو يباشر هوايته المفضلة .. لكنه الآن يشعر بالخوف ، لا يدرى لماذا ؟ ! ..

نظر الى الخطاب بعد أن عرضه لضوء المصباح ، هناك صورة صغيرة بداخله ، يزداد فضوله ، بالأمس كان عباس متشائما ، نام بعد أن أكل لحم خنزير ، وشرب كأسين من البراندى الرخيص ، كانت الحانة تضج بالوافدين .

أول مرة يأكل لحم الخنزير ، ندم رغم أنه ليس متدينا ،

طعم الخنزير لذيذ ، مازال فى حلقــه مرا وعلقما ! .. وبدأ فى نزع غلاف الخطاب ، لابد ان يحتفظ بالصمغ كما هو ! ..

ماذا يفعل وهم يتركونه مهملا هنا فى مكتب البوسطة من سواقط الموظفين ، ويتحدثون دائما عن الرسوب الوظيفى .

ها هو ذا الورق الشفاف الأزرق يفتح شهيته . وها هى ذى الصــورة .. غريبة .. انه ولد جميل . طفولة سعيدة لم يعرفها فى حياته .. مكتوب على الصــورة من الخلف .. الى خالى العزيز نبيل .. كل عام وانت و « طنط » الأمورة بخير . اذن هؤلاء ناس ســعداء يتذكرون أعياد الميلاد ، يتمتعون بحياتهم الى آخر لحظة . كم من الأيام الضائعة مرت بحياته ، واخيرا يعدونه راســبا فى الوظيفة .. المهم ان يبدأ .. يقرا ليتسلى .. باسم الله ! ..

* * *

عزيزى الحبيب نبيل .. معذرة لأنى لم أكتب اليك منذ وقت طويل ، فأنا دائمــا مشغولة ، ولكنى اليوم صممت على الكتابة اليك . فصــادق نزل الى عمله بعد أن طبع على خدى قبلة سريعة ، ومنى وخالد ذهبا الى المدرســة . لقد مر الآن اكثر من اربعين يوما على وفاة الوالدة الحبيبة يا نبيل . ولو كنت معنا هنا فى القاهرة لخففت عنا الكثير . فأنا وحيدة كما تعرف حتى انى كنت اقف ســاعة الوداع بجوار أمى أرتعش . المهم انها مدفونة مع جــدتى وعمتى فى قبر واحد ، ولعلك لا تعرف وانت ولدها الأكبر ، انها أخبرتنى فى ذات يوم انها اعتنقت الاسلام بعد ولادتك مباشرة ، فقد فرحت فرحا شــديدا . أيضا كانت

تعتقد أنك سوف تدفن معها بعد عمر طويل ، وطبعا لم تكن تعرف أن للنساء مدفنا خاصا لا يوضع به الرجال ! ..

عزيزى نبيل ...

اتحدث معك عن أشياء حزينة ، لكنى أرتاح لأنى افضى بها اليك ، فلقد حدثتنى فى آخر رسائلك عن حيوان السنجاب الأبيض الرقيق الذى يعيش فى الجليد ، وكم أنا شغوفة لرؤيته فى كندا على الطبيعة ، فعالم الحيوان جميل جدا .

نقد كنت مع الوالدة حتى النهاية ما عدا يوم الوفاة ـ اليس هذا غريبا ـ فقد ارتفعت درجة حرارة خالد فجأة الى ٣٩ ، ولم استطع ان اترك البيت . وفى الخامسة طلبت « بابا » بالتليفون .. فأخبرنى بأنها ماتت الساعة الرابعة والنصف ، وتصور وقع النبأ على نفسى . لم أكن أتصور النهاية بمثل هذه السهولة . وعندما دخلت الى البيت تحاشيت أن أنظر الى « بابا » حتى لا أنهار ، فقد كان على أن أتماسك الى النهاية .. كشفت الملاءة البيضاء عن وجهها . كانت فى وداعة القديسات . عينها اليمنى مفتوحة ، أما اليسرى فمغلقة . وعندما قبلتها كانت باردة ، وكان طعم هذه القبلة غريبا فى فمى .. فهل حقا كانت القبلة الأخيرة ؟ ! وكانت ترتدى الروب الأحمر الجميل الذى ارسلته اليها من كندا ، وقد أوصت أن تدفن به . ولأول مرة فى حياتى يا نبيل أقرأ القرآن ، فقد فتحت المصحف على سورة الرحمن ، ورحت أتهدج بالتلاوة .. وبدأت المراسم الصعبة . وطبعا لم ننم طول الليل . لكن الشىء الغريب حقا هو اننى لا أعرف كيف تماسكت الى هذه الدرجة .. وفى الصباح تمت الاجراءات الأخيرة . وتصور أنى كنت أساعد فى تجهيزات

الدفن . ولو قال لى أحد انى ســوف أقوم بهذه المهمــة فى يوم ما لمــا صدقته أبدا . ولكن الخوف من الواقع شىء ، والواقع نفسه شىء آخر . وعند المدفن كان كل شىء يتوارى أمامى .
لعلك تعرف كم كانت « ماما » ســيدة أنيقة ، تختــار فساتينها بعناية . بسيطة المظهر والمخبر ، حلوة الروح قبل التقاطيع .. سهرت على انضــاج طعامنا منذ الأيام الأولى الى أن أصبحنــا شبابا ، الى أن تزوجنا ، الا تذكر يا نبيل كيف كانت صارمة فى غير قسوة ، حازمة فى غير تزمت ، ودودة .. محبة ولا أريد ان أستعيد أيامها ، فالدمع عليهــا لم يجف بعد ، وأشياؤها ما زالت فى مكانها من البيت . كل شىء كما كان ، الروح موجودة لا تغيب عنا أبدا ، غير أنى شعرت بغيابها فى لحظــة واحدة بعينهــا .. لحظة أن عدنا الى البيت بعد أن واريناها التراب . هنــاك كان الفراغ لا يحتمل ، المقاعد ومنضــدة الطعام والمرآة التى بالمدخل والنوافذ والتليفزيون .. كل هــذه الأشــياء كانت مكســوة بالظلال القاتمة .. أما حجرتها وأنت تعرف أنها حجرة شــتوية ، فقد غمرتها شــمس نوفمبر الضنينة ورأيت « بابا » ينهنــه كالأطفال . وفى الليل بدأت شكليات العزاء التقليدية .

عزيزى نبيل ...

ربما أكون قاسية لأنى أتحدث معك فى هــذه الأشــياء ، وأنت تعيش سعيدا ، ترسل لى صور ابنك الملونة ، وكم أنــا مسرورة لأنه كبر ، وأصبح يقول : بابا .. ماما .. وربما كان يزداد فرحى لو عاشت « ماما » ، وناداها نونا .. نونا .. ولكن لا فائدة .. لا فائدة .. عفوا ، فأنت أخى الأكبر ، ومن الضرورى ان أخبرك عن أشياء سوف تظل من وجهة نظرى باقية فى مخيلتى الى الأبد .

وكان ينبغى أن أخبرك بها لتعرف ما حدث ، فالحياة ليست جميلة دائما ، وانما تتخللها لحظات من الألم والعدم ، علينا أن نتحملها فى صبر وشجاعة .

عزيزى نبيل ...

نسيت أن أقول لك ان عندنا اربعة زغاليل حمام ، ما زالت تأكل من مناقير أمهاتها ، تحاول أن تتعلم الطيران . ريشها الأبيض جميل .. جميل .. ان الزغاليل يا نبيل مخلوقات رقيقة وحساسة . فى كل صباح أطلع الى السطوح لأقدم لها الماء والحب .. انتظر مداعبات الأمهات مع الآباء . ليتك كنت معى هنا لترى ذكر الحمام وهو يداعب زوجته .. انه عالم يخفف عنى ألم فراق « ماما » ، كنت أحكى لها عن هذه الزغاليل قبل أن تموت بأيام . وكانت تبتسم لى رغم الآلام ، توصينى أن أدفئها فى أيام الشتاء .. نبيل .. لقد تحدثت مع « بابا » فى حكاية السفر اليك .. وقد وافق ، فهو محتاج الى ذلك جدا . فأرجو أن تكتب له . اما الجو عندنا ، فهو بارد فى هذه الأيام ، فدرجة الحرارة ما بين ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، وأرجو الا تضحك ، فأنا أعرف ان هذه الدرجات هى درجات الدفء عندكم ! .. وأنا عندى انفلونزا مثل بقية أهل مصر ! .. وها هى ذى صورة خالد . انه يذهب الى الروضة ، يعرف .. واحد .. اثنين .. ثلاثة بالعربية .. والفرنسية .. والانجليزية ، وله صديق يحبه جدا اسمه « على جاغا » . هل تذكر على كامل الذى كان مقررا علينا فى منهج اللغة الفرنسية زمان .. والذى كان يبحث عن شقة .. ويذهب الى رحلات عديدة .. على كامل الولد الصغير ؟ ! ..

عزيزى الحبيب نبيل ...

اكتب اليك هذه الرسالة وعن يمينى وامامى زهريتان من الورد ، فاجأنى بهما صادق بالأمس . انه زوج وصـــديق محب جدا . لا تعرف كم تعب معى أثناء ما حدث ، وجدته يدخل وفى يده باقة كبيرة من الورد الأحمر القانى . قبلنى ثم اعطاها لى . رايته يشرق بفرحة حقيقية بعد طول حزن ، قال :

ـ صباح الخير ...

قـلت :

ـ مساء الخير .. أم صباح الخير .. ماذا حدث ؟ ! ..

قـال :

ـ لقد فتحوا محلا جديدا للورود .. اردت ان ..

قـلت :

ـ اين ؟ ! ..

ـ قفز الى جوارى وهو يقول :

ـ قريب منا جدا .. أمام بيتنا مباشرة .. هذا هو ! ..

واشار بيده الى الأمام من النافذة ...

فسألته بفضول :

ـ وهل عنده ياسمين ؟ ! ..

ابتسم متفائلا :

ـ طبعا يا حبيبتى .. عنده ياسمين ! ..

اضـفت :

ـ وفـل ؟ ! ..

ضحك مسرورا :

ـ كـل أنـواع الزهـور والورود .. كـل الأنـواع .. الا تصـدقين ؟ !

وقد كان بودى يا نبيل أن أحمل بعض هذه الورود الى « ماما » فى البيت بدل أن أحملهـا الى القبر . انى ذاهبـة اليها .. يوم الجمعة .. ولكن لا فائدة . لا فائدة .. لا فائدة !..

* * *

عزيزى نبيل ...

وفى هذه اللحظة توقف عباس عن قراءة الرسالة . طبق الأوراق الزرقاء الخفيفة . نظر الى صـورة الطفل . همس وهو يقبله .. كل سنة وأنت طيب يا خالد .. تعيش يا حبيبى .. البقية فى حياتك .. أنا آسف لأنى فتحت الرسـالة .. آسف يا حبيبى .. ثم اجهش بالبكاء ! ..

عنتر .. وعبلة ...

لم يكن الأستاذ عمران يتوقع ما يحدث له الآن بمثل هذه السهولة ، فقد تحققت أمنيته منذ شهور . اطمأن على بيته . أصبح ينام ملء جفونه .. يسمع صوت كلبيه ، فيشعر بالفخر والاعتزاز . لن يستطيع اللصوص الاقتراب من المنزل اذا تسلقوا السور . فلن يفلتوا منهما . ما أحلى لعبهما فى الصباح الباكر ، يظل يراقبهما بفرح وحب الى أن ينعشهما دفء الشمس اللذيذ . ذكر وانثى .. عنتر وعبلة .. يعشقان الحياة ، لا يفرطان فى لحظة من لحظاتها المتعة . هو سعيد ممتن لتلك المصادفة الجميلة التى جعلته يعثر على هذا الصنف النادر من الكلاب . رفض البلدى الرخيص . ولم يرض بالنوع الدلوعة المخنث الأرمنت . أما عنتر وعبلة ، فهما من النوع البوليسى النادر الذكى . انهما فى منتهى اللطافة والمودة ، لكنهما ينقلبان الى وحشين كاسرين عندما يشمان رائحة أحد الغرباء . الآن تقلب عبلة وعنتر حياة الأستاذ عمران من الأمن والراحة الى النكسة

والكدر . يحاولان قفز السور المرتفع بين آن وآخر . فشلا فى محاولاتهما مرات عديدة .. الى أن كانت لحظة سخيفة ساعدتهما على النجاح . تسلقا فروع أشجار الزينة . ثم هبطا الى الشارع فجرى وراءهما يعيدهما الى الداخل وضحك من لعبهما الثقيل. ضربهما ضربات خفيفة حتى لا يقعا فى الخطأ الذى وقعا فيه دون قصد مرة أخرى . ولعب الكلبان معه وهو فرحان . ظلا يقفزان ويثبان على صدره ويديه وكأنهما يودان عفوه المنتظر . قدم لهما طعاما شهيا حتى يغريهما بالبقاء داخل البيت .. لكن الشك بدأ يتسلل الى قلبه . اذا تكرر قفزهما فسوف يألفان الناس . وربما تقل حاستهما المتوحشة بمرور الأيام . اذن لابد من حجزهما .. ليكن الشارع محرما عليهما من الآن . المشكلة كيف يحدث هذا ؟ ! ..

فى البداية رسم خططه فى الترقب والانتظار . فربما كان قفزهما الأول حماقة لن تتكرر .. لكنه فوجىء فى مرة ثانية ، وبسرعة مذهلة ، انهما فى الشارع . ارجعهما وفى نيته أن يكون أكثر صرامة فى هذه المرة .. ربط كل واحد منهما بسلسلة من الحديد الثقيل ، ثم ربطهما بأحد الأعمدة الرخامية الداخلية .

وبدأت المتاعب الحقيقية . ارتفعت أصوات صرخاتهما العالية . فلما تعبا من الصراع تحولا الى الأنين ، فلما تعبا من الأنين ، سكتا الى حين ، وارتاح الأستاذ عمران .. قال فى سره : الحمد لله .. كانت نزوة وانتهت .. هذان الكلبان لا يستطيعان مخالفة أوامرى .. المثل يقول : « اطعم الفم ، تستحى العين » . وأكثر لهما الطعام . وغمرهما باللحم والعظام والمرق . وأكل الكلبان قليلا . ثم امتنعا عن الطعام . وسال لعابهما على السلاسل الحديدية ، أفرغا ما فى جوفهما . وتقزز الأستاذ عمران للمنظر الكئيب . فك اسارهما بعض الوقت . وعادت

انتعاشة الروح اليهما وقفزا اليه يتوددان . ويستعطفان وعيونهما نحو الباب . رق قلبه . أمسك السلسلتين .. فجريا أمامه الى الخارج . بدآ فى لعب لطيف ظريف هامس .. ثم انتهى الى مغازلات غرامية واضحة . وهذا هو مراد الأستاذ عمران . منذ فترة عندما كان عنتر بمفرده كان ييأس من أجله . حقا كان لا يعرف القفز الى الخارج ، ولكنه محروم من أليفة لحياته . احضر له عبلة الجميلة حتى تشاركه أيامه . تدغدغ فيه حسه الخشن . عادا الى الحديقة وهما منتعشان ، يلهثان من الفرحة .. تلكآ عند الباب قليلا ، ثم ربطهما فى النهار . وبات آمنا . لابد أن يكون عادلا . الحرية أغلى شىء فى الوجود . حقا انه لا يحب الكلاب ، يكره كل الأنواع . ليس له مزاج خاص ، لكن حبه لهذين الكلبين شىء يسرى فى دمه . فالعشرة لا تهون الا على ابن الحرام .

وفى الصباح قدم لهما اللبن الحليب والعيش الساخن . أكلا وهما ممتنان سعيدان . وفرح هو الآخر . ذهب الى عمله . لم يفارقه خيال عنتر وعبلة وهو يوقع على الأوراق المالية . وهو يرأس اجتماع لجنة الميزانية .. وهو يوقع على الشيكات .. وهو يناقش المشروعات المهمة . اعتمد عشرين ألف جنيه وهو يهمس فى أعماقه .. مادام عنتر وعبلة بخير .. أعاد للعمل رئيس اللجنة النقابية مادام عنتر وعبلة بخير .. أمر بصرف كل بدلات السفر المتأخرة فى يومين اثنين ! .. ومع هذا . فقد كان يخشى بوادر الصراع بينه وبين عنتر وعبلة بعد حادثتى الهرب العابرتين المفاجئتين ، ولكن يبدو أن أمله تحطم سريعا .

ففى صباح ما ، استيقظ على صوتهما فى الشارع . اذن لقد انتزع من حلمه اللذيذ . المسألة ليست بسيطة ، هى تحتاج

الى تفكير وتدبير . لن تنفع الأساليب الانسانية فى معالجة الموقف، لابد أن يكون متشددا بعض الشيء ، يروضهما على البقاء فى الداخل حتى يتعودا الصبر . نظر اليهما من النافذة فوجدهما يجريان سعيدين فرحين . يقطعان الشارع طولا وعرضا . يشبان على أقدامهما الخلفية لملاحقة أى طفل عابر ، يحومان حول الدكاكين المجاورة ، يقفزان على أيدى أصحابها . واستشاط الأستاذ عمران من الغضب والغيظ . خرج الى الشارع ربما لأول مرة « ببيجامته » ، وسحبهما من سلسلتيهما بقوة . ادخلهما وهو يغلى . انتوى أن يؤدبهما فى الحال . امسك أحد فروع الأشجار ونزل عليهما ضربا .. وتكسر الفرع فى يده . فاقتطع آخر الى أن صمت عنتر وعبلة تماما .. وبانت الذلة فى عيونهما.. تكورا فى ضعف على البلاط فى استخذاء ! .. انخفض أنينهما المقهور الى أعماقهما .. اقترب جسداهما من بعضهما ليواسى كل منهما الآخر .. ربما كانت عبلة هى البادئة .. ارتاح الأستاذ عمران فى داخله .. لكن الأزمة تكبر فى رأسه .. بدأ يفكر تفكيرا جديدا . يبدو أن المشكلة سوف تطول . هل يغير سياسة اللين التى تعود عليها فترة طويلة الى سياسة القوة .. أو يجرب الحيل ؟ ! .. كان مضطربا لا يستطيع أن يصل الى قرار حاسم فاصل .

فضل فى النهاية أن ينتظر ، يأخذ حذره ثم ينتظر . لماذا لا يحيط سور الشجر بسور آخر من السلك الشائك ، سوف يمنع خروجهما .

وشرع فى عمله على الفور . ركب عربته وذهب يبحث عن السلك الشائك . هناك أزمة محلية فى سوقه . لم يعثر عليه

أبداً . يبدو أن هنـاك العديد من الناس الذين يريدون سجن كلابهم . تعجب من المفاجآت المضحكة . ما اكثر كميـات السلك الشائك القديم ، كان يراها فى كل شارع يمر به ؛ وأخيرا دلوه على وكالة البلح فاعترته النشوة العارمة ، أطلق للعربة العنان . حمل من هنـاك لفتين كبيرتين .. وكان يتغنى وهو يقود العربة. لن يفلتا منى بعد الآن . المهم أن أحكم ترتيبه بنفسى ! ..

وعندما عاد الى البيت خـلع بدلتـه الرسـمية . ولبس « الافرول » وراح يدق المسامير ، يركب عليها الأسلاك الشائكة . الى أن تكونت شبكة حصينة منيعة ، لا ينفذ منها سـوى النمل ؛ وسال عرقه فى العمل ، فتكشفت سريرته عن رضـا وقناعة ، كان يتوق اليهما منذ زمن بعيد .

ووقف يلقى نظرة على سوره الجديد فأحس بالسرور . اعترته موجة من الثقة والاطمئنان والفخر .

وطبب جروح أصابعـه بصبـغة اليود والجلسرين والمـاء الدافىء ، ثم خلع « الافرول » ورماه بعيدا . وعاد الى زيه الرسمى متخايلا متعاجبا .. من ينتصر عليه اليوم ؟ ! ..

وترك عنتر وعبلة يمرحان دون قيد .. فليأخذا حريتهمـا داخل الحديقة . ماذا يعنيه الآن غير الراحة التى حرم منهـا فى الأيام المـاضية ؟ ! ..

وعلى الطرف الآخر كانت عبلة وعنتر يفكران فى مصيرهما . يرقبـان جيدا ماذا يفعل الأسـتاذ عمران منذ أن وضـع لفتى السلك الشائك بالحديقة . نظرا الى بعضهما .. ابتسما .. ثم

خافا .. ثم تعجبا .. ثم أصابهما الذعر من المفاجأة .. ثم تماسكا .. العين بالعين ، والسن بالسن . والبادى اظلم .. ليستكنا قليلا .. شربا حتى ارتويا .. تمددا فى الشمس الدافئة . ظلا يتحاوران فى صمت مدة طويلة . كل منهما يفهم ماذا يريد الآخر .. يفضى به اليه .. تحملا برد الشتاء معا . قلقا فى عز الليل . كفا عن النباح . أخذتهما سنة من النوم . استيقظا بعدها فزعين . قال عنتر :

ـ وما العمل ؟

قالت عبلة :

ـ أمرك يا مولاى ! ..

قال عنتر :

ـ السلك الشائك أمامنا .. والجدار خلفنا .. وليس لنا من خيار . وأطل عليهما الأستاذ عمران من أعلى السلالم . كان يمسك باحدى يديه بقايا عظام ولحم . وباليد الأخرى اناء ماء .. اطعم الفم .. تستحى العين .. هذا هو مثله المفضل . انتفضا مذعورين خائفين .. ترددا فى الاقتراب من الطعام . نادى عليهما فلم يجيباه بشىء . ظلا واقفين بعيدا . اقترب منهما فى خشية . هزا ذيلهما متحفزين حذرين . وهرشت عبلة ظهر عنتر حانية .

ودغدغ عنتر رقبة عبلة متعجبا . وتركهما الأستاذ عمران قافلا على نفسه الباب .. قال فى سره : ربما يكونان غاضبين .. لا يهم .. هو لم يتجن عليهما حاول أن يروضهما دون جدوى .. ودق قلبه فى صدره .. ما زالت هناك فرصة أخيرة ليركب عربته كل عصر .. وليجريا وراءه للنزهة ، لن يطيقا الحبس

مدة طويلة .. وانتوى ان ينفذ مشروعه غدا .. غير انه فوجيء في صباح اليوم التـالى وهما فى الشارع .. وضرب كفا بكف .. لم يعد يطيق صبرا .. كيف خرج الملعونان عبر السلك الشائك.. لن يستسلم لهما مهما كان الأمر . ومر على السور يبحث عن منفذ واحد ربما يكونان قد خرجا منه . وحتى يئس من البحث خلع ملابسه ولبس « الافرول » الممزق مرة أخرى . راح يقطع ألواح الخشب الحبيبى قطعا طويلة ليعلى بها ارتفاع السور .

وكاد اليأس يصيبه أثناء العمل .. ليسرح هـذين الكلبين المتعبين ، ولكنه عاند نفسه ، فكيف يتغلب عليه عنتر وعبلة ؟ .. ان لم تنفع تعلية السور بالخشب الحبيبى ، فلابد أن يحضر لهما مدربا قاسيا غليظا يضربهما ويؤدبهما حتى يتوبا .. المشكلة ان هذا المدرب من المحتمل أن يسرقهما ليؤجل حكاية المدرب هـذه بعض الوقت . وقضى يوما حافلا فى العمل .. شعربسعادة كبرى فى آخره .. نجحت خطته .. خرج الى الشـارع ونادى على عنتر وعبلة ليقفزا ،وكانا يشبان على أرجلهما الخلفيـة لكنهما لا يستطيعان أن يطاولا السور المرتفع .. اختفى حتى يرياه .. فيخافا منه .. تسللا الى السـور .. رأىمحاولاتهما الدائبـة دون جدوى . ابتسم منتصرا .. كل تمرد وله نهايـة .. انه يخاف أن ينقلب هـذا التمرد الى ثورة .. لابد أن يحقنهما ضد مرض الكلب حتى يطمئن .

وقرب المغرب ، كان الطبيب يحقنهمـا بالمصـل الواقى ، فيهمد منهما الجسدان زاهدين فى الطعام والشراب .

ظلا كالتائهين عدة ايام .كان الأسـتاذ عمران قد استشار الطبيب اكثر من مرة فى حالتهما ، فلم يجد منه غير كلمـات

الاطمئنان .. لكنه يرى كيف يذوى عنتر بعيداً عن عبلة ربمـا لأول مرة .. لا يسمع لنباحهما اى اثر .. حتى انه يفتح لهما باب الخروج ، فلا يقربانه .. ما هذه العين التى اصابتهما ؟ !..

ربما كانت شدة وتهون .

وتزايل عقد كراهيته لهما . فهما الآن وديعان مستسلمان. ينقلان خطواتهما بصعوبة . أيمكن أن يكون تأثير المصل الواقى فى جسديهما الى هذا الحد ؟ ! ..

انه ليس مرضا .. بل روح شريرة تقمصتهما .. لا تنفع معها الأدوية ولا الأحجبة . شيء واحد أعاد الأمل الى قلبـه . وضع حقنة من الشيح على بعض قطرات من روح النعناع وقدمها لهمـا فى صـباحين متتـالين . والغريب أن عنتر وعبـلة بدآ يصـلبان حيلهمـا ، وشـيئا فشـيئا اسـتردا عافيتهمـا الضائعة ، سرى الدم فى عروقهما . سـال اللعاب على شفاههما . أن عنتر وعبلة بدآ يصلبان حيلهما ، وشيئا فشيئا استرداً عافيتهما الضائعة ، سرى الدم فى عروقهما . سـال اللعاب على شفاههما. بدآ يلفان حول السـور من جديد ، يتأملان فتحاته الضيقة ، يطلان براسيهما الصغيرين منها ، يجريان الى البـاب عند أى طارق ، يحتفلان به احتفالا كبيرا . ويندهش الأسـتاذ عمران لهذا البرود الذى يتحلى به عنتر وعبلة ، مهمتهما تحتم عليهمـا أن يكونا يقظين ، يرفعان من صوتهما دائما محذرين ومنذرين من الاقتراب من البيت ، لكنـه كان يقتنع بهـذا البرود فى بعض الأحيان حين يتذكر السكون الذى يتحليان به .. غير أن فرحته لم تتم .. ففى وضح النهار دخل الى حجرة نومه يستريح وقت الظهـيرة واستغرق فى النوم .. لكنـه استيقظ على طرقـات بالباب .. مسح وجهه وآثار النوم ما زالت فى عينيه :

ـ من بالباب ؟ ! ..

ـ نحن يا أستاذ عمران ..

كان هناك شابان يسحبان عنتر وعبلة من سلاسلهما ،.. ولم يصدق عينيه فى أول الأمر .. اندهش .. كاد يسقط من طوله من شدة المفاجأة . وقال له أحد الشابين :

ـ لقد وجدناهما فى آخر الشارع يلعبان مع بعض الماعز..

وقال الشاب الآخر :

ـ وجريا الينا يتمسحان بنا .

وأدخلهما الأستاذ عمران الى البيت . طالما ابعد تلك الفكرة عن خاطره طويلا ، ولكنه لم يستطع الا أن يلجأ اليها فى النهاية . جرى الى حجرة نومه ، وكان يرث كرباجا عن والده . انزله من صندوقه القديم .

وطرقع به فى الهواء . تقدم الى عنتر أولا لأنه يعتبره مسئولا عن زوجته ، ضربه ضربة مباغتة . فانهار الكلب من هول المفاجأة .

ونزل عليه يؤدبه ، فعوى مقهورا مستضعفا . وفى احد الأركان كانت عبلة ترى ما يحدث ، فتنكمش الى الجدار .. وعندما اقترب منها الأستاذ عمران انتفضت مذعورة .. جرى وراءها فتحملت وقع الكرباج صابرة . وصمم أن يقيدهما تماما. امسك عنتر من قدميه الأماميتين ، فقيدهما ، ثم ربطهما ، واستسلمت عبلة دون مقاومة .. وتكوم الاثنان هامدين .. جف حلق عنتر من العطش ، فأفرغ فى جوفه زجاجة كوكاكولا حلوة المذاق .

وما كان الأستاذ عمران يتمنى هـذا المصير التعس للغريمين العزيزين ، ولكن هـذه حـال الدنيـا . من لم يتعظ بالكلمـة الطيبة ، فلابد من تأديبه بالعصى الغليظة .

وغفت عبلة وعنتر فى نعاس عابر من التعب .

تمددا بجوار بعضهما متعاشقين ، سقطت ذرات الغبـار بجوارهما ، فهبا خائفين . لم يستطيعا أن يتحركا خطوة واحدة. ضربا الأرض بأقدامهما ، لحسا حديد سلاسلهما بلسانهما ، أخذ صراخهما طابع الندب .

كادت تظهر عليهما علامة الصراع . اكلا من طين الحديقة . اختلط لعابهما بالأزهار المتفتحة . تجمعت مجموعة من الأطفال فى الخـارج على الأصوات الصارخة . وفى الليل هدأت الضجة . نزل السكون على كل شىء ، وارتعش الجسدان المذعوران ، ولم يعد يسمع غير انفاسهما المتعبة .ونام الأستاذ عمران قرير العين بعد أن تعشى بدجاجة محمرة ، ثم ابتلع بعض الحبوب المهدئة .

وفى الصباح كان يرضى عن نفسه عندما شـاهد عنتر وعبلة مطروحـين كالخرقتين الباليتين ، وتمر الأيـام والقيـد يدمى ارجلهما ، يتعودان عليه ، يعودان الى مطارحات الغرام اللطيفة . يهزان ذيلهما للأستاذ عمران مودة وحبا .. الى أن اطمأن لهمـا فى النهاية فبدأ يفك قيودهما شيئا فشيئا .. فى البداية أفرج عن عبلة ، فهرعت الى عنتر فرحـانة تتشـمم رائحتـه ، ترقص منتشية . دق قلب الأستاذ عمران فى صدره مضطربا ، لكنـه ادرك الخدعة على الفور ، لن يفرج عن عنتر الملعون ، فهو المحرض والمدبر ، وظلا على هـذه الحال عدة أيام . لم يعد الشـك يتطرق الى نفس الأستاذ عمران .

كادت حكاية الهرب تصبح من ذكريات الماضى . يحكيها لكل من يقابله . انتعشت روحه فى العمل ، ولم يعد يتوه عندما يكلمه أحد .. الا ان آخر المفاجآت كانت قاسية جدا ! .. ففى عز الظهر ، وهو سابح فى تأملاته الوردية .. رأى عنتر وعبلة يهرولان فى الشارع وهما فى غاية الاعياء ، الغبار يغطى جسديهما، وعيونهما زائغة شاردة ، وثارت منه الأعصاب ، وهبطت نفسه الى الحضيض .. كيف خرجا ومتى ! ؟ . .وتحامل الى الحديقة يبحث عن أى منفذ فى سور السلك الشائك ، عند نصبة الخشب الحبيبى . كان كل شىء محكما . يستحيل أن ينفذ منه شىء ابدا .

ولكنه ـ ويا للمصادفة ـ وقعت عيناه على حفرة صغيرة بالأرض بجوار الجدار . تتبعها ، فاذا هى سرداب قصير موصل الى الخارج . وكانت آثار أقدام عنتر وعبلة ما زالت حية على سطح الرمال الطرية . وعلت شفتيه ابتسامة مريرة متخاذلة ، ثم قهقه ببلاهة شديدة ، ثم صمت فجأة كأنه سمع خبر موت أحد الأعزاء ، ثم تهالك بجوار وردة قانية الحمرة ، وكان عنتر وعبلة يجران سلاسلهما بعيدا .. بعيدا .

هذه الرائحة ...

بمجرد أن وضعت حقيبتى زكمت أنفى هـذه الرائحة . أعرفها منذ الطفولة . ونحن فى الريف ، كنا نفعلها على أنفسنا . تضربنا الأمهات حتى نتوب !. القيت نظرة سريعة على الحجرة . رايته يجلس على مقعده واهنا . استرحت على سريرى لحظات، ثم قمت فتوضأت فصليت .

هذه هى المرة الثانية التى ادخل فيها هذا المستشفى لاجراء عملية الاصطصفاء الدموى المتكرر . اننى محمل بالسموم . ومن الضرورى أن اتخلص منها ، أصبحت الحيـاة مغامرة بالنسبة لى . وبعد دقائق حرك مقعده نحو حوض الغسيل بالحجرة . أشحت بعينى حتى لا أتابعه . الرائحة تزداد فى أنفى نفاذا . هل هى منبعثة منه ، او من مكان آخر ؟ ! احسست بالقىء والقرف ، لكنى تماسكت . فتحت صحيفة قديمة لأتسلى بها . وبعد لحظة طرق الباب حامل الغداء . وضع « صينيتى » على سريرى . تطلعت الى الطعام . كالعادة بلا ملح وقليل البروتين .

هذه أوامر الأطباء .

كان الذباب يحوم حول طبق السلطة . طردته متضايقا ، لكنه عاد وسقط فى الشوربة . مددت يدى لأتناول أول لقمة ، فازداد احساسى بالقىء . قمت تاركا الطعام . وضعت قطعتين من القطن فى انفى حتى لا اشم رائحة البول النفاذة التى تشمل الحجرة . لكن الرائحة تسللت الى فمى ثم الى حلقى ثم الى صدرى ، ثم أصبحت تخنق روحى . فأفرغت ما فى جوفى . وكان هو قد انتهى من طعامه . التهمه فى دقائق . ورجانى أن أساعده فى غسل يديه .

دفعت بمقعده المتحرك الى حوض الغسيل ، وغسلت يديه وفمه .

وعن قرب تلامس جسدانا .

شعرت بقشعريرة مفاجئة . حاولت الا احدق فيه . لكنى قلت محاولا التعرف عليه :

ـ عمر الفاروق .. موظف بهيئة .. والأخ ؟ ..

قال فى همس :

ـ آه .. تشرفنا ! ..

اضفت :

ـ والأخ .. من اى بلد ؟ ..

قال :

ـ من دسوق .. محافظة كفر الشيخ ...

قلت :

ـ والعمل ..

قـال :

ـ أنا مجند من عام ١٩٦٥ ...

وعدت به قرب سريره . حملته اليه . كان صـدره يعلو ويهبط مرات ومرات .. وعيناه تحدقان عند سقف الحجرة فى الفراغ .. شعرت بالخجل من نفسى . فما هـذا الفضول الذى يحفزنى لمعرفة كل شىء عنه . صمت متأملا أحوال الدنيـا . هناك احساس داخلى يعذبنى بمجرد دخولى هـذه الحجرة ، ربما لأنها اقترنت فى وجدانى بالمـآسى . فأينما تول وجهك ، فأنت ترى الوجوه الصفراء ، أو الأجسـاد الهزيلة ، أو البطون المنتفخة . تضخم فى الأكباد أو الطحال أو هبوط فى القلب ! ..

تمددت فوق سريرى مستسلما ، الطعام بجوارى لا استطيع ان اقترب منه .. قمت ودلقت الشوربة بالذباب ، وعدت اغطى كل شىء بالصحيفة القديمة ! ..

ألقيت نظرة عليه ، كان مسترخيا . طيبا ودودا رغما عنه . يسبح فى بوله الى النهاية . ضغطت على الجرس لاستدعاء احدى الممرضـات .

جاءت واللبانة فى فمها ، قالت بعبث :

أفندم ...

قـلت :

ـ الأخ ..

ولم اكمل الجملة ، فقد هتفت فى ضيق :

ـ عارفين .. غرقان فى بوله .. الحكاية دى مش جديدة..

اندهشت . كيف يتركونه هكذا . ضحكت الممرضة وهى تترك الحجرة غير عابئة بشيء ! .. قمت الى مكانه احاول مساعدته . لكنى توقفت فى منتصف الطريق .

كانت الرائحة لا تحتمل . جسدى كله ينتفض بقشعريرة ملتهبة ! ..

لمحت بعض المعلومات المعلقة على سريره ، عريف مقاتل محمد ابو المكارم على ، البلد ، دسوق محافظة كفر الشيخ ، السن اربعة وعشرون عاما ، متزوج وله ولدان ، الاصابة ، شلل نصفى سفلى ، حصوتان بالكلية اليسرى ، تهتك فى العمود الفقرى نتيجة شظية فى الظهر !.. لكن ما حكاية البول هذه ؟ !.. انه لا يستطيع التحكم فيه . دائما مبلل الثياب ، خجل من الناس ، لا يرفع عينيه الى اعلى ! ..

منذ دخولى هذه الحجرة وانا احاول التعرف عليه ، لكنه يهرب منى دائما ، يرد باقتضاب وسرعة . تقدمت الى السرير وانا اقاوم الرائحة المتعفنة . قلت وانا اقترب منه :

ـ اى خدمة .. انا تحت امرك ! ..

قال وملل الدنيا يتجمع فى عينيه :

ـ العفو .. العفو .. شكرا ! ..

لكنى الححت عليه بصدق :

ـ صحيح .. يلزم اى خدمة ؟ ! ..

تطلع الى ممتنا . انفرجت شفتاه عن بسمة واهنة لأول مرة ، ثم اغرورقت عيناه بالدموع . حيانى بيده وهو راقد . وبانت صفحة وجهه لى . كان كالطفل . لم أكن الحظ هذه البراءة فى وجهه قبل هذه اللحظة . انه وجه مصرى صميم . أعرف هذا الوجه جيدا . قال وهو يشير الى قطعة من القطن الطبى :

ـ ارجوك .. ناولنى هذا القطن ...

مددت يدى الى قطعة القطن . وبسرعة ادركت هدفه . فقلت فى همس :

ـ تسمح لى أن أجفف جسدك ...

قال :

ـ العفو .. العفو .. !

قلت :

ـ يا أخى احنا زملا ... دعنى أقدم لك خدمة ...

قال :

ـ ربنا يخليك ...

وامسكت قطعة القطن أجفف له جسده الأسفل . انتهزت الفرصة . فقلت :

ـ منذ متى وانت على هذه الحال ؟ ! ..

قال والدموع تطفر من عينيه :

ـ من عام ٦٧ ! ..

قـلت :

ـ غريبـة ! ..

قـال :

ـ لم يعد هناك شيء غريب فى الدنيا .. كل شيء جائز ...

قـلت :

ـ ولمـاذا لم تعالج ؟ .. هل هي حالة مستعصية ؟ !..

قـال :

ـ دخت على المستشفيات .. بدأت بمستشفى سان ستفانو بالاسكندرية الى مستشفى الشهيد احمد جلال ، الى مركز تأهيل المحاربين القدماء ، الى مستشفى القوات المسلحة..وبالعكس.. ولا فائدة ...

ـ واين كنت فى عام ٦٧ ؟ ! ..

تنفس عميقا ، ثم قال :

ـ فى أحد المطارات بجوار الاسكندرية ! ..

ـ ومتى اصبت ؟ ! ..

ـ فى اللحظات الأولى من الحرب .. سقطت علينا القذائف من الطائرات الاسرائيلية .. ولم نشعر بشيء بعد ذلك ...

ـ وحالتك الآن ؟ ! ..

قـال :

ـ كما كانت منذ ست سنوات .. لا استطيع ان أتحكم فى البول .. وهأنت ترانى مشــلولا مستسلما .. اقــاوم بكل ما استطيع ... لكن الله اذا كان يحبنى حقا ... فسوف يريحنى بالموت .. هل ترضى على نفسك أن ؟ ! ..

واتسعت حدقتا عينيه عن آخرهما . فشع فيه عزم الفلاح المصرى الأصيل . ندد بالأيام التى تجعله يشكو ويضعف امامى. هو لا يريد شيئا من أحد . حسبه أن يقعد مع أحد أصدقائه ، فلا يكلفه أن يشم رائحته المتعفنة . لقد تحمل الشلل . اصبح لا يهمه . آلام العمود الفقرى تهد الجبال ، ولكنه يقاومهــا بجلد . ما يقلقه هو تلك الرائحــة .. كيف يتخلص منهــا .. الأطباء لا يستطيعون أن يعدوه بالشفاء .. وهو لا يريد أن يقتنع بالاستسلام لتلك الرائحــة الكريهة . انها ليست رائحته .. فهل هى رائحة الحرب ؟ ! ..

لفة الكنافة ...

فى النهاية تحققت امنيته . انه الآن يحتضن لفة الكنافة بين ذراعيه على صدره كأنها مولود جديد يعتز به .. لحظة الفطور تقترب ، ولكن القطار لم يصل بعد .. لا يهم .. يفعلها دائما .. تأمل اللفة ، باركها بعينيه سال ريقه . تذكر أيام كنافة زمان .. اين تلك الأيام ؟ ! ..

صفر القطار قادما . تدافعت الجموع اليه . كان الموقف اشبه بمعركة حربية .

حاول فى البداية أن يستخدم قوته ، لكنه لم يستطع ، فاستسلم للمد والجزر حتى أصبح فى لحظة معينة يدور فى دائرة محشوة بالناس .. لا يعرف اتجاهه .. رفع يده بالكنافة الى أعلى حتى يتفادى تلاطم الصدر والأيدى والأذرع والرءوس . هدأت ساحة المعركة بعض الشىء . توقف القطار عند اشارة حمراء . بدأ المطر يتقاطر على النوافذ .. هاج الركاب من

الغيظ .. لكنهم التزموا الصمت كالعـادة .. فاللحظة ليست للزعيق أو الاحتجاج . طلع واحد يهتف فجـأة .. يا حضرات السادة .. الموضوع لا يحتاج لشرح وكلام . ترقب الركاب خيرا يتعلق بتعطل قطارهم .. لكنه قال : أنا معايا هديـة عال .. فانفجر الركاب ضاحـكين .. طقم مكون من شفشـق وخمس كوبيات . .الثمن كام ؟ ! حتستغربوا لمـا تعرفوا .. خمسـة وتلاتين قرش بس .. ران الصمت من جديد .. ضحك البائع وهو يقول : انتم زعلتوا .. طب بتلاتين .. برضه مفيش حـد عاوز .. طب بسبعة وعشرين .. خلاص يعنى .. طب بخمسـة وعشرين . وراح يضرب الكوبيات على حديد القطار بشدة .. قزاز حديد يا عالم .. مين يقول هات .. طب بعشرين .. هه .. ثم انفجر ضاحكا بخفـة دم لطيفـة .. اقول لكم بقى .. انتم عايزينه ببلاش .. خذوه أهه .. وفجأة انتقلت مشاعر الركاب من السخرية به ، أو اهماله ، الى العطف عليـه .. وهمس واحد .. هات طقم .. وفى لحظات باع عشرة أطقم أخرى .. ومد عبد المقصـود يده بعشرين قرشـا ، ثم عادت اليه اليـد بالشفشق الأزرق وبداخله الكوبات .. الآن يمسك الطقم بيده اليمنى ، ثم يحتضن لفة الكنافة عند قلبه بذراعه اليسرى .. وسر يا قطار ربنا يهديك .. ولكن لا فـائدة .. تكاثفت قطرات المطر اكثر فأكثر على النوافذ . تفرقت مشاعر الجماعة .. كل واحد فى حاله ينتظر لحظة الفرج ، صرخ طفل يريد ثدى أمه.. اخرج بعض الركاب جرائد الصباح يتسـلون بها . وحدوا الله فى سرهم . وسـار المبروك يكمـل الرحلة . واسـتعاد الجميـع انفاسـهم .

ومحطة وراء محطة تكدس الخلق .. واقتحمت كتل العمال النوافذ والأبواب فسدت منافذالهواء .. وكاد الاختناق يطوق الركاب . وانفجرت احدى النساء باكية..جاءها دور التشنج.. فتحنا زجاج النافـذة ، ثم رششنا عليهـا العطر .. وتكالب عبد المقصود على كنافته . متى يصل الى غايته .. كيف ينزل من القطـار ؟ ! ..

انه لا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة . واذا كان قـد نجح فى اقتحام موقعه هـذا الذى يقف فيه ، فسوف يدافع عن نفسه لأن راكبا آخر سوف يفاجئه عند النزول ، بل عشرات الركاب الصاعدين شعر ببرودة الكنافة عند قلبه . هبطت فرحته الساخنة ، لكن أمله يستحيل أن يموت .. كل شيء له آخر .. حتى هـذا الزحام الفظيع . وشفطته كوة فراغ صغيرة ، ثم سرعان ما لفظته آخر الأمر . كادت قدماه تنهـاران تحت ثقل جسده المتعب .. تحلى بالصبر والصمود .. مد بصره الى عيون الواقفين والجالسين حوله .. فوجدهم يبادلونه نظرات العطف والرثاء .. عجـلات القطار تئن وتتلوى ، وجسده كله يغطيـه العرق . ذراعاه تستميتان على لفة الكنافة عند قلبه . وثمة الم ممض ، حاد وعنيف يجتاح كيانه . سكنت أنفاس القطار ، ثم سار ، ثم سكن فأصبح كلعبة الأطفال التى تملأ بالزنبلك .

وفى كل محطة تتكدس أقـدام ورءوس جديدة .. حتى فاض الكيل عن وعائه .

وقرب محطة النزول ، كان عبد المقصود يستعد ويرسـم الخطط ويعصر رأســه حتى يتفادى المعركة القادمة . قال .. لا سبيل ســوى النافذة . سوف أقفز منها ، ولكن القطـار يقف على الرصيف الآخر .. ورأى أسراب النمل المهاجمـة

حوله من كل جانب . وارتفعت كتلة الصراخ مع وقوف القطار . النساء والأطفال والشيوخ .. أصواتهم ترتفع تطلب النزول .. ولا حياة لمن ينزل .. ورفع عبد المقصود يده بلفة الكنافة الى أعلى . وراح يخوض كتلة البشر . كان يجدف بيديه وقدميه وكل خلجة فى صدره دون جدوى .

وفى لحظة ، وبدون جهد منه شخصيا وجد نفسه يسير عبر الموج ناحية الباب . وقفز بقدمه اليمنى الى الرصيف . ولكن قدمه اليسرى ظلت معلقة الى أعلى على سلم القطار ، فانقسم نصفين متلاحمين ، لا يستطيع أحدهما أن يتغلب على الآخر .. وبكل ما يملك شد قدمه اليسرى وهو يلعن .. فانكفأ على وجهه .. فداسته الأقدام .. وسقطت منه لفة الكنافة على الأرض ، وعبثا حاول أن ينتشلها .. فقد تطايرت اشلاؤها تحت الأحذية .. فقام يلهث ، يمسح جبينه وملابسه المعفرة . والغريب أن الشفشق الزجاجى والكوبات لم يمسها شىء .

وحاول أن يسترد أنفاسه الضائعة . وحين هدأت نفسه ، كانت هناك مرارة دفينة تتسلل الى قلبه من الداخل ، تماما عند مكان احتضان الكنافة .

وردة ...

عند لحظة الوداع كنت أريد ان اطمئن على شيء واحد ، اخشى أن يضيع منى فى الزحام . اتأكد من ان وردتى الحمراء فى يدى ، هذه التى خرجت بها من قريتى بعد زيارة خاطفة . كانت زوجتى قد حملت بعض قش الأرز لتدفىء به الحمام فى بيتنا أيام الشتاء ، وحمل الأصدقاء أعواد القصب الحمراء . أما ابنى الصغير ، فقد ركب الحمار ، وكان سعيدا للغاية . عند تلك اللحظة كان فى صدورنا فرح حقيقى أخضر . فى أيدينا خير بلدنا ، العيش والملح والفول السودانى وأعواد القصب ، وفى نفوسنا حزمة من ذكريات بعيدة ، وأخرى طازجة حلوة .

وركبنا العربة مودعين . ما زالت وردتى فى يدى . أنا متأكد من ذلك جيدا . واثناء الطريق ثرثرنا كثيرا ، ثم نزلنا نشرب عند منعطف من المنعطفات . قالت زوجتى :

ـ كانت زيارة خاطفة ، ولكنها لطيفة جدا ..

قلت موافقا :

صحيح .. ولكن لابد أن نعود مرة أخرى ! ..

هتف الأصدقاء فى حنجرة واحدة :

ـ لابد .. لابد !

وقال ابنى الصغير :

ـ واركب الحمار يا بابا تانى ..

ضحكت وأنا أرد عليه :

ـ وتركب الحمار يا حبيبى ! ..

ثم ساد الصمت . وانحدرت بنا العربة فى منحنيات الطريق الوعرة الكثيرة . ثم أغفيت قليلا . وفجأة انتفضت مذعورا . لم تكن وردتى فى يدى . أين وردتى أيها الأصدقاء .. من خطفها يا زوجتى الحبيبة ؟ ! .. يابنى الحبيب ؟ ! .. لم يرد على أحد . بحثت عنها فى أرض العربة .. وبين المقاعد .. وفى جيوب سترتى .. فى قش الأرز .. لكن للأسف لم أعثر عليها .. وهأنذا وحيد أشعر بالألم لفقد وردتى ، فهل أفقد أملى فيكم سيداتى وسادتى .. فربما عثر عليها أحدكم فى يوم من الأيام .. ملقاة فى الطريق . أو معلقة فى عروة أحد الأنيقين أو الأنيقات .. أو تحت الأقدام .. فأرجوكم أن تعيدوها الى حتى لو أصابها الذبول الشديد ! ..

ميلاد جديد ...

في تلك اللحظة كان ابني الصغير يجذبني من يدي ، يريد أن يوجهني الى عالمـه . اشحت بوجهي عنه اسـفا . ضغط على أصابعي باكيا ، تعال يا بابا .. تعال .. رأيت دموعه في عينيـه مختلطة بالضحكة المشرقة في وجهـه .. كانت أمانيه ما زالت طازجة في قلبه ، لكني لم أستطع أن أخففها له كما يريد . وكنا نحن أهل البيت مشغولين ، نفكر في ترتيبات اليوم الصعب رغم أن الروح لم تترك الجسـد بعد . وأمامه ثارت الأسئلة ، اين الكفن ، اذا حل علينا الظلام ماذا نفعل ، هل نبقى الى الصباح .. كيف نقضي الليل ؟ ! .. وقف دمع بعضنا على خده ، وانحنى بعضنا الآخر يذوق طعم القبلة الأخيرة المطعمة برائحة الموت . كنت أخشى على ابني الصغير من المشـهد ، وهو لا يدرك سر ما يجري حوله ، أومأت اليه أن يذهب هو ، وسوف أتبعه ، ثم أعطيته قطعة من الشيكولاتة ليسكت .. كنت منكسر الجناح .

مسحت دموع زوجتي بمنديل مثقل بالدمع .. فهذه هي امهـا تموت .. تهدجت بدعاء شفيف .. ربنا لا تحملنا ما لاطاقـة

لنا به .. سبعة أيام بلياليها ونحن ننتظر ، النفس يتردد ، لكن العينين مغلقتان ، وعصب وحيد ينبض فى الرقبة . كانت الشهادة على ألسنتنا تنطق بالحزن الذى فى أعماقنا . وثمة ذبابة خضراء كئيبة تحوم حولنا ، همست ساخطا .. أيتها الذبابة الكئيبة ابعدى عنا .. نحن لا نخاف الموت ، لكنا نخاف الشؤم والنحس .. طارت متحدية رجاءنا ، حطت على الجسد المسجى فى استسلام .. وبعد دقائق كانت الروح تصعد الى أعلى ، الى أين ، لا احد يعرف . وفى لحظة انبثق الحزن فى داخلنا ، لم نرفع الصوت ، لكن دموعنا سالت تروى ظمأنا للراحة . وعاد صفيرى يجذبنى من يدى ، كان متهلل الوجه طموحا ، يحمل على كفه بيضة حمام منقورة القشرة ، فى داخلها جنين يحاول ان يرى النور ، شممت رائحة زغبه الطفولى العذب ما زالت تبلله مياه الميلاد فى لحظاتها الأولى .. وفى خفقة واحدة شق الجنين البيضة الى نصفين . وتبينت عن قرب ملامحه الوسيمة الرقيقة ، جناحيه ومنقاره ، ورأسه ، وعينيه المغمضتين الذابلتين ، ثم ساقيه الغضتين . لقد كان يجاهد ليأخذ مكانه تحت الشمس ، ساخرا مما يجرى حوله .

العصفورة

كل الأحزان تتراكى فى نفسى . احزان قديمة منذ الطفوله تطفو على السطح ، واحزان جديدة ما زال لهيبها ينمو فى القلب ، واحزان يومية ، أشارك الناس فيها . والهموم ثقيلة ، اذا استطعت ان أزيح واحدة منها ، زحفت المتوارية منتهزة فرصة الهجوم المفاجىء . عينى الشمال ترف ، وشىء كئيب .. كئيب .. كحصوة الرمل السوداء يغشى عينى الأخرى .. وقدماى مثقلتان ، أصبح لخطوهما وقع الجنازات فى يوم مطير اهوج .. من لى بمنقذ ينقذنى ؟ .. انى فى انتظار عذاب كل يوم ، قطار الصباح . لا اعرف متى يجىء ، ولا كيف أندس بين ركابه . كل شىء أصفر بلون رمال الصحراء الموحشة المهجورة الا من بقايا قبور .. احجار المحطة صفراء .. الوجوه امامى صفراء .. السماء صفراء .. الشجرتان اليتيمتان صفراوان .. وطعم مر فى حلقى رغم انى لم أضع طعاما ما فى فمى فى الصباح .

المكان والزمان والمخلوقات ، ككرة منبعجة ، لا معنى لها ولا طعم ولا رائحة . حاولت أن أشد نفسا نقيا من الهواء ،

فزكمت انفاسى رائحة الموت . شعرت بالدوار . اغمضت عينى حتى اتفادى العاصفة .. وحين فتحتهما ، كانت على القرب منى عصفورة سمراء .. رأيتهـا تدب برقة بالغة على أرض المحطـة المزخرفة . تعجبت لأنى أرى اللون الأخضر لأول مرة . كانت العصفورة تقفز بخفـة ولطف حولى .. رمقتنى بعينيها الجميلتين الوادعتين . لمست احزانى بقلبها الطفولى العذب . قلت فى سرى: ولو .. لكنهـا ظلت ترفرف وتقفز مجددة حزمة الهواء الصغيرة بجوارى ، تنقر احزانى بمنقارها ، تحاول أن تزيل كابوسا عن صدرى .. وفى لحظة هزت ريشها الأزغب الخفيف ، ثم حلقت فوق راسى . رفعت عينى اليها ، وهرجلة من البهجة المفاجئـة تتسلل الى صدرى متحدية الأحزان الكثيفة .

صوم على الطريقة الطفولية ...

حلمقت فى ابنتي قائلة : أنا عاوزه أصوم بكره يا بابا .. قلت لها : لما تكبرى يا حبيبتى . ضربت الأرض بقدميها وساقيها ، واكتسى وجهها بطبقة شفافة من الغضب ، كالطبقة التى تتكون على اللبن الحليب قرب فورانه على النار .. رأيت الدموع فى حدقتيها .. آثرت الصمت .. لكنها عادت تلح من جديد :

ـ اشمعنى انت تصوم .. اشمعنى ماما ؟ ! ..

قلت :

ـ أنا كبير يا نانا .. وماما كبيرة ! ..

قالت :

ـ وانا كمان كبيرة ..

ـ طيب من بكره ان شاء الله تصومى ..

– تصحينى فى السحور بقى ؟ ! ..

وتكسرت طبقة القشدة الخفيفة من على وجهها الصغير . نزلت دموع الفرح تغطى وجنتيها .. شعرت بالانتصـــار . طوقت عنقى بساعديها وقبلتنى ..

كانت نانا واسـعة العينين . حلوة التقـاطيع .. ترتدى فستانا ورديا لطيفا . عمرها خمس سنوات . مازلت أذكر يوم ولادتها .. وصيحتى فى ساعة الفرج .. ولد واللا بنت ؟ ! وكانت قطعة من اللحم الطرى الشفاف ،تبكى بحرارة . أخذتها بين يدى أتأملها . .يستحيل أن أصف فرحتى سـاعة ولادتها . شىء لطيف مدهش وغريب يجتـاح كيانى ، يحق لى الآن أن أفخر .. لقد أصبحت أبا لأول مرة .. ويوما بعد يوم تكبر نانا .. وتكبر الذكريات معها .

ويجيئنى صوتها :

– خلاص يا بابا .. حتصحينى فى السحور ؟ ! ..

– ان شاء الله يا نانا ...

– وان ما صحتنيش ؟ ! ..

– لا .. ان شاء الله حصحيكى ...

– لكن احنا بنصوم ليه يا بابا ؟ ! ..

– عشان الصوم فرض يا نانا ...

– يعنى ايه فرض يا بابا ؟ ..

– يعنى ضرورى نعمله يا حبيبتى ...

وفى السحور وجدتها أمامى ما زال النوم فى عينيها . لم يوقظها احد . قامت على صـوت المسحراتى .. وقفت أمامى تتحدى .. لابد أن أصوم .. حاضر يا نانا .. أكلت ثم نامت ..

وفى الصباح طوقت عنقى بقبلاتها فرحة مسرورة . راحت تقفز فى أرجاء البيت كالعصفورة . وجرت الى تقول :

ـ الواحد يصوم عن الميه برضه يا بابا ؟ ! ..

ـ طبعا يا نانا .. انت عطشانه ؟ ! ..

ـ لا .. أبدا .. ابدا ..

ـ اشربى لو كنت عاوزه ..

وقرب الظهر قرصها الجوع والعطش . احسست بأمعائهـا تتلوى . جف ريقها .. ثقل راسها فوق جسدها . رأيتها دائخة تنظر حولها ، لا تريد ان تفصح عن ألمهـا . لكنهـا تسللت الى الداخل . رفعت قلة المـاء على فمها ، فشربت ، ضحكت فى سرى . تجاهلت رؤيتها . عادت تقول بسذاجة :

ـ الميه بتفطر يا بابا ؟ ! ..

ـ آه بتفطر يا نانا ...

وسكتت . نكست راسها الى الأرض . كانت تهرب من امامى . رفعت راسها .. حدقت فى عينيها الصافيتين الحلوتين الواسـعتين .

كانت أطياف الدموع تترقرق فيهما .

وعند العصر لم تستطع أن تتمالك كيانها . جرت تأكل ، ثم تشرب مرة اخرى . كنت أمسك بجريدة فى يدى أقرؤهـا ، فرفعتها الى عينى . سمعت كركرة القلة فكدت انفجر فى الضحك ،

ولكنى صمت . رفعت صــوتى فى قراءة الجريدة حتى أتظاهر بالمشغولية . وطلعت هى بعد دقائق .. خجلى موردة الوجنتين .. تبتسم .. احسست هذه المرة أنها لا تستطيع أن تدارى ما فعلت. لم أسألها عن شيء . همست لها فى مودة :

ـ انت جعانه يا نانا ؟ ! ..

قالت وهى تضحك :

ـ لا .. أبدا .. ابدا ..

ـ امال باين عليكى ...

ـ لا .. أبدا .. ابدا ..

وعند الفطور قعدت معنا تأكل . كانت شهيتها فاترة . تمد اصابعها بتكاسل . قالت :

ـ آكل ايه الأول يا بابا ؟ ! ..

ـ كلى بلح يا نانا ..

ـ اشمعنى بلح يعنى ؟ ..

ـ عشان الأولياء كانوا بيفطروا عليه ..

ـ يعنى ايه أولياء يا بابا ؟ ! ..

ـ يعنى ناس طيبين ..

ـ وناس طيبين يعنى ايه ؟ ! ..

ـ يعنى بيقدموا الخير للناس ..

ـ طيب هم فين .. انا عاوزه اشوفهم ؟ ! ..

ولم استطع أن أجيبها ، وقفت الكلمــات فى فمى . صمت عاجزا ماذا استطيع أن اقول لك يا نانا ؟ ! ..

المهاجر الصغير

فجأة انعطف قلبى نحوه .. تطلعت الى عينيه الذكيتين الشقيتين ... أعرف « لحظى » منذ مدة طويلة ، صبى صغير فى حينا .. يعرفه كل الأطفال الذين يقفزون على الدراجات ليتعلموها . يلعب أمامهم ألعابا بهلوانية . كان يركب على الجدون ، أو « يبدل » بيديه ، أو ينام على الدراجة لمسافة طويلة .. ولد أسمر كطين مصر ، يتمتع بظرف ومرح يستطيعان أن ينزعا من القلب الاكدار . على شفتيه ابتسامة طفولية عذبة لم تفقد بكارتها بعد . تعلم أسلوب الكبار وتهذيبهم فى التعامل مع الناس . شيء ما يجذبنى الى هذا النوع من الأولاد ، ربما لنضالهم المبكر فى الحياة ، أو لأنهم يتمتعون بشقاوة مهذبة . وكانت العلاقة بينى وبين « لحظى » عادية فى هذا الاطار . لكن بمرور الأيام أصبحت اريد أن أراه بين الحين والآخر ، كنت اسأل ابنى ان كان يريد أن يركب الدراجة أم لا ؟ ! ومع ذلك لم أفكر ان المسألة سوف تخرج الى هم دفين أتحمله من أجل « لحظى » .. فقد شعرت انه يناديني دائما « بيا عمى » وينادى

زوجتى « ياخالتى » ، اذن لقد نقل هو علاقتنا الى ود عـائلى لطيف .

وفى تلقائية عابرة سألته :

ـ انت منين يا لحظى ؟ ..

أجـاب :

ـ من السويس ...

ـ يعنى مهاجر ...

ـ آه ...

ـ وسنك كام سنة ؟ ..

ـ عشر سنين ...

ـ وبتحب السويس والا حلوان ؟ ! ..

ـ السويس طبعا ...

ومن ساعتها بدأ « لحظى » يعيش معى . لا يغرب طيفه عن عينى .. ماذا استطيع أن افعل له . هو لا يريد منى شيئا . انه سعيد فقط لأنه يناديني بياعمى ، وينادى زوجتى بياخالتى . لم أسأله عن أمه وأبيه . فربما فجعتنى اجابتـه ، وربمـا لم تفجعنى . المهم اننى قانع بهذه العاطفة التى يحملها الى ، وهو ايضا سعيد حتى ولو للحظة عابرة بالعاطفة التى أبديها نحوه ، لكن ماذا تفيد العواطف .. ماذا تفيد ؟ ! ..

الحـــذاء ...

فرحان كنت فى ذلك الصباح الجميل . أسحب ابنى الصغير الى محل الأحذية . بعد أيام تدب قدماه على أرض المدرسة لأول مرة .. كان يقلد الكبار الذاهبين اليها مرات عديدة . أطلب له أصغر حذاء ، فيعتذر لى البـائع برقة . ارجوه ان يبحث جيدا . يروح ثم يجىء وفى يده واحد أسود لميع يضـع فيه الصغير قدمه فتسبح القدم فيه كالقارب . اتبادل معه بسمة عابرة . يلبى طلبـا لمشتر آخر . أنادى عليه مرة واثنتين دون جدوى ، أقوم اليه متضايقا ، فيعتذر لى ، يرفع كلمـة حاضر على شفتيه دائما ! نخرج معا الى « فاترينة » المحل لأريه الحذاء الذى اخترناه فى البداية .. مجموعة من الفلاحين يتطلعون اليها مثلى ، فى أيديهم أولادهم الحفاة ، ربما يضعون أول حـذاء فى أقدامهم . وصبى صغير أسمر البشرة . لوحت الشمس جبهته يقف هو الآخر ، له عينان ضيقتان نافذتان يغرزهما عبر زجاج الفاترينة .. على حذاء بعينه . كان حافى القدمين ضامر الجسم ، يرتدى جلبابه الرقيق على اللحم . يحمل على صـدره بعض

الواح الخشب . خمنت انه صبى نجـار أرسله معلمه فى مهمـة سريعة فانحرف هو يتفرج على « فاترينة » الأحذية . انقبضت نفسى حين عدت الى داخل المحل لأبحث عن الحذاء الملائم . لمست يد البائع قدم ابنى ، فاذا قدم الصبى فى الخارج تتجسـد فى عينى . تواجهنى عيناه الضيقتان الذكيتان اللتان تصلبتـا الى داخل الفاترينة . انسجم الحذاء فى قدم ابنى الصغير . ذهبت لأدفع فاتورة الحساب . فاذا قوام صبى النجـار امامى عبر الزجاج ما زال يبحلق . اراح عن ذراعيه ألواح الخشب . سحبت ابنى خارجا والحذاء تحت ابطى ، انحرفت ببصرى الى الناحية الأخرى حتى لا أرى الصبى الصـغير . مشيت خطـوات فاذا فضولى يرجع رأسى الى الخلف .

وقفت دقائق عل الصبى الصغير يترك الفاترينـة . فلم يفعل .. بل ازداد اقترابه من الزجاج .. التصق به تماما .. كان يمسحه بكف يده . بكى طفلى من هـذه الوقفة المملة .. مشيت بظهرى خطوتين ثم ثلاثا .. ثم عـادت الى انقباضـة الصدر من جديد . شىء ما يعتصر فرحى فى قلبى . قفز الصغير فى يدى اليمنى يريد أن يحمل حذاءه . أعطيته له ، لكنى كنت امسك بيدى اليسرى طفلا آخر أسمر حافيـا غشيت عينـاه بزجاج كثيف ، يرقد خلفه حذاء لامع جديد .

قــاتل زوجته ...

كان ياما كان فى سالف العصر والأوان حمامتان ، ذكر وأنثى يعيشان فى التبات والنبات ، ولهما أولاد وبنات . الزوجة تخلص فى عملها بالعش ، والزوج يطير باحثا عن الرزق على الأشــجار وفى باطن الأرض . . الى أن جاء يوم تعكر صفو الحيــاة بينهما . . فانتحى كل واحد منهما جانبا لا يكلم الآخر . وتحاشيا أن يناما فى فراش واحد . . وحمحم الصغار ملهوفين لمعرفة ما يحدث . .

قال الزوج لزوجته :

ـ ألم أقــل لك . . ما الذى جعــلك تأكلين من هـــذه الحنطــة ؟ ! . .

قالت الزوجة :

ـ لم آكل منها شيئا . . .

ـ اذن ما الذى أنقصها الى هذا الحد ؟ ! . .

وكان الزوجان قد اختزنا بعض الحنطة فى الصيف حتى يأكلاها فى الشتاء . وكان الزوج قد راح يبحث عن غذاء فطال غيابه . فلما رجع عاد وفتح على صومعة الحنطة فوجد حبوبها ناقصة . فثارت ثائرته ، وامسك برقبة زوجته يعنفها على ما فعلت . فقد اكلت الحنطة المخزونة . فرجته أن يتركها ، فلم تأكل شيئا من الحنطة ولم تفتح صومعتها أبدا .. لكن الزوج أصر على معاقبتها .. فكان ينقرها فى رأسها كل يوم ، يقيدها من ساقيها فى الصباح . يرى الدموع فى عينيها فلا تؤثر فيه تستعطفه فيعرض عنها بصلافة . ولاحظ عيالها هذه المعاملة القاسية ، فانكمشوا تحت جناحيها صابرين . وفى كل لحظة كان الأب كلما واتته الفرصة يضرب زوجته ، الى أن كانت لحظة كئيبة ، انفجر فى راس الأم جرح كبير ، لم يعبأ به الزوج ، بل ظل ينقرها فيه من جديد ..

ومع ذلك كانت الزوجة تتحامل رغم آلامها العظيمة لترتب عش الزوجية ، بل تطير باحثة عن الطعام . وفى ذات مساء رقدت متأثرة بجرحها النازف ..

طلبت منه جرعة ماء فرفض أن يناولها شيئا . حاولت أن توضح له ما حدث ، فأدار لها ظهره . عاف الكلام معها ، فعافت الكلام معه .

وعند الفجر انتفضت انتفاضة الموت ، ارتعشت ثم هدأت الهدأة الأخيرة ..

وفى الصباح استيقظ الزوج ليراها جثة هامدة . وكان الصيف قد ولى وجاء الشتاء ، فجرى الى صومعة الحنطة يفتحها ، فوجدها عامرة . تعجب فى نفسه ، ثم فكر فى الأمر

طويلا ، فعض أصبعه حين تذكر أن الحنطة كانت تضمر فى الصيف ، فلما جاء الشتاء عاد اليها رواؤها . واذن ، فلم تأكل زوجته منها ، ولم تفرط فيها . هفهف حولها حزينا يائسا مما حدث . فماذا ينفع الندم الآن ؟ !

مسح جبينها بكفه ، ثم قبلها قبلتين . وأومأ اليها بدموعه يتأسف عن الآلام التى تحملتها . يمم وجهه الى أحد فروع الشجرة باكيا . وطارت اليه الطيور من كل حدب تؤنبه على فعلته الشنيعة .. وتوعدته الاناث بالعقاب . أما الذكور ، فقد خجلوا مما حدث . لم يستطيعوا أن يرفعوا عيونهم الى أعلى . وهبت على الشجرة ريح عاتية . كادت تقتلعها . ومن ذلك الحادث المشئوم ، وكل الطيور الوديعة تطلق على ذكر الحمام الشرير .. قاتل زوجته ...

الخـروف والطفـل ...

في البكور شعر على بحركة غير عادية تجتاح البيت . هب من نومه مذعورا . خفق قلبه فى صـدره ، مسح عينيه بيديه كانت العائلة مجتمعة أمام خروفه ورجل طويل عريض يقف وفى يده سكين كبير ، وعلى ملابسه بقع دم . اندهش على من المنظر.. اقترب من الخروف يلاعبه كالعادة .. لكن الخروف كان واجما، حك جلد راسـه ، فلم يعره التفاتا .. تحسس وجهه .. أصبحت عيناه فى مواجهـة عينيه .. أول مرة يرى فيها عينى الخروف عن قرب .. كانتا صافيتين واسعتين .. قبل جبينه ذا الشعر الأبيض المندوف .. ملس على فروته الناعمة .. ركب فوقه وهو سعيد .. تطلع الى أبيه وهو يقول :

ـ مالكم واقفين كده يا بابا ؟ ! ..

سكت أبوه لحظة ثم قال :

ـ النهاردة العيد يا على ...

ــ طب مالكم ومال خروفى ؟ ! ..

ارتبك الأب .. لم يستطع أن يفتح فمه بكلمة .. استراح على مقعده يفكر .. كيف يشرح له الموضــوع .. انها ذكرى فداء سيدنا اسماعيل .. لن يقتنع بها بسهولة .. منذ شهور وابنه على يقدم البرسيم للخروف كل صباح ، يلعب معه فى كل الأوقات .. وحين يعود من الحضانة يطمئن عليــه قبل أن يخلع ملابسه . يخرج معه فى نزهة خلوية يومية . رمى خروفه المطاط . وأصبح له خروف حقيقى ، يصادقه ويحبه ، ويتحدث عنه فى المدرسة . يحلم وهو نائم انه هرب . فيستيقظ مذعورا يجرى الى السطح ، فيجده يغط فى نوم عميق ، يرمقه بنظراته ، ثم يعود الى سريره هانئا ..

الآن تنتظر العائلة ذبح الخروف حتى تنقض عليه شويا وتحميرا وشوربة ! هــذا العيد عيد اللحم .. ولم يمهله الابن للاستمرار فى تأملاته . كان قد خاف من الجزار الواقف أمامه . ادخل الرعب الى قلبه .. هتف فى أبيه :

ــ الراجل ده جاى هنا ليه يا بابا ؟ ! ..

لم يجد الأب الا مصارحة ابنه ، فقال :

ــ حيدبح الخروف يابنى ...

قال على :

ــ يدبحه ازاى يعنى ؟ ! ..

قال الأب :

يذبحه عشان ناكله ! ..

ولم يكن على يفهم شيئا مما يقوله ابوه . ظل ممتطيا ظهر الخروف .. لكن أباه حمله بين يديه بعيدا ، ثم بدأ الجزار عمله .. قيد أرجل الخروف .. سن سكاكينه وسواطيره ..

رفع جلبابه الى اعلى .. لمعت عيناه ببريق حاد .. طلب من الحاضرين أن يساعدوه فى لوى عنق الخروف . انسرقت روح الطفل من جسده الضعيف . انهار على أقرب مقعد بجواره .. أغمض عينيه حتى لا يرى ما يحدث .. سمع استغاثة صديقه الملتاعة بفحة صوت الجزار الكئيب الجاف .. ردد الصدى صوت خوار واهن .. فتح عينيه خائفا .. اغلقهما من هول ما رأى .. ثم بحلق أمامه مذهولا .. كان صديقه ممددا على الأرض ..

دمه مختلط بالتراب ، عيناه جاحظتان .. بيضاوان جامدتان .. فروته باردة كالثلج .. أقدامه متصلبة .. وكانت احدى قنوات الدم قد سالت حتى كادت تلامس ثيابه .. فتراجع سريعا .. ثم تصلبت حواسه .. ثم سقطت من عينه دمعة كبيرة حارة .. اتبعها بصرخة حادة .. ثم وقع على الأرض مغشيا عليه .

الكتكوت الفصيح ..

لم نكن نلتفت اليه ، ففى البداية كان يتوه داخل المجموعة كلها . بكى الابن ، فأرادت الأم أن تسترضيه ، اشترت له عشرة كتاكيت . قـــال الفرارجى : ان عمرهـــا لا يزيـد على يـوم واحـد ..

شاعت البهجـة فى البيت ، تحلق الأبنـاء حول الكتاكيت الصـغيرة .

ما زالت سيقانها الغضة لا تقوى على حملها . تفتح عيونها بصعوبة . مخلوقات جميلة ولطيفة . باتوا ليلتهم فى صـندوق خشبى دافىء . كانت الأيام أيام الشتاء الباردة ، ولم يمض وقت طويل حتى بدا الموت يتسرب اليهم . غرق احدهم فى علبة المـاء التى يشربون منها . وكان هنـاك واحد ضعيف لا يعرف سـببا للانكماش الذى لجأ اليه ، ودع هو الآخر .

وحدثت معركة عنيفة على حبة قمح تمخضت عن مصرع الكتكوت الشركسى الوحيد .. وهكذا .

وبقى ثلاثة كتاكيت على مطلع الربيع ، أعطتهم الشمس من دفئها ما جعلهم يشدون حيلهم . كانوا لعبة الأولاد المفضلة يقعدون بجوارهم بالساعات يلاحظونهم وهم ينقرون الأرض بحثا عن الطعام ، أو يلجأون الى الشمس هربا من البرد ، أو يجرون الى أم الدار عندما يرونها ، يشدونها من ثيابها طلبا للطعام . ما أحلى نومهم اللطيف وهم يتكومون فى ركن الصندوق وادعين مسالمين ! . غير أنه فى صباح جديد لاحظت العائلة الذبول على أحد الكتاكيت الثلاثة .. خشى الأولاد أن يختطفه الموت كبقية أقرانه . الآن يستطيعون أن يميزوا بينهم بسهولة ، يعرفون طباعهم ، ظهر من بينهم ديك له عرف أحمر ، يتميز بشقاوة غريبة . لا يهدأ عن مشاكسة الآخرين . ينقر أى واحد يقترب منه . يقفز من الصندوق الى أرض الحجرة . لفت اليه الأنظار . وحاولوا أن يطيبوا جراح العليل . عزلوه ، ثم قدموا له طعاما خاصا . غير أن الحياة كانت تودع جسده الضعيف . وصفصفت الحكاية على اثنين ، وجها لوجه . أحدهما لا يكف عن الحركة والآخر هادىء وديع .. وبدأ العراك بينهما على أشده . كل واحد يريد أن يستأثر بكمية الطعام الملقاة ، يزيح زميله عن اناء الماء . وكان الأطفال يعرفون الكتكوت الهادىء بدائرة بيضاء على رأسه . أما الآخر ، فلونه بنى غامق ، يكبر عرفه يوما بعد يوم . ولم تمانع صاحبة الشامة البيضاء فى عقد لواء الزعامة لصاحب العرف الأحمر ، فقد ظهرت عليها علامات الأنوثة : الانزواء والسعى الوديع الى قلب قرينها ، لكن الديك الفصيح تقوقع فى عالمه . ولم يعد يسمع أو يرى أو يتحدث . وظل

بنقر قرينته الى أن استكانت مستضعفة . حاولت أن تقاومه فى البداية ، لكنه شدد هجومه عليها . فسقطت من الاعياء . وتحلق الأولاد مشفقين عليها . قدموا اليها بعض الحبوب فلم تقو على التقاطها ، قربوا لها الماء ، فعافت نفسها الماء .. وكان أذان الديك الشقى يدوى فى آذانهم ، فيحولون عنه أسماعهم ، غير ان الصوت يخترق كل الحواجز معلنا انتصاره.. والأطفال صامتون مذهولون لا يدركون سر هذا العالم العجيب ! ..

فنـــان ...

ليلة أمس لم تغفل عينا حميدة لحظة واحدة ، ظلت تحلم احلاما وردية لطيفة ، تقلبت على جنبيها فى الحدائق الخضراء .. لعبت وفرحت من أعماقها .. شهقت من المفاجأة المنتظرة التى أخبرها أبوها بها . غدا ، سـوف يزورنا المغنى الكبير الأستاذ وحيد . تعب أبوها فى دعوته فهو زميـل الدراسـة القـديم وبلدياته .. جفلت حميدة فلم تصدق أذنها وهى تسمع . حشدت نفسها لمـلاقاة القادم العظيم . أحقا سـوف تراه ؟ ! .. هذه ليلة القدر بالنسبة لها .. طالمـا أرقها وأضناها الأستاذ وحيد بصوته العاطفى المجروح .

وهى نائمة .. مستيقظة .. تركب الأوتوبيس .. تتحدث مع أى انسـان .. كانت تلقط كلماتـه ، تأخذها الدهشـة .. يعتريها نوع من الصمت المذهل .. تسلم له كل نفسـها .. ويافرحتها عندما تضـع رأسها على وسادتها لتحلم معه وتترنم عندما تتحـدث عن الحب .. يفوت على العين ويصحيهـا ..

ويصحيها من عز النوم .. الآن .. بعد لحظات .. كل العائلة فى انتظاره .. ابوها فى كامل ثيابه الرسمية .. وامها تكاد تطق من الفرحة .. واخوتها وراء شيش النافذة يريدون أن يلمحوه من بعيد .. وفى الخـارج رغم ان الخبر ما زال سرا .. يقف الأطفال مندهشين منتظرين .. وفجـأة تسمع الضجة .. كل يريد أن يسلم على المغنى الكبير .. وبصعوبة ينزلق من عربتـه والأيدى تتخاطفه من كل جانب .. ينتزع نفسه بشق الأنفس .. وفى النهاية يستقر به المطاف..يقدم له رب العائلة اولاده وزوجته.. يبتسم بوجهه كله .. الآن راحت السكرة وجاءت الفكرة . يندلق الأستاذ وحيد بجسده المترهل على مقعده كالفيل .. تعجبت حميدة من المصادفة الكئيبـة التى ما كانت تتوقعهـا .. كانت تتصوره نحيفا لطيفا وسيم المظهر .. فاذا بكرشـه أمامه كأنه وابور زلط ..

هذا الذى يتغنى بالعيون والأهـداب والقلوب ماذا حدث له ؟ ! اغمضت عينيها تستعيد بعض أغانيه ، فلم تستطع .. تاهت نظراتها فى القادم العظيم . رائحة سيجاره لا تطـاق .. وشفتاه المتهدلتان تتدليان بكسل واضح .. لم يلتفت اليهـا بنظرة واحدة .. غرق فى مقعده الى الآخر .. انه فى انتظـار الغداء .. يتلمظ منذ أن شم رائحـة الطعام تفوح من الداخل.. مد ساقيه مسترخيا .. كاد يغط فى نوم عميق لولا اصرار رب الأسرة على الترحيب به . ايقظـه اكثر من مرة بتكرار تحياته وسلاماته ! .. قدم له حميدة فخورا بها ..

ـ ابنتى حميدة .. بتموت فى اغانيك ...

أومأ علامة الرضا ، لكنه لم يتكلم كلمة واحدة . شملهـا بنظرة طويلة من اعلى لأسفل كناظر المدرسـة . قام الى مائدة

الطعام بخطو بطيء . جلس فى الصدارة ، انقض على الطعام كأنه لم يأكل فى حياته .

سقطت حبات الأرز على سرواله . وقفت قطعة من العظم فى زوره ، فدلق رطلا من الماء فى جوفه ، خبطوه على ظهره حتى تسقط أو تخرج العظمة . ما زالت العظمة فى زور الفنان .
وحميدة ما زالت مذهولة من ضياع حلمها الجميل ! . .

((تمت))



الجرح والوردة ..



كلمة صغيرة

في الطريق من حلوان الى القاهرة كنت أدون فى مذكرتى الخاصة بعض الخواطر التى تسلينى لقطع الملل خلال المسافة الطويلة ، ولأنى كنت متعبا الى آخر المدى ، وجدت القلق يدفعنى ان أسأل نفسى : هل انتهيت ؟ ! . فى تلك اللحظات كان الموت قريبا منى جدا . الدم محمل بالسموم ، ورأسى خامد ، والأورام تنتشر فى جسدى ، والألم يحتوينى كلى . كنت احاول ان أدفع اليأس عن قلبى وعقلى بمحاولات صبورة مستمرة ، لكن هجمة الموت أقوى منى . ودخلت فى عالم آخر ، له تقاليده وسماته وأحزانه . الدم والابر والأنابيب والتخدير والتحاليل والآهات والوجوه الصفراء وطلب النجاة ... الخ . وفى اللحظة الأولى التى وضعت فيها حقيبتى فى المستشفى أمسكت قلمى ، لأهرب من عالمى الجديد . صممت أن اخترق الاكتئاب الذى يلازمنى . عدت الى أيام الطفولة والشباب المبكر وايام القاهرة فى الخمسينات ، حيث كانت تعج بالموهوبين من كل صنف ... ومررت على كل الأماكن التى جاست فيها قدماى . ولم يكن

همى أن أكتب قصة أو مقالة ادبية أو حتى يوميات فى الصحيفة .
كان همى ان افلت بجلدى من الموت المؤكد الزاحف الى . والى
هذه اللحظة وانا أدفع العدم عن روحى وجسدى ، وكل المعانى
التى ترسبت فى عقلى ونفسى ووجدانى ، على مر السنين . ولعل
كتابة القصة القصيرة كانت فرحة العمر الدائمة فى حياتى .
وهذه الفرحة المستمرة تتكرر منذ عام ١٩٥٣ الى الآن ، وحتى
فى أحلك الأيام ، فان الاستغراق فى كتابة قصة قصيرة يخفف
الهموم . وليس هدفى أن أتحدث عن معنى القصة القصيرة
ودورها فى أدبنا العربى وتاريخها وكتابها . فهذا الفن الجميل
المكثف الشاعرى الواقعى ، قد أعطى أدبنا نكهة مثمرة . وربما
كانت متعتى فى القراءة لا تقل عن لذة الكتابة . ومن حسن
الحظ أنى عملت فى الصحافة الأدبية سنوات طويلة . أما الأساس،
فهو هذه الحياة الممتدة التى عشتها بين الفلاحين فى الريف
المصرى ، وتجارب العمر ذات الطعوم المختلفة . والكاتب يتذوق
ويمتلىء بالتجارب الحية كما يتذوق ويعرف وينضج من خلال
الثقافة ، ومن الدعوات الاجتماعية العامة ، الى القيم والمعانى
التفصيلية التى تصبح حبيبة الى قلب وعقل الفنان ، تدرجت فى
هذا الطريق . ان كل انسان عالم قائم بذاته ، مهما بدا من
السطح أنه يتفق مع الآخرين . والنفوس البشرية ذات أعماق
بعيدة ومعقدة؛ وليس هناك احكام قاطعة على الأعمال الأدبية
الجيدة ، فكلما مر الزمن عليها ، اكتسبت طعما وقيمة
متجددة . وبصراحة أقول : اننى لم أشبع بعد من رحيق هذا
الفن الأخاذ المشع . ولعل ما يثلج الصدر فرحا ، أن فن القصة
القصيرة اصبح له تاريخ ممتد من أدبنا العربى ، وله أيضا
قراؤه المعجبون به ، وله كتابه الذين يخلصون ، له وأنا واحد
من العاشقين او المحبين احاول ان اتعبد فى محرابه . وقد منحنى

هــذا الفن المعنى ، فى وقت كان هجوم الموت قاســيا وعنيفــا وصفيقا . عدت أكتب القصــة القصيرة من جديد . أتبتل عند مقامها . بعد أربع مجموعات قصصية هجم الذى لا يذكر اسمه ، ثم كانت مجموعتى الخامسة « عابروا سبيل » ، التى صــدرت عام ١٩٧٥ . وها هى مجموعتى السادسة ، ومن يدرى ربما كان فى العمر بقية لنواصــل حب هذا الفن الجميل . ومن تجربتى أقول : ان كتابة القصة تحتاج الى الدمع والدم قبل أن تحتاج الى التزويق والزخرفة .

وربما كانت قصة تقريرية مباشرة أروع عشرات المرات من احدث قصة تكتب بصيحة جديد . انى أهتم بلحم الواقع وعروق الأمل التى تبزغ منه ، رغم تناقضــات هذا الواقع ومشكلاته . ايضا اعتقد بتفتح زهور وألوان القصــة على أقلام الكتــاب . وكلمــا ازداد هــذا التنوع ، ازدادت قصتنا العربيــة الحديثــة ثراء وخصــوبة وتأثيرا . وانى اعرف زملاء لنا فى السودان والعراق والمغرب العربى والجزائر وليبيا وسوريا قد بلغوا مراقى عاليــة فى فن القصــة القصيرة . واصبح لكل واحد منهم اسلوبه المميز ، وروحه الداخلية ، وقضاياه وهمومه التى يطرحها من خــلال قصصه . ولقد انتقلت أنا نفسى ، من كتابة القصــة الواقعيــة المباشرة ، الى القصة الواقعية الشعرية ، لكنى أعتقد فى النهاية أن التصنيف المتعسف للقصة على اساس مدارس نقدية يظلمها . وربما يسد الطريق امام تطور الكاتب ونضجه . فالفن عمليــة ابداع وخلق مستمر . وايضــا ، فان الرومانسية تكمن فى أعماق الواقعية . وما من عمل أدبى عظيم الا ويجمع بين اعطافه الواقعية والرومانسية معا . أيضــا نتخلل عروق التجريدية والسيريالية والعبثية الواقعية . وكما تفاجئنا الحياة بدموع الفرح والبكاء فى آن واحد معا ، فان القصــة يمكن أن تجمع هذين النقيضين

معا . وكما ينبثق الفرح الانسانى من درقة الأحزان الصلدة ، فان القصة تبزغ من معاناة الفنان وعذابه ، حية ومفعمة بالأمل.
ونحن نكتب لنغير من صورة الواقع المختلفة ولنكثف قيم العدل والحرية ولنحتفظ بنقاء وصدق وتلقائية طفولتنا . ولا أحد يعرف لماذا نكتب ؟ . فالفن هو الداء والدواء معا . هو العذاب والفرحة ، هو الضرورة الحتمية كالحرية لبنى البشر .

وفى كلمتين ، نحن نكتب لنتمرد ونثور على الواقع ونهندس الأرواح البشرية ، ولنمحو الاستغلال والاستبداد ، من على جبين الانسان ، وننفر أيضا من صورة القبح والابتذال والسطحية والغلظة والصفاقة ، التى يزخر بها الواقع . ونحن أيضا نصمت فى بعض الأحيان ، حين تفقد الكلمة معناها وتزيف ، وتصبح وسيلة تضليل وخداع وكذب فى أيدى الكتاب .

والقصة القصيرة فى النهاية هى بناء عمر ، وذكريات أيام ، ونبض حياة مستمرة ، ومعنى وتجارب وثقافة ومعاناة .
وعفوا لأنى لا أستطيع أن أقول شيئا عن القصص التى بين يدى القارىء الآن . فهى منه واليه ، مضافا اليها محبتى .

فاروق منيب

مارس سنة ١٩٨١

هارو ـ المملكة المتحدة

النجم الصغير ...

فى قوقعته كان وحيدا يتأمل ما حدث . لا شىء يطفو على السطح . ذرات من الألم والجراح ، كلها مخزونة فى داخله . أسرار عميقة لا يعرفها أحد . لماذا يجتر الذكريات بهذه الطريقة ؟ ! . لم يتعود على الكتمان ، أو الروح المخنوقة . فى الطفولة والصبا كان بحبوحا . قلبه يفيض بحب البشر . الآن تضيق الدائرة من حوله . وحده بين الجدران والألوان الداكنة . سجن انفرادى ، مقيت يود الهروب منه . أطياف اليأس ترفرف حوله ، تدف بأجنحتها الكئيبة . دفق اللحظات لا يعطيه ما يريده، من الأمل والحب والقوة . استمر ينحت ويقلب فى الذكريات ، حتى هذه أصبحت اسطوانة مكررة لا يطيق الرضوخ اليها . البرودة تجتاح صدره . تفر منه حلاوة المفاجأة ، ودفء الصداقة والمعارك الحامية . أصبح يسبح فى نهر الهزيمة الشريفة . بزغ له نجمه من وسط الركام . رحب به ، محتضنا اياه . تبادلا العتاب من خلال مودة العمر . قال له : عذبتنى يا صغيرى .

خفف على أرجوك . نظر اليه النجم البازغ مبتسما وضاحكا ومشرقا :

ـ عفوا يا بابا ، لا اقصد شيئا .

أجلسه قبالته وراح يتأمل وجهه ... كان ناعما ودقيقا ، وفى لون اللبن الحليب . خفق الفرح فى قلبه . تفتحت طاقة الجمال فى روحه . امتلأت نفسه بالرضى والشبع . سبحان مغير الأحوال. دنيا كتبت علينا . العينان فى العينين والاحساس فى الاحساس ، وخيط رفيع مشدود الارادة ، يربط الأب بابنه .

قال له النجم الصغير :

ـ متى تشترى لى الحصان ؟ ! .

قال الأب :

ـ قريبا ان شاء الله ...

قال النجم :

ـ لا ... اريد أن أعرف الآن ...

قال الأب :

ـ فى عيد ميلادك ...

الآن يسبح النجم فى عالمه ، بينما يجدف الأوب ليخرج من قوقعته . الأطفال احباب الله . ضحك الأب فى سره . من قال هذا ؟ . الأطفال أحباب اللعب والشقاوة والشجر والطيور والأنهار والحيوانات والمكر فى بعض الأحيان . ندم على انانيته المفرطة . تذكر يوم ميلاد النجم الصغير . كانت الغارات تجتاح أرض

البلد . جاءت ساعة الطلق الحاسمة للأم مع لحظة انطلاق المدفع المضاد للطائرات . وكلما ازداد عناء الأم ، ازدادت الغارات كثافة وحدة . مسح وجه الأم المجهد بحبات العرق الكريستالى اللامع . وأخيرا انبثق النجم مبللا بدمائه وصرخاته . كان يتحدى القنابل والصواريخ القاتلة . فتح عينيه على الواقع . ضرب الهواء بيديه . قطعوا له الحبل السرى ، ثم طببوا جراحه . هدأ ليلتهم ثدى الأم فى اليوم التالى . قبلته الأم والأب لاول مرة فى حياته. تسيل دماء أبيه أمامه يوما بعد يوم . يرى فى صمت غريب . لا يملك غير القبلات يرسلها اليه فى الهواء أثناء اللعبة الخطرة . يفهم ، ثم يكتم فى داخله . لا يكاد يبين خيط الحزن من القلق من الخوف فى روحه . تعجز كلماته عن الافصاح . يريد أن يخترق كثافة الظلمة بالحصان المطهم . قدم له الأب كوبا من اللبن . يود أن ينطلق معه فى بحبوحة من الفيض الروحى . الأفكار والخواطر والرؤى المجسدة تضرب راسه بعنف شديد . الندم والخوف مع المسئولية والأمل . هذه الحياة حلوة بكل معاناتها ومخاطرها وتعقيداتها التى لا تنتهى . كان يريد أن يفض غلالة الضعف من نفسه . تدفقت الكلمات على لسانه غير مسموعة . طبت طفلا وصبيا ورجلا وشيخا يا صغيرى ، ومتعك الله بجمال الدنيا وصدقها ومعاركها . هل أحكى لك فصولا من قصة حياتى ؟ . حاول أبوك أن يقلل دائما من كمية الكذب والنفاق فى نفسه ، وأن يعيش شريفا . انى مهموم بك وببلدى وبالعالم كله . لم أتعود الكسل أو البلادة أو الاستنطاع . ولو حدثتك عن مثلى الأعلى لقلت لك ببساطة : احب أن أكون « جدعا » كأولاد البلد الذين حاربوا الفرنسيين . أنهزم ... أفشل ... نعم ... اتخاذل .. لا . ولدى : هل تعرف كم كان نهرو يحب ابنته انديرا ؟ . صمدت انديرا وقاومت كل المغريات والأوضاع

الفاسدة فى الهند . الف لها أبوها كتابا يحوى تاريخ العالم كله . وكان الفلاح الطيب العجوز ، عم شاذلى يعرف الساعة بالفطرة ، يوقظ حفيدته الذاهبة الى المدرسة كل صباح ، حاسته السادسة لا تخطىء . من المهم الآن أن تكون يا ولدى مسئولا عن زوج الحمام الذى تربيه فوق النافذة ، وتهدهد خروفك . تصغى وترى جيدا الانتقال من الشتاء الى الربيع ، لا تجعل أحدا يسوقك مرغما أمامه ، او يجرك مستسلما . انى لا احب المواعظ الميتة .

****

وهمس النجم لأبيه :

ـ احبك يا ابى .

قـال الأب :

ـ وأنا كذلك يا حبيبى .

ـ اذن متى تشترى لى الحصان ؟ .

ـ عندما تطعم خروفك .

وفى لحظة تعانق النجم الصغير مع أبيه . القلب على القلب ، والذراع تلتحم مع الذراع . اتحد الشعور . واختلطت ذرات الضعف والخوف والندم مع ذرات الحب والمقاومة والأمل . من يعطى القوة الى الآخر ؟ . الى اين تمضى الأيام ؟ . انحسرت موجة الهزيمة القاتلة وسط عنف العواطف العنيدة . وانتشر الضياء يغطى جدران الحجرة . لمع لون الدم الأحمر القانى وسط الألوان الأخرى كقوس قزح الشتوى الجميل ، ثم ساد الصمت من جديد .

****

نحـو النهـر ...

كنت خالى البال ، تتهادى الى نفسى راحة لطيفة . وكان الجو ربيعيا منعشا . شربت كوبا من اللبن الحليب ، ثم فطرت بيضتين ، وعيشا طازجا ساخنا . ولم يبق أمامى الا رياضتى اليومية المفضلة فى المشى . قال لى الأطباء : ان المشى صباحا يطيل العمر . وانا شغوف بطول العمر منذ زمن بعيد . أرتب كل شىء حتى لا ادخل فى شيخوخة مملة كئيبة . الآن لدى حديقتـان للبيت ، واحدة أمامية تزهو بالورد البلدى الناصـع الاحمرار ، والأخرى فى الخلف ، يفرشها الياسمين وأشجار المـانجو والبرتقال وعلى سـطح البيت أقفاص عصـافير الجنـة والديوك الرومى والأرانب التى أغرم بها ، وزهريات الزرع الأخضر اليانع . الآن اتأهب لرحلة كل صباح ، المشى فى الصباح ساعة ، حتى لا أصاب بتصلب الشرايين . أطعمت خروفى وعنزاتى الصفرى بحزمـة البرسيم ، وحنوت عليها وأنا سعيد . ارتديت أخف الثيـاب ، وفكرت فى اتجـاه رحـلة اليوم . معظم الطرق جاست فيهـا قدماى ، وفجأة طرقت ذهنى فكرة جديدة ملأتنى طربا وجيشانا.

لمـاذا لا أطلع الى التل فى هـذا الصباح الجميل ؟ . سكت وانـا احتضن فى صـدرى شعاع الفرح القادم فى دفء . أصبح من عادتى تأمل الأفكار المفرحة . سرت النشوة فى جسدى كله الى أن وصلت الى قدمى ، فأحسست ببهجة العافية فى أصابعى .
أتوكل على الله بدون تردد . المشـوار طويل ، والمكان مرتفع ، لم أصعد اليه منذ أيام شقاوة الطفولة وطيش الشباب المبكر .
القيت نظرة سريعة على أشـيائى وطيورى وعنزاتى . لفحتنى نسمة هواء طرية ، فتفاءلت . استرخيت مندمجا فى فرح الطبيعة الطيبة . الأذن والعين والقلب ، كل أولئك يتماوج مع الخضرة الممتدة والمياه المنسابة الرائعـة ، والأشجار العالية ، التى تشارف الأفق . تخلصت روحى وجسدى من كل الأحزان والقلق اليومى السخيف . اللحظـات حلوة وصافية تتدفق على مهل الى نفسى ، فأحتفل بها كأنى فى عرس كونى ، أتلقى تهانى الأحباب والأصدقاء.
ترف أجنحة الحب فى قلبى . أصبحت اسبح على الأرض مع التيار غمزت صنارتى ، فانساب السمك الفضى فى حجرى ، دون أن أسعى اليه . لم أكن أشعر بأنى أرتفع وارتفع . التل ما يزال بعيدأ ، ولكن عينى تشرخ فطائر النسمات والأشجار اليه . وقفت وذرت حول نفسى من كل اتجـاه ، مبهورا وفرحا ومنتشـيا بالتيه الذى يحتوينى بين أحضانه . وفوق راسى كانت الحمامات والعصافير تظلل الطريق ، تطفو ثم تعلو فى درجات متناسـقة متناغمة خـلال السماء القريبة . كنت خائفا أن يضيع منى شىء لم أره . اعود الى أيام الطفولة ، حيث كان التل يزهو بالخضرة اليانعة ، تكسو أرضـه وسماءه الطبيعة الساحرة . اشـتاق ان يتواصل الود الخالص القديم ، الذى تربى بينى وبين التل ، على مر السنين . هأنذا أعود اليه فى هـذا الصباح ، بعد غياب طويل . كنت امشى فى دوائر صغيرة ، حتى اكتسب حلاوة كل

لحظة ، وكل شبر من الأرض الخــالدة . وفى بعض الأحيان كنت اعود الى شجرة أو زهرة أو قوقعة ، لأتأملها من جديد ، لم أعد امشى أو أسبح ، بل أغوص وأغرق فى كل حفنة رمل وأخرى .

أصــابنى خدر لذيذ ، لم اجربه من قبل . صفقت وأنــا ابتهل الى الله ، أن يديم نعمتهعلى الانســان . تماديت فى التلكؤ حتى اشرب الذرات الطــائرة والمستكنة فى أعماق الوجود . وفى لحظة واحدة ، أحببت العالم كله . نسيت كل التعب والمعاناة . مشيت ومشيت ... سبحت وسبحت ، طرت وطرت ... ارتفعت وارتفعت ... سموت وسموت ... وعينى ماتزال على التل . اريد ان أعود الى طفولتى وصباى ، حدسى لا يخيب ، سوف أعود مفعما بالفرح ، كسرة الخبز فى يدى ، وجرعــة المــاء فى فمى ، والأغنيــات الآملة فى صــدرى ، تماما كأيــام الطفولة الأولى . لا شىء يضيع . هتفت بأعلى صــوتى ، فجــاءنى الصدى من قمم اشجار الكازورين والكافور ومن ألسنة العصــافير ... أحبك أيتها الدنيــا الصغيرة . كنت اقبض على مصباحى ، وسط شعاع الشمس الساطعة . لا شىء يضيع . تحســت صــدرى ، فاذا نبض القلب يرف مع اجنحــة الطيور التى ترفرف فــوق راسى . الآن يقرب التــل . تركت النهر ورائى ، لكن العرس مايزال قائما . أعانق الأحباب . نضحك معا ، نسترجع الذكريات معا ، نتجمع فى بلورة واحدة ، نلم الشمل بعد طول فراق . فردت ذراعى على أكتافهم خوفا عليهم . جرينا معا ، ثم قعدنا معا ، غنينا معا . ابتسمت لأنى سرحت فى خيــالى المجنح . قــلت : وداعا ... فقالوا : لا ... لا .... ســوف نبقى معا . عرجت الى هدفى . بدأ الطريق يتلوى . الأرض خشنة بعض الشىء . قدماى تغرزان فى الرمال . تخلفت الطيور وتركتنى وحدى .

حـرارة الشـــمس تشتد . اسرعت الخطى ، وقعت ، فقمـت
مندهشا . شرخ قلبى احســاس غريب . ما الذى حدث ؟ .
طردت وســاوسى وهواجسى وظنونى . هل أعود الى احــوالى
وعاداتى القديمة ؟ . همست داعيا ... اللهم نجنا مما نخاف .
اقتربت من التل . أين جميزة زمان ؟ . هل تغيرت معالم المكان؟.
وعن يمينى وانا الهث الى اعلى بانت بعض الملامح . كان هنـاك
كتل من الصخور تعترض الطريق ، واكوام من النفايات تتناثر .
وزكمت أنفى الرائحــة التى أخاف منها . وفى لحظة خاطفـة
رأيت المساحة الواســعة . وحبست انفاسى ... كانت المقـابر
تتناثر على الرمال الجرداء ... غشيت عيناى باللون الأبيض ...
نبات الصبار يتسلل الى قلبى ... سقطت عافيتى الى قدمى ..
لكنى وبسرعة مذهلة ، يممت وجهى الى أسفل ، مطلقـا ساقى
للريح ... كنت أجرى ... واجرى ... واجرى نحو النهر ...

الصـديق والنخـلة

مهداة الى روح صديقى عبد الحميد عبد النبى

فجأة بزغت لى نخلتى القديمة من جديد .. رأيت صاحبى فى قمتها يهزها .. تساقط الرطب الجنى . قضمت قطعـة من التفاحة فى يدى .. نظرت الى الأرض .. ابتسمت لمـاذا يأتى صاحبى الآن ؟ تسللت نظراتى الى الجالس جوارى .. شـاب فى مقتبل العمر ، يكتنفـه مهرجـان من الخواتم والنياشـين المتواضعة .. تتحلى رقبته بعقد رخيص دس قدميه فى حذاء ذى كعب عال .. طلب منى أن يشعل سيجارته . اعطيته عيدان الثقاب . انفتح باب المودة بيننا قلت له :

ــ من أين ؟ .

ــ من أسبانيا .

ــ جئت للسياحة ؟ .

ــ نعـم ...

ـ اسبانيا جميلة ، أليس كذلك ؟ .

ـ فى هذه الأيام فقط .

ـ وقبل ذلك ؟

ـ كانت جحيما لا يطاق .

فهمت مغزى كلماته .. عاودت قضم تفاحتى .. لايزال صاحبى يداعب خيالى .. أوصيته أن يأخذ حذره ، حتى لا يسقط من هذا الارتفاع الشاهق .. رد على طيفه :

ـ لا تخف ... تعودت أن أهز هـذه النخلة . فيتساقط الرطب ... انها سعادتى ... أن أقدم طعاما للآخرين ... أرجو أن تأكلوا جميعا ...

قـلت :

ـ هؤلاء غرباء ... لا يعرفون طعم بلح بلدنا .

قال الشاب :

ـ لو تذوقوه ، فسوف لا ينسون حلاوته ...

قال الشاب :

ـ وانت ... من اين ؟

قـلت :

ـ من مصر ...

اشرقت ابتسامة على وجهه :

ـ بلد كليوباترا ؟

ـ نعم .. وبلد السيدة والحسين كذلك ! .

سرح بصرى مع المارة .. بشر من جميع بقاع العالم .. انه مهرجان الأوكازيونات السنوى .. أطفال وشيوخ ونساء وشباب .. وكل واحد محمل برغباته .. ما أحلى أن يجلس الانسان ليتفرج على الآخرين ! . مهرجان من الأزياء ، انجليزية وعربية وفرنسية وأمريكية وصينية وافريقية ... تطلعت الى ثياب صاحبى فوق النخلة .. كان يرتدى ملابس الفلاحين المصريين .. ربط جلبابه الأبيض الشفاف بحزام من الصوف .. وضع على راسه طاقية بسيطة ، حافى القدمين . يشع وجهه بنور الحياة ورونقها .. عريض الجبهة حلو السيماء .. منسق التقاطيع . فى كل دقيقة يهز جذع النخلة ، فيتساقط الرطب على رءوس السائرين .. يأكل وهو يضحك ضحكته المجلجلة التى تعودت عليها .. ينظر بطرف عينه اليسرى ، ثم يترك اليمنى نصف معلقة . يتحدث بلغة أهل الريف الطيبين ... يا جماعة لماذا لا تأكلون بلحى ؟ قلت للجالس بجوارى فجأة :

ـ هل تحب البلح ؟ .

تردد قليلا ، ثم قال :

ـ نعم ، انه فاكهة لذيذة ..

صمتنا نحن الاثنان .. انتابه نوع من القلق والتوتر على أثر سؤالى .. لم يكن على أرض الشارع المكتظ بلح من أى نوع .. همس الشاب :

ـ اننى أحب الكريز .. لكن سعره مجنون .. مجنون مجنون .. ألا تحبه ؟ .

قلت :

ـ أحبه .. لكنهم فى بلادنا لا يأكلونه ...

تململ فى جلسته . أردت أن أواصل معه مودة الحديث :

ـ ما أخبار الانتخابات الأسبانية ؟ .

ـ لا بأس .. أهم شيء أنها تجرى بعد أربعين عاما من الحكم الديكتاتورى المظلم .

ـ هل تعلم أن بين أسبانيا والعرب وشائج قديمة ؟

ـ ذلك تاريخ مضى .. يهمنا الحاضر ومشكلاته .

ـ هل تحب لندن ؟

ـ مدريد أحب مدينة عندى فى العالم كله ... تركت هناك حبى وذكرياتى ...

واهتزت النخلة بصاحبى .. أشفقت عليه من السقوط فجأة .. كدت أهتف .. حاسب .. حاسب .. لن يشعر بموتك أحد .. كان صاحبى يحب المغامرة التى تنفع الناس ، طموح وحبوب .. يشيع البهجة فى المكان الذى يحل به .. يدفعه الفضول وحب المقالب أن يرى الآخرين فى موقف حرج . ها هو يتأرجح فوق النخلة ، يضحك من قلبه .. يسخر من نفسه ومن الآخرين .. امسك بسعف النخلة وحشفها .. تجمع المارة حول احدى الفاترينات ، التى حشدت قصص شكسبير الشهيرة، مجسدة بشخصياتها كوسيلة للاعلان .. يمسك الأطفال بأقماع الجيلاتى فى أياديهم .. الشحاذون يتمددون على الرصيف .. لافتات المحلات الكبرى تحذر من النشالين .. انه موسم الصيف ، والنهر السائل يسبح فى قلب المدينة .. ما الذى أتى

بصـــاحبى وسـط هــذا الضجيج هنــا والنخلة والبلح ومحبــة الأصــدقاء .. ؟

* * *

تحملنى الذكريات على جناح السنوات .. المــاضى له طعم ولون ورائحة .. كل لحظــة بمعناها ، الحلو والمر على السواء ، والمضحك والمبكى ، الهازل والجــاد ، الحنون والخشن ، لمــاذا تبزغ ذكريات المــاضى أمامى الآن ؟ تمسك بعنقى الى النهاية ، تفرحنى وتشقينى ، تهزنى من الأعمــاق .. قــلت لصــاحبى فوق النخلة :

ــ انزل لحظــات ..

ضحك وقال :

ــ لا .. لن انزل .. سوف تظل هامتى سامقة ...

رجوته وانا خائف :

ــ نضع فى كل فم بلحة .

ــ اخشى عليك من هــذه التلقائية .. لن تستطيع ان تطلق ضحكة تهز جذع النخلة .

ــ المهم ان اكون راضيا عن نفسى .. اليس كذلك ؟ !

نبشت ايامى معه ، همست :

ــ هل تذكر تمثيلية رئيس مجلس الادارة ؟ .

قال وبقايا انفجار ضحكته السابقة على محياه :

ــ وهل يمكن أن انسى ؟

* * *

تجسدت فى خاطرى احدى لعباتنا المسلية القديمة ... كنا نعبث ونضحك ، لكن الأصل فى نفوســنا كان الطهر .. انتهزنا فرصة غياب رئيس مجلس الادارة .. كنت أمثل دوره باتقان .. أدخل لأفتش وأرى بروفات العمل .. أغضب اذا رأيت اهمالا فى مكان ما ..

يقف الجميع ضاحكين ، يفهمون اللعبة .. الوحيد الذى كان ضحية التمثيلية زميل جديد يتدرب .. لم يتطرق اليه الشك لحظة واحدة فى هزلية التمثيلية .. وقف أمامى يترجم برقيــة عاجلة من وكالة « رويتر » ... بدأ ... رويتر ... لندن ... جعلت أعيد الاسم أمامه مرات ... وبنغمــات مختلفــة ... لاندن ... لوندن ... لونديم ... والزميل الجديد يكرر ورائى مقتنعا .. لأنه يريد رضاء رئيس مجلس الادارة .. أخيرا شعرت بالندم .. صارحته بعبثنا .. لم يصــدق .. أخرجت له بطاقتى الشخصية .. ضحكنا جميعا ...

* * *

كان صاحبى يحب المسرات الدائمة ... الحقيقية والعبثية والهزلية ، لكنــه فى النهايــة يحتفظ بنفســه البيضــاء كاللبن الحليب .. أول مرة رأيتــه ، توجســت خوفــا من فضــوله الريفى ... لكنى أدمنت هذا الفضول فيما بعد . كان يلذ له أن يعرف الأسرار والخبايا التى لا يهتم بها أحد .. فضــول لطيف لا يؤذى أحدا .



عدت الى الأسبانى الجالس بجوارى .. تأملت خواتمه ونياشينه المتواضعة .. كان يرسل شعره كالمسيح .. يعلق صورة جيفارا على ذراعه اليسرى.. يتفرج على المارة بعينيه الخضراوين الجميلتين .. يتميز بأنف رومانى دقيق ، قام واشترى خوخة وضعها فى حقيبته .. هبت نسمات الصيف اللطيفة .. انه يوم نادر المثال عندما تشرق الشمس فى قلب لندن .. يسود الفرح القلوب والأرواح .. يتخفف الناس من ملابسهم .. وصاحبى لايزال فوق النخلة يهزها ، لا يلتفت اليه أحد .. وحدى أجتر معه الذكريات والسلوى ـ لم أعد أستطيع ان المس كفيه .. أن أضحك معه ضحكة متدفقة من القلب .. هل كف نبضك يا صاحبى الى الأبد .. ؟ وبقى طيفك يحاول أن يقدم للناس رطبا جنيا من فوق نخلتى القديمة ؟ ! .

الجــرح والــوردة

على الشاطىء تمدد على الرمال يتأمل ما حــدث . البحر امامه لا حدود له . القواقع بين قدميه . النسيم اللطيف يلفح وجهه . أخيرا يستريح لحظــات من عنفوان المعركة القاســية المريرة . كم لعبت به الأيام والسنون . مايزال الجرح غائرا فى ذراعه اليسرى ينزف دما قانيا . سبع سنوات وهو ينزف . تلهف يبحث عن وردته بجوارده . جذبها الى انفه ليغير من رائحة الدم المزمنة . ضاعت منه هــذه الوردة مرات كثيرة . كان يعثر عليها بشق الأنفس . يقاوم بكل ما يملك ، ليبحث عنها تحت معطف طفله الصغير ، أو وراء ابتسامته النقية ، او خلف قبلة حبيبته . فى بعض الأحيان يكتئب ، يحط عليه اليأس الشديد . فجــأة تخلل رائحة الوردة أنفاسه ، فيصحو من جديد ، يدب على الأرض نشوان فرحا بالحياة . الآن ما يزال الجرح يؤلمــه ورائحة الوردة فى فمه ، لا يدرى متى وكيف بدأ ذلك الجرح الغريب . استيقظ من النوم ذات صباح ، فاذا الم بسيط كوخز الابر فى ذراعه ،

غرس بصره مكان الألم ، فلم ير شـيئا . وبعد أيام شعر بنفس الوخز ، بحلق مرة أخرى ، فاذا به يرى ورما صـغيرا ينفث صديده .. خاف وارتعب ، ثم تفكر وتدبر . ربط الدمل بعد أن وضع المرهم . وعاد يحرث شوارع المدينة الكبيرة ، يضحك ويسخر ويتواصل مع الأصـدقاء . كان يضع الوردة فى عروته فى النهار ، وبجوار سريره ، أو تحت وسادته ، فى الليل . هذه الوردة تذبل فى بعض الأحيان ، ثم سرعان ما تتفتح من جديد . تجرى فيهـا مياه الحياة على مهل . لم يعرف سرها بعد . يكفى أن يرويهـا بالدلال والحنان والغزل . ويهمس فى أذنها بكلمات الحب صباحا ومساء . يلف بها القرى . والنجوع وعلى الشـواطىء . يتغنى بها فى الليالى المقمرة ، وفوق السحاب ، وعلى سفوح الجبال . وكلمـا زاد هيامه بها ، كبر جرحـه وازداد ضراوة . وبويضـة الحياة تناطح الموت دون أن يدرى . فك رباط جراحه ، فاذا الدمل يتمدد فى كل ذراعه ، يخرج منه الدم متدفقا وعنيفا . بضغط ليوقفه بصعوبة بالغة . ويوما وراء يوم تحدث ظاهرة جديدة يقل نزيف الدم فيزداد الصديد ، ثم يقل الصـديد فيزداد نزيف الدم . وفى مرة قعد على حافة الترعة يصطاد السمك ، فاذا دماؤه تتسلل الى الميـاه . ذعر من المشـهد ، فجرى الى البيت ليحكم رباط الجرح . فى تلك الليلة نام نوما قلقا متقطعا . حطت على صدره الكوابيس المظلمـة مع الرؤى المبهجة . حـلم انه مات ، وأن الدم قد صفى من جسدة الى النهاية ، وانه أصبح عظما لا يكسوه اى لحم ، وانه أصبح ذرات كيمائية فى الأرض تساعد على نمو شجرة تفاح . أو موز أو عود قصب ، أو ذرة ، وبعدها حلم أنه طلع الى أحد الجبال ، حيث الخضرة الممتدة والطيور والجداول الصغيرة المنتشرة على سفح الجبل . وكاد أن يخمش قبة السماء بأصابعه ، ليعرف مكنونات الكون ، ثم عاد

وحلم انه كتب قصيدة من الشعر ، فى نفاق أحد الأمراء ، فاحتقر نفسه ، ثم ضاقت انفاسه ، فهب من نومه يمسح وجهه فى عز الليل وهو يهمس لنفسه .. خير .. اللهم اجعله خيرا ... فتح نور غرفته ، وتناول وردته ، وبين اليقظة وآثار النوم ثارت دهشته فى قلبه ... رأى ورقات الوردة قد كبرت وكبرت ... تحسسها بأصابعه ... وبحلق فيها بنظراته ... فاذا اسم الله محفور عليها بخط رقعة جميل ...

تعجب من المصادفات .

قال للوردة :

ـ ما الذى حدث لأوراقك ... من اين جاءت هذه الكلمة ؟ ! .

قالت وقد اكتسى خدها بحمرة الخجل :

ـ احوال ...

قال :

ـ صحيح اريد أن أعرف ...

قالت :

ـ يا حبيبى المعرفة والعلم أساس كل شىء . وارادة الله تسمو فوق كل ارادة ...

انى أذبل ، ثم تكسونى النضارة من جديد ، لأنى سر الحياة الدائم ...

هتف فرحا :

ـ وما هو ذلك السر أرجوك ؟ ! .

ضحكت الوردة ساخرة :

ـ أن تظل شريفا وأصيلا ما دمت حيا .. .

قـال :

ـ وجرحى الذى لا يكف عن النزيف ؟ .

قطبت جبينها وهى تقول :

ـ قلبى معك ، لست وحدك ، هناك ملايين الجروح فى هذا العالم ... اليس كذلك ؟ .

ومدت يدها الى احدى أوراقها وهى تهمس :

ـ انظر ، اننى انزف أنا الأخرى بدل الدم عطرا . اتعرف انى سوف أذوى فى يوم من الأيام ، ولكن بعد أن اكون قد قدمت رحيقى عن آخره .

واشرقت الابتسامة على ثغرها الحلو وهى تقول :

ـ لا تبتئس ... قدم رحيقك وليكن ما يكون ...

وتململ الجرح فى ذراعه قائلا :

ـ انى أعترض ... هذا كلام فارغ ... من يعـانى غير من يرفع الشعار الأجوف ...

قـال :

ـ يا جرحى العزيز لا تزعل ... صديقتى الوردة تريد أن تخفف عنك ... فهل تمانع ؟ ..

وتحشرجت الكلمات فى فمه المتقبح :

ـ لا أمانع ... ولكن ...

ثم غمغم الجرح وبكى ... أغمى عليه ، ثم سال منه خط رفيع من الدم . وانكمشت الوردة منكسرة الجناح ، ترمقه بعين الأسى . همست له وهى عاتبة ... ماذا يريد هذا المجنون ؟ ! . لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ، حسبه أن يلتقط أنفاسه بعض اللحظات . البحر أمامه يمتد عبر الأفق البعيد . يزداد سيال النزيف من جرحه . النسيم اللطيف يلفح وجهه . يحاول ارتشاف رحيق العطر من وردته .

بشير الأمل

فى الصباح لم اجده بجوارى . جعلت انتظره دقيقة وراء دقيقة . لماذا تأخر بشير ؟ ! . انه يملأ وحدة الكلى الصناعية حيوية ونشاطا . لا يكف عن الضحك والحركة النابضة . فتى عربى فى الثامنة عشرة من عمره . شقاوته العذبة تعطيه نضارة فوق نضارة . اين انت يا بشير اليوم ؟ . بدات أقلق من أجله . لم يتعود ان يتأخر من قبل .. كانت ماكينة الكلى جاهزة فى انتظاره ، فقط سوف تضع الممرضة الابرتين فى ذراعه ، واحدة لسحب الدم ، والثانية لعودته نقيا معافى . فى البداية كنت أعطف عليه . حين تحدثت اليه ملأنى اعجابا . قلت له حين تعارفنا :

– هل انت عربى ؟

قال :

– نعم انا عربى .

ـ من أى بلد ؟

قـال :

ـ من ليبيـا .

ـ ومنذ متى وأنت تعالج بالكلى الصناعية ؟

ـ منذ ثلاث سنوات ... وأنت ؟

قـلت :

ـ منذ ست سنوات .

اخذ نفسا من سيجارته وهو يقول :

ـ ربنا يشفينا كلنا ... ربنا يشفينا .

قلت لبشير :

ـ وهل تعلمت شيئا عن الكلى الصناعية ؟

قـال :

ـ أعرف الكثير الآن .

بدأ قلقى يشتد .. تحاول الوساوس أن تتسلل الى قلبى. طالما قابلت العديد من المرضى ، كل واحـد يضيف لى همـا جديدا . ها هو غياب بشير يزيد هواجسى القديمـة . ودعنـا ابراهيم فى مستشفى المعادى وهو يقول : ... نتقابل فى طريق الحياة ، لكنه عاد الينا محمولا على نقالة ، فاقد الوعى ، ثم مات بعد يوم واحد .. غاب المستر عبد القادر البنجلاديشى قبله من مركز الكلى الصناعيـة بشـمال لندن . بعدها بيومين عرفت أنه مات . آخر مرة رايت فيها بشيرا كانت قبل الأمس . كان

يضحك مع الممرضات الانجليزيات ، يداعبهن وينكت .. فى يده كاسيت يديره على أغنيات شعبية من الصحراء .. يا خليل الروح .. ويا حلو المحيا . الآن تقترب الممرضة منى وهى تبتسم :

ـ لم يستيقظ بشير من النوم .

قلت :

ـ انى قلق عليه .. اين يسكن .

قالت :

ـ فى الشمال ... ولكنه لم يعودنا أن يتأخر .

فقدت وحدة الكلى فى غياب بشير .. تمدد المرضى على السرائر هادئين . لا حركة ولا ضحكة .. لحظة متشائمة من تلك اللحظات التى سمعت فيها بموت رفيق .. هذه اللحظة اعرفها بفطرتى وحسى الذى لايكذب . مايزال السرير بجوارى خاليا ... والماكينة تصدر وشوشات خافتة ... انابيب المحاليل معلقة على عمدها . كل واحد منا رقد على سريره ينتظر كوب شاى الساعة العاشرة . كنت أريد أن يحدث شىء يحرك هذا السكون السخيف . فتحت الصحيفة لأقرأ وانسى ، فلم أستطع . الح على طيف بشير . حاصرنى ، ايماءاته ، حركاته ، نكاته ، روحه. ما الذى يوقعنى فى فخ الآخرين ؟ . فضولى نقمة لا مفر منها . كان يحدثنى عن صديقته الانجليزية ، يشير بأصبعه فى الهواء ، سعيدا وواثقا من نفسه تماما ، يعتريه الزهو والاعتزاز .. لقد غزوت بنات الانجليز .. عادت الممرضة تحوم حول الماكينة وهى تقول :

ـ تكلمنـا فى التليفون ، فلم نجده .. احسست بالقـلق يتسرب اليها ايضا .. زاد الهاجس فى نفسى وتجسد . ارتشفت جرعة من فنجان الشاى . كان بشير لا يترك شـيئا الا ويعلق عليـه :

ـ كم كوبا من الشاى تشرب فى اليوم ؟ ! . ماذا تعرف عن الأغذية التى يكثر فيها البوتاسيوم .. هل الويسكي ممنوع أم مباح ... ما رايك فى البلح ؟ ! .. انى احب البلح .. اين تذهب فى اجازة نهاية الأسبوع . كان يريد أن يعرف كل شىء . لديه شبق غريب الى المعرفة . سألنى ذات مرة :

ـ لمـاذا لم تزرع كلية الى الآن ؟ .

قـلت :

ـ ليس لدى متبرعون من العائلة .

قال بشير :

ـ وانا الآخر ... ولكن ما هى شروط زرع الكلية ؟

قـلت :

ـ لها شروط كثيرة ومعقدة .. الأهم أن يكون الذى تزرع منه هو توامك او أحد اخوتك او امك أو اباك .

قـال :

ـ ومن غير الأقارب ... هل يصلح للزرع ؟ .

اهمس :

لا أدرى ... الأمل اقل . يشرق وجه بشير كالعادة . تضىء عيناه بأمل مبهم غامض ... يلتفت الى المرضة الانجليزية التى تقعد بجواره على السرير ؛ يعلمها بعض الكلمـات العربيـة البسيطة ... مرحبـا ... واحـد ... اثنين ... ثلاثة ...

السبت ... الأحد ... الخميس ... شــكرا ... يضحك فيتحول وجهه كله الى لوحة حية لحب الحيــاة ... يهتف ... أحبــك ثم يترجمها الى الانجليزيــة للممرضـــة .. تضحك هى الأخرى .. تلكزه فى كتفه .. ينتهز الفرصـــة بسرعة ليهتف مرة ثانية .. أعطينى قلبة .. تختلط دماؤنا .. بضحكاتنا بروح بشير اللطيفة المرحة ، فتتبدد ساعات الملل الكئيبة .. ننسى الأخطار المتوحشة التى نعيش فيها . نطير على أجنحة من الأمل القادم . كيف يجيء ، ومتى ؟ لا نعرف . أين انت يا بشير ارجوك . دوختنا يا شيخ .. الآن « توش » ماكينتك بلا جـدوى . يفرش الملل الوجوه والأعين واعمدة العنبر الكبير . وعلى الأرض وحول كوب الشاى البارد الذى أحضروه لك حسب الروتين . تلتف الممرضات حول سريرك يردن أن يواصـلن عادتهن فى الضحـك والألفـة والأنس .. وها هو الطبيب فى جولته التقليدية اليوميـة على المرضى ... يتوقف عند سرير بشير يبتسم وأطياف الرضى تظلل ملامحه ... يهمس :

ـ اوقفوا هـذه المـاكينة .. جاءت الفرصـة لبشير فى الساعة السابعة صباحا ... أخبرنا الكمبيوتر بأن لديه كليـة مشابهة لكليته ... نقلناه فورا الى المستشفى ليزرع كليـة جديدة .. انه الآن فى حجرة العمليات .. ادعو له بالنجـاح .

وفجأة بعد طول عذاب يتدفق الفرح الى كيانى كله . تطير نثراته فى أرجاء العنبر على وجوه المرضى . وفى اعين الممرضات . وفى سقف المكان . وحول كوب الشاى البارد . ينتقل أمل بشير النـادر الذى حـدث فعـلا الى قلب كل واحـد فينـــا ... فمن يدرى ؟ !

آدم العــربى ...

فى تلك اللحظة لم اتوقع ان اراه . لمحته من الخلف يسبح الله . ساحة المسجد خالية ، يسودها الهدوء والصوفية العذبة . توقفت مترددا .. هل هو حقا ؟ . اقتربت خطوتين . بانت ملامح الصورة اكثر . الأذنان يكتنفهما الشعر الافريقى الكثيف. لا اريد ان اقطع خلوته ... لكنى لم أتحمل المفاجأة . تقدمت اليه . لمسته من كتفه :

ـ السلام عليكم ...

رد السلام وهو يواصل ترنيماته السماوية . همست :

ـ الا تعرفنى ؟ .

قـال :

ـ آسف ... مش واخد بالى ..

اقتحمنى بنظرة فاحصة . لم انتظر ان تسعفه الذاكرة . هتفت ... انا ... وفى لحظة واحدة تعانقنا .

احتضننى بذراعيــه الطويلتين البضتين . أحسست تحت جناحيه بدفء حار . لا أنسى أبدا . هتفت فى هذه المرة :

ـ هل تذكر يا آدم ؟ .

قال وهو يمسح وجهه بأصابعه :

ـ نعم أذكر . . . كانت أياما . . . كيف الأحوال الآن ؟ .

قلت وأنا أغوص فى بحر الأحداث :

ـ انها رحلة طويلة وعميقة . . .

ـ هل حدث تطور جديد ؟ ! .

ـ تطورات كثيرة . . . هأنذا ترانى أقف على قدمى . . .

ـ الحمد لله . . .

ـ هل تركت العمل ؟

ـ تركته ولم أتركه . . .

ـ كيف ؟ .

ـ تعبونى فى السفارة . . . لكنى مازلت أرسم .

ـ هل رسمت لوحات جديدة ؟ .

ـ طبعا . . . طبعا . . . ان لوحة الحياة لا ينضب معينها . .

ـ لا أقصد لوحات حقيقية . . .

ـ نعم . . . نعم . . . لكن أصل اللوحات هو الأهم . . .
أنا أحب أن أعيش الحياة أولا . . .

ـ قطعت عليك خلوتك .

ـ لا ... لا ... أنا سعيد برؤيتك ... هل أكمل اورادي ... ثم أمسك مسبحته وغاب فى عالمه .

كانت الذكريات تلفنى فى بوتقتها الذهبية الصافية . من أين بدات رحلة الغربة ؟ . فى الطائرة شعرت بأن لى القدرة على التحليق . أحسست بالزهو كما قال دوسانت أكسوبرى الكاتب الفرنسى ذات يوم : كان يطير فى السماء لينقل البريد من فرنسا الى مراكش وبالعكس أيام ان كان الطيران فى بداياته الأولى . شعرت بالغربة حقيقة حينما هبطت على الأرض حيث التفاصيل التى لا نهاية لها . مطار هيثرو فى شهر فبراير ... هذه هى أرض لندن اخيرا ... الضباب والمطر والأمل فى الشفاء .. خير اللهم اجعله خيرا ... بطنى تمتلى بالماء .. الأورام تنتشر فى جسدى .. درجة البولينا فوق الثلاثمائة درجة ... عظمى على لحمى ... عيناى تخترقان الرؤية الى المستقبل رغم قسوة الحاضر ومرارته ... الانتماء موجود الى آخر نفس فى الحياة . ها هو وجه الطبيب الانجليزى يطالعنى . أتوسل اليه فى صمت :

ـ جئناك نلتمس الشفاء ..

يقول فى عجرفة :

ـ هذه وقاحة لا أقبلها ... كان ينبغى أن تأخذوا موعدا قبل أن ترونى ... يشملنى احساس باليأس الغامر . هذا الوجه الأحمر اعرفه . لى تاريخ طويل معه . ليس الآن وقت تصفية الحسابات القديمة . احتاج الى انسان يأخذ بيدى . ينقذنى .

قال الطبيب :

ـ من يدفع الحساب ؟ ! .

قـلت :

ـ سـفارة ...

قال بحدة :

ـ ولكنكم تتعاركون معهم ...

الجم لسانى . لم اكن مستعدا للدخول فى معارك جانبية . سكت على مضض . رأسى يوش بصـداع قاتل . ينهار منى الجسد . يزحف الألم على روحى المتعبة ، وجسدى . ليس لى حيلة فى رد العدوان . لمـاذا يعذبنى هـذا الطبيب قاسى القلب؟. نظرت اليه . كانت عيناه تفحصنى عن قرب . يمتلىء بالغيظ . غبت عن الوعى فى لحظـة معينة . داخت رأسى . فلم أقو على التفـكير . نفدت حيلتى . هتف الطبيب فى وجهى ... انت مجنون . ربما ، ما الذى فعلته حتى أستحق تأنيبه ؟ . امرنى أن أتمدد على طاولة الكشف . سحب الستارة على المكان . غرزت نظراتى فى عينيه . ما يزال هائجا لا يتحكم فى أعصـابه . دق قلبى بأصابعه . أخذ الضغط ودرجة الحرارة والنبض . غرز أصابعه فى لحمى . تحسس ذراعى اليسرى وبها عملية توصيل الشريان بالوريد ، حتى يتدفق الدم بالراحـة ، أثناء عمليـة الكلى الصناعية . قال :

ـ متى بدأت الكلى الصناعية ؟ .

قـلت :

ـ منذ عام واحد ...

قـال :

ـ ما هى المشكلة ؟ .

قـلت :

ـ جئت اتعلم لأعالج نفسى بنفسى فى البيت .

قـال :

ـ هذا نظام لا ينفع عندكم ..

قـلت :

ـ سوف احاول ... هل تساعدنى ؟ .

قال مرة اخرى بحدة وانفعال :

ـ ليس لدينا مكان ... عد الى بلادك ، الى ان نرتب لك سريرا .

قمت وانا أكظم غيظى . انى فى موقف الضعيف .. تلعثمت الكلمات فى فمى . لم استطع أن أعبر عن نفسى . دخل طبيب عربى يساعده . شرحت له الموقف . رجوته ان يستعطف الطبيب الانجليزى ، حتى يأخذ مسئولية علاجى وتعليمى . تبادل معه الحديث بايجاز . تطلع الى وهو يقول :

ـ لا فائدة ... انه مصمم أن تعود الى أن يرتب لك الأمر. انسحب من أمامى فى هدوء . كنت متفائلا بوجوده المفاجىء ، ثم سرعان ما شملنى الغم . هرب منى ابن جلدتى ودمى ، وتركنى فريسة للغريب . لعنت تخاذله وجبنه . أسلمنى لقمة سائغة

الى الطبيب الانجليزى ، العق جراحى وحدى . كان صفراوى البسمة ، هزيل المنكبين ، له وجه ضامر كأنه يدبر ويرسم المؤامرات الدائمة . قمت اجرجر خيبة أمل شديدة ، أريد أن انجو بنفسى .

* * *

كان آدم قد انتهى من تسبيحاته . احتضننى من جديد . حلق ببصره فى صحن المسجد وهو يتنهد فى شوق وحب ، ثم قال :

ـ هيه ... كيف الحال ؟ !

قلت :

ـ لا بأس ... وكيف انت ؟ .

ـ انى اعيش ...

ـ ماذا حدث لك ؟ .. أراك مستغرقا فى عالم آخر ...

رفع بصره الى وهو يقول :

ـ وهل تريدنى أن أعيش مع البشر وحدهم على الأرض ؟.

قلت :

ـ أريد ان تعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

قال وهو يبتسم ساخرا :

ـ قيصر لا يستحق شيئا ... أما الله فهو يستحق كل شىء ...

ـ هل تركت صحبة المرضى ؟ !

ـ لم أترك شيئا ... والله هو الذى يعطى ويترك ...

قلت وأنا أخشى من وقع كلماتى عليه :

ـ يبدو أنك وصلت .

قال وخطوط جبهته تزداد اتساعا :

ـ دعنا من الوصول ... هل سمعت عن الحبوب الجديدة ؟ .

قلت :

ـ أية حبوب ؟ .

قال :

ـ الحبوب التى تساعد فى عمليات زرع الكلى والقلوب ..

قلت :

ـ قرأت عنها فى بعض الصحف .

قال :

ـ الا تزيد فرص زرع كلية لك ؟

قلت :

ـ لعل وعسى ! .

قال :

ـ عرفت طبعا بآخر عملية زرع قلب ...

قـلت :

ـ وما رأيك ؟ .

رفع بصره الى السماء وهو يقول :

ـ كل شيء بمشيئة الله ...

ومسح لحيته واردف :

ـ من يقترب الى الله ، لا ينسى انتصار العلم أبدا . أليس كذلك ؟ ! .

كان آدم أول وجه عربى طالعنى فى مطـار هيثرو . لم أكن أعرفه من قبل . لم يخطئنى ، وهو يبحث عنى فى وسط زحمة المطار . تعارفنا فى لحظات . أوصلنى الى القسم الطبى ، ثم تركنى . وفى اليوم التـالى رأيته . كان حنونا ودافئا ورقيـق القلب . أحسست أنى اعرفه منذ سـنوات . اضفت عليـه بشرته السمراء سحرا وغموضـا محببا الى نفسى . ليس زاعقا ولا مبتذلا . ومع ذلك ، فى لحظة أوشكت أن اظن به السـوء . فقد قالوا لى فى القاهرة ... احترس من النصـابين فى لندن .. هى سوق عالمية للنصب والاحتيـال . لكنى ندمت على هـذا الاحسـاس ، وهو يصحبنى الى جراح الكلى فى شارع هارلى . هناك أشياء صغيرة تكشف الكذب من الصدق . وهناك لمحـات تنم عن الانسـان الجدع الأصيل ، من الانسان المزيف . ومع ذلك فنحن لا نكشف الرجال ، الا من خـلال تجاربنا معهم ، أو من خلال مواقفهم ، أو حتى بكلمات عاجلة على ألسنتهم . قلت فى سرى وقت أن تحقق اكتشافى لآدم : ... حقا ... من يعش يرى . خرج لى آدم العربى من باطن أرض لندن ، ليقودنى وسط الظلمة والألم والقلق المحير الكئيب . كانت خطواتـه فى

طريقى علامـــة مميزة فى رحلتى الطويلة ، بل رمزا للمشـــاركة فى أشد الظروف تعاسة وقهرا . ازداد حبى للانسان على وجــه الأرض . كنت أتأمل وجهه الافريقى ذا الملامح البارزة ، شعره الكثيف ، عينيه الضيقتين الطيبتين . مسحـــة الثقة التى يمدنى بها ، كلماته المتقطعة الهادئة التى تبحث عن حل معى . ازداد ايمانى بأنى عربى مسلم ، بل ازداد حبى للعـــالم كله ، للبشر جميعا . انه آدم العربى الذى علمنى أن أحب الناس والدنيـــا جميعـــا .

* * *

افترشنا صحن المسجد الكبير معـــا . كنا فى اتجـــاه قبلة الكعبة . طوى آدم مصحفه ، ثم اعتدل فى قعدته . قال :

ـ الى أين سرحت أفكارك ؟ ! .

قـــلت :

ـ أيام لا تنسى ...

قـــال :

ـ لا تهتم ... الله معك ...

ولمسنى من كتفى . نفذت نظراته فى عينى . كان صافيـــا يمتلك نفســه .

اردف :

فيم كنا نتحدث ؟ .

قـــلت :

ـ فى زرع القلوب ...

قــال :

ـ آه ... انى سعيد باكتشــاف الحبوب التى تقلل من الجسد للعضو المزروع ...

وصمت لحظة ثم أضاف :

ـ الله يرضى عليك ويرزقك بكلية مناسبة ...

همست خاشعا وانا اقول :

ـ قال لى الطبيب : ان الفرصة نادرة جدا ...

قــال آدم :

ـالعبد فى تفكير والرب فى تدبير ...

دعوت معه وانا الهج :

ـ يسمع الله منك يا شيخ ...

واردفت :

ـ اين تسكن يا آدم ؟

قــال :

ـ فى شمال لندن ... مكانى القديم لم اغيره ... أجىء هنا لأصلى الفجر حاضرا ...

ـ والعمــل ؟

قــال :

ـ مازلت التقط خبزى بعرق جبينى .

قــلت :

ـ الم توحشك البلد ؟ ! .

قــال :

ـ بلاد الله واسعة ... وكل بلد تستطيع أن تعبده فيها .. هى عــامرة .

واشار بيده الى قلبه ... من هنا انطلق ... ثم اشار الى عقله ... ومن هنا أفكر ، وأتناسق مع هــذا العالم . ابنى واشيد ، هل رايت لوحتى الجديدة ؟ ... تعال وســوف تعرف ماذا اقصد . اننا لا نسبح فى الفراغ ... لسنا دراويش كمــا يظن البعض .

واردف آدم :

ـ كيف احوال الأولاد ؟ ... كبرت نانا طبعا ...

قــلت :

ـ عمرها الآن عشرون عاما ...

قــال :

ـ اصبحت عروسة ... خير ... خير .

واكتسى وجهه بضياء شفاف ، اختلط بسمرته اللافحة ، خفق قلبى فى صــدرى براحة الضمير . من أين يستمد آدم هذا النور الداخلى الذى يشع على من حوله ؟ لم يتغير فيه شىء كيف افتقدته كل هــذه السنوات ؟ فى بعض الأحيان تفقدنا الطرق المعقدة اقرب الناس الينا ، ومع هــذا تضــع الحيــاة فى طريقنا الكذابين واصحاب القلوب الغليظة .

ونودى الى الصلاة . وقفت الى جوار آدم أكبر جماعة . هل هو اشعاع جديد يحفزنى اليه آدم العربى ؟ .

الكئيب والزهرة

في الحديقة الصغيرة كنت وحدى . ازهار الربيع تتفتح حولى . اللون الأخضر يملأ عينى . لكن الوساوس تجتاح قلبى . احاول أن اطرد الأحزان من صدرى . فى مكمنى افرش ظلى . فجاءة هل على طيفه . بادرنى بالتحية . غاب وعيى لحظة . تماسكت أمامه . استجمعت شجاعتى المفقودة . لم أعد اخاف منه . طالما صاحبنى سنوات . ابتسمت رغم المرارة التى احملها تجاهه . اكرهه .. أكرهه .. رجوته مستعطفا ، أن نشرب الشاى معا ، مد أصبعه يسألنى :

ـ هل انت سعيد ؟ ! .

قلت وابتسامتى تزداد اتساعا :

ـ يعنى .

قال :

ـ انظر ... هذه شجرة التفاح تبشر بمحصول جيد هذا العام . أليس كذلك ؟ .

تعجبت من كلماته ، لكنى أردفت :

ـ الحمد لله .. الحمد لله .. قطف زهرة وفركها بين أصابعه .

غضبت . لم تهن على الزهرة . تعبت فى ريها . كنت أتأملها يوما بعد يوم . أراقب نضجها دائما . خطف فرحى منى . هز شجر التفاح . فتساقطت الزهرات الجديدات . دعوت الله أن يكف نشاطه المدمر . قمت لأعمل له الشاى .

هو يعرف طريقتى فى ارضائه . فر متضايقا . لا يحبنى ودودا وطيبا وكريما . يريد أن ينفث سمومه فى بدنى مباشرة . طالما أجلت ضربته القاضية أكثر من مرة . طاشت سهامه تجاهى ، لكنه يسكن فى داخلى ، لحظة وراء لحظة . حملت أكواب الشاى بين يدى . رفض أن يتناول منى نصيبه . رشفت رشفة . كان الطعم فى فمى علقما . همست فى سرى .. دعنى أشرب قطرات الشاى بسلام . لم أستطع أن أتبين ملامحه . كان كتلة هائمة مجسدة تخيفنى ، فى وجودها ، أو عدم وجودها، فى الليل أو النهار ، ساعات الفرح أو الحزن ، عندما أودع ابنى فى الصباح الى المدرسة ، أو عندما استقبله فى الساعة الرابعة مساء ، وهو عائد منها ، يشتاق الى رؤيتى ، عندما أمسك كتابا لأقراه . لف حياتى كلها بعباءة سوداء قاتمة . أسدل على ستارا من الخوف والرعب المقيت . أفتح نافذتى لأشم بعض النسمات ، فأراه يندفع فى أنفى وصدرى مهتاجا .

فى هذه اللحظة يريد أن يتكلم معى . سمعت صوته لأول مرة ، فاذا به خليط من العدم واللاجدوى . صــوت ليس كمثله صوت ، لا استطيع وصفه أبدا . تعودت على أصــوات البشر . كل واحد منهم له لون وطعم ورائحـــة . أعرف ما تريد هــذه الأصوات منى . لى الحرية أن أستجيب لها أو أرفض ، الا صوته الفاتر الغامض المسموم . يملأ اذنى فناء ولا شيئا . تطلعت الى ورقات الزهرة الذبيحة . تمنيت ألا يمتد تخريبه الى حديقتى الصغيرة بعد ذلك . اراد ان يجس نبضى فقال :

ـ هل تعجبك هذه الحياة ؟ .

قــلت :

ـ أموت فيها .

قهقــه فى الفراغ . لا أدرى ما الذى أضحــكه . ســخر قــائلا :

ـ ولمــاذا تموت فيها وانا موجود معك . انا تحت أمرك .

غامت الدنيا فى عينى . كان البكاء لا يفيد معه . جربتــه طويلا معه . شعرت بأنى قشة فى مهب الريح . أردت أن أرفــع ذراعى فى وجهه محتجا . لكنى لم استطع . برد فنجان الشاى امامى . كانت السحب محملة بالغيوم . تمنيت أن تمطر كثيفا ، حتى اكفــر عن ذنوبى . اردت أن انســحب ، دون اعتــراض فأوقفنى بلكمة خفيفة قائلا :

ـ الى اين ؟ ! .

قــلت :

ـ اريد أن اتنفس هواء نقيا .

قـال :

ـ الا تعجبك هذه الحديقة ؟ .

قـلت :

ـ تعجبنى جدا ... ولكن .

نزلت بعض قطرات من السماء فبللت روحى المتعبـة . همست ... انى لا انساك ، فلماذا تصر أن تكون معى فى هـذه اللحظة ... دعنى أشم زهور الربيع المتفتحة ... الا يكفيك ثلاثة أيام فى الأسبوع تصاحبنى وأنا راض ؟ ... روضتنى فى السـنوات الأخيرة أثناء هـذه الصحبـة الخطرة ... لست مستعدا لاستقبالك الآن ... ابذل فى سـبيل البعد عنك دمى ودموعى ... اشحذ ذهنى ، حتى اتفادى حلولك المفاجىء ... اغرب عن وجهى فى هذه اللحظة أرجوك ... دعنى لزهورى ... سوف أقاوم الى آخر قطرة من دمى ... لست وحدى . كل البشر يحـاولون أن يهربوا منك دائما . أبرق بعينيه الناريتين تجاهى . عاود ضحكته الكئيبة . احسست أن الأرض تميد بى. تكاثفت قطرات المطر . ومن الأفق الشرقى أبرقت السماء . أرعدت دون جدوى ، لاحظ خوفى فقال :

ـ لا تبتئس ... جئت للاطمئنان عليك .

تعجبت من منطقه الغريب . زيارته تفزعنى . مرة واحدة تكفى . ضربة قاضية منه تحيلنى الى رماد ، يأكلنى الدود بعدها . احال جلسة الضحى الحلوة الى نكد ازلى . تمنيت أن أطلق

ساقى للريح . ارتدى ملابسى . أحمل أوراقى وكتبى ، الى مكان آخر ، لا ينازعنى فيه ، لكنى عدت وتراجعت ، فهو يستقر بينى وبين طيات أى كتاب افتحه ، يسيل على صفحة افراحى ، يطفو خلال كلمات الأصدقاء وودهم .. يكمن فى السر والعلن ... يبين بين حنايا الصـدر وفى أصابعى ... يفصح عن نفسه تحت جلدى وفى عظامى ... أين أهرب منه ، هـذا الصديق اللدود ؟ ! . لا أعرف ... لا أعرف .

مملكة الكتاكيت الفلسفية

فجأة توقف الدكتور عبد المقصود وسط مزرعة الدواجن ، عشر سنوات وهو يعيش على وتيرة واحدة . سأم هـذه الحياة المملة الرتيبة . لعب بالنقود فى جيب سرواله . همس لنفسه فى أسى : لم تعد فى حاجة الى النقود يا دكتور عبد المقصـود . رصيدك مال وفير يكفيك طول العمر وزيادة . هـذا هو مشروعك الناجح يحقق أرباحا هائلة ، ومع ذلك فانك تعيس ، تشـعر بفراغ قاس ومدمر ، ما الذى حدث ؟ . هل هى نقمـة تحل بك بعد زمن طويل من السعادة ؟ . الا يبهجك صـوت آلات تفريخ الدجاج ، وهى تعمل ليـل نهار فى دوريات مسـتمرة ، لا تتوقف . هذا هو الريف الذى كنت تحلم بالاقامة فيه مدى العمر . زملاؤك ما يزالون فى الجامعـة يعانون قرف التدريس ومتاعبـه .

فى البداية كنت تسمو فوق الوظيفة . يرتفع طموحك الى الذرى العالية . تكون أو لا تكون ، تلك هى القضـية . اما أن

تصبح فيلسوفا كبيرا تغير من واقع الشرق وهمومه ، واما ان تترك الفلسفة لأصحابها . هل تذكر محاوراتك فى الجامعة ، عندما تجلس وأمامك الميكروفون ، ثم وأنت تلقى المحاضرات على الطلبة ؟ . كانت مملكتك شاسعة . آذان الطلبة ووجوههم تتجه اليك فى لهفة ، وأنت فرح نشوان . اين أيام أرسطو وأفلاطون . كنت حرا وسعيدا . تمتلىء ايامك بأصوات البنات والشبان المتلهفة الى المعرفة . هل نسيت كتابك الذى احدث ضجة فى أوساط المفكرين . محنة الشرق ... مقدمات وأسباب ... كان العقل العربى راكدا خاملا ، فاذا بكلماتك توقظ النائمين . كيف تحول تفكيرك الى ترك الجامعة ، ثم تفرغت الى البحث المطلق فى المذاهب الفلسفية ... الوجودية والماركسية . الميتافيزيقا والمادية ... البرجماتية ... اليسار واليمين فى الاسلام ... مشكلة الجبر والاختيار عند المعتزلة . ثم كيف تركت كل ذلك ؟ . الآن تقف حائرا وسط الدجاج المتلهف الى الطعام . لم يصل العلف بعد . اولاد الكلاب تجار السوق السوداء يرفعون الأسعار . ما هذا الشرخ الهائل الذى يحدث فى مملكتك الثابتة ؟ . انك تقف فى نقطة اللاعودة عاريا الا من أحزانك وقلقك وعذابك . الماضى بالنسبة اليك مجرد تاريخ وذكرى ، أما الحاضر ، فقد حققت فيه قمة النجاح . فماذا تريد من الدنيا ؟ . اذن من العبث أن تتمادى فى أحلامك الماضية . وأفاق على اصوات الدجاج المتزاحمة . طالما أحب هذه الأصوات . كل صوت ببيضة ، وكل بيضة بكتكوت ، وكل كتكوت بقروش فى جيبه . مر على بيوت الدجاج، ورأى أكوام البيض مدفونة فى القش . العمال مشغولون بجمعه ووضعه فى الحضانات الكهربائية . فى كل صباح له جولة اطمئنان على كل شىء . أصبحت لديه خبرة ممتدة بأمراض الدجاج

وتربيتها . يعرف الضعيف منها والقوى . يدرك العلف المخلوط بنشارة الخشب من غيره . الطبيب البيطرى وراءه ، وشمس يناير تدخل الدفء الى جسده ، لكن عقله يغلى من الداخل . كيف تحطمت أحلامك يا عبد المقصود ؟ . ضاعت روحك من الزحام . كنت تسير فى الشارع مفلسا ، لكن عقلك غنى بالأفكار الخصبة . ما أحلى أيام الأمل المشرق ! . كنت تسبح بمهارة غريبة فى نهر الانسان وتاريخه . تتقمص شخصيات الفلاسفة الكبار ، حركاتهم وسكناتهم . تبحث فى جذور نشأتهم وتطورهم وتأثيرهم . كان حلمك أن تضع بصمة على تاريخ الفلسفة فى الشرق ، فاذا بك تنتج آلاف البيض فى اليوم . وليتك تخصصت فى تاريخ الطيور وامراضها وانتاجها . ومع ذلك فقد خلطت الفلسفة بالطيور فى لعبة فاسدة . وقال للطبيب البيطرى :

ـ ماذا تفعل فى تأخر العلف ؟ .

قال الطبيب :

ـ لا مفر من أن نشترى بالسعر الجديد .

قال الدكتور عبد المقصود :

ـ وماذا عن الدجاجتين اللتين عزلناهما بالأمس ؟ ! .

قال الطبيب :

ـ سوف نستمر فى عزلهما حتى نتبين الحالة جيدا .

قال عبد المقصود :

ـ وأحوال الكتاكيت الجديدة ؟ .

قال الطبيب :

ـ تحتاج الى زيادة الدفء فى الشتاء .

قال الدكتور :

ـ وهل وصلت الماكينة الجديدة ؟ .

قال الطبيب :

ـ سوف نتسلمها بعد أسبوع واحد .

قال عبد المقصود :

ـ وكمية البيض بالأمس ؟ .

قال الطبيب :

ـ خمسة آلاف بيضة .

وترك الدكتور عبد المقصود المزرعة عائدا الى البيت . استرخى على مقعده المريح . افرغ كأسا من الويسكى .. ووضع عليه الثلج .

هذه هى حجرته القديمة التى يحبها . لم يغيرها منذ أن كان مدرسا بالجامعة . مازالت بها روائح أفلاطون وأرسطو وكارل ماركس وابن رشد والفارابى . قام وأمسك بمؤلفه القديم . قرأ الاهداء ..الى كل الذين يحبون الشرق ويريدون تغيير حاله .. الفصل الأول .. الى من يهمهم الأمر .. والثانى تنويعات على لحن واحد .. الخروج من الأزمة .. الخاتمة والخلاص .. لم يقرأ كتابا فى الفلسفة منذ عشر سنين . ماذا جرى لك يا عبد المقصود . هل ما يزال العقل العربى كما تركته ؟ من هو أهم فليسوف عربى الآن . لم يستطع أن يجيب بشىء .

لا يهم . كلنا فى الجهل شرق . من بعد يمسك الدفة ؟ . وعند أول رشفة من كأس الويسكى ، همس والاحباط يشمله : دعونى فى حالى يا ناس .. ضعت والحمد لله منذ عشر سنين . هذه البيئة لا تصلح لفيلسوف مثلى . أنا اليوم دجاجة وآلة تفريخ ، وقطعة من العلف ، أدوخ فى البحث عنها بالسوق السوداء .. وكل ما عدا ذلك فهو قبض الريح . وحدى أم الآخرون . طظ فى الفلسفة الى الأبد .. ولتحى الكتاكيت الذهبية .. هذه فلسفتى وكفى .. وجاءته ضجة أصوات آلات التفريخ المختلطة بصوصوة الكتاكيت .. وكان يفرغ بقية الكأس فى جوفه .. وقال وهو يبتسم ساخرا : .. لا بأس أن نكرر .. أن نكرر .. عاشت مملكة الكتاكيت الفلسفية .. ولو الى حين .

شبح المستر عبد القادر ...

فى لحظة خاطفة تملك الرعب قلبى ، تصورت أن المستر عبد القادر قبض على عنقى من الخلف ليمحونى من الوجود . المستر عبد القادر ليس عدوى ، ربما يريد أن يأخذنى معه مودة وحبا ، ولكن أى نوع من المودة والحب اللذين يكنهما لى المستر عبد القادر ؟ انهما مودة وحب الموت . هرولت الى خارج المستشفى مذعورا أمسك عنقى . وحدى فى هذه البقعة النائية تعلقت عيناى بالعربات المندفعة السريعة ، التى تجتاز الطريق. شمال لندن فى عز الليل . البرد والخوف والألم . تجرأت واحضرت مقعدا من الداخل لأجلس على « وش » الدنيا وحدى أواجه المشكلة . منذ اسبوع واحد فقط ، كنا نواجه المشكلات معا .. أداعبه ويداعبنى ، كل منا على طريقته الخاصة .

أنا مصرى، لا أكف عن التنكيت حتى فى أدق اللحظات الخطرة، وهو بنجلاديشى ، يحاول ان يتذوق ، يجاملنى بأنه فهم النكتة. سيطرت على الرعب فى داخلى . لابد للانسان ان يسيطر على

عدوه ، أيما كان هذا العدو . تعجبت من المفارقة الغريبة .. هل يعقل ان يخنقنى المستر عبد القادر ؟ ! . اننى لا أفترى على احد .. هـذا حدث حقيقة .. شعرت ان يديه تنفذان الى لحم عنقى .. ثم الى عظامه ثم الى خلايا جسدى .. فى دمى وعظامى كلها .. أعرف الفرق بين الوهم والحقيقة . وقد كان الموت حقيقة يتدحرج بيننا نحن الاثنين . كل واحد يقذفه نحو الآخر .. لكن المستر عبد القادر كان أكثر احساسا منى به .

فى مرة تعطلت ماكينة الكلى الصناعية الخاصة به فجأة .. كنا بمفردنا داخل مركز الكلى .. وكان من الضرورى أن يعيد دمه الى جسـده فى فترة وجيزة لا تتعدى العشر دقـائق .. والا تجلط الدم ، المهم كنت أعرف ما ينبغى أن يفعله .

ولكنى خفت أن أتحمل المسئولية . انتفض من سريره قاعدا على الأرض ، صارخا بانجليزية زاعقة مريرة .. أنا ذاهب لأموت . أشرت اليه أن يكون رابط الجـأش ، مفـكرا فى حل المشكلة ، فلا فائدة فى اضطراب الأعصاب .

وعلى الحشائش الخضراء فى حديقـة المستشفى ، كنـا نسترخى فى اليـوم التـالى ، نستعيد ذكرى الليـلة السابقـة ونضحك . وندردش فى أمور الحياة والموت والميلاد . قعد المستر عبد القادر قبالتى ، وبين يديه ترجمة للقرآن باللغـة الأوردية.. وجه أسمر بلون طمى النيل .. وقامة قصيرة ممتلئة . وعينـان مجهدتان ذابلتان .. وبعض الدمامل الصغيرة الخفيفة التى تنتشر على صفحة وجهه الطيب .. يبدو أن العالم ما يزال به كميـة لا بأس بها من الطيبين والطيبات . شد (قطعة) من الحشـائش وهو يقول :

ـ كيف الأحوال ؟ .

قلت :

ـ لا بأس .. وأسرتك ؟ .

ابتسم بطيبة .

ـ ليما ابنتى لا تنام الا فى حضنى كل ليلة ، أعود من المستشفى .. تنتظرنى حتى الثانية عشرة أو الواحدة صباحا .

ـ ما عمرها ؟ .

قال بعد فترة تفكير قصيرة :

ـ سنتان .. وشهر .. وخمسة أيام ...

قلت :

ـ وكم ساعة ؟ .

قال :

ـ وثلاث ساعات .

ـ هل تحبها يا مستر عبد القادر ؟

ـ أموت فى حبها .

ـ وحيدتك ؟

ـ لا .. لدى ولد آخر .. بوبو .. عمره خمس سنوات .

تأملته وهو جالس قبالتى ، أعطيته سيجارة . أخبرنى بأنه أقلع عن التدخين ، ولكن ربما عاد اليه من جديد .. حدث ذلك له عدة مرات .

* * *

كانت رحلة آخر الليل مع المستر عبد القادر فى غاية الكآبة .. نحن الاثنان مجهدان جدا .. الجسد كله مطارق تدق بعصبية والم .. والنفس غير تواقة الا الى نوع من الراحة الأبدية .. انهار المستر عبد القادر على الرصيف ، ونحن فى انتظار آخر أوتوبيس .. ضغط دمه منخفض ، كان أمله أن يصل الى البيت ليرتمى فى أحضان ليما .

* * *

رأيت المستر عبد القادر يوم الاثنين ، حيانى بضعف بدا فى وجهه وفى اعماق عينيه . لم أره فى اليوم التالى . ذهبت الى المستشفى يوم الأربعاء . لم يأت فى ميعاده ، الساعة الثانية مساء ، ماكينة الكلى الصناعية الخاصة به جاهزة ، زبون قديم يحرصون عليه . ينسى دائما اختبار المياه . أقوم بالعمل نيابة عنه ، غضب منى عندما قلت له فى مرة : أنت أنانى ، قال : ... اذا أردت أن تكلمنى بمثل هذه الطريقة لا تكلمنى .. صمت لحظة .. فاذا به يسألنى .. هل ذهبت المرضات ؟ .. اجبته بالايجاب .. عرفت أن قلبه طيب لا يحمل حقدا .. المفروض أن يأتى الآن .. يغرس الابر فى ذراعه .. كل منا يعرف عمله جيدا .. يتذمر فى اعماقه ويسخط ويقنط .. تنسحب روحه من صدره فى بعض الأحيان .. ولكن الروتين هو الروتين .. فاما الموت واما الحياة .. اخترنا الحياة بكل الصعوبات .

يتمدد المستر عبد القادر مسترخيا على سريره ، بجواره على سرير آخر ارقد مسترخيا أيضا . الخطر يوحد بيننا ، الهواجس والظنون والخوف من المجهول فى أعماقنا . نبتسم ابتسامة المهزومين الضعفاء المستسلمين . أركب (فرستى)

المصرية الأصيلة لأحلق فى عالم الأمل . تتسرب حرارة الحياة منى الى المستر عبد القادر . يأنس الى . فى بعض الأحيان كان يسترخى على سريره قبلى ؛ فأداعب قدميه بأصابعى لأغير مناخ الكآبة الذى نعيش فيه . يبتسم أو يضحك ضحكة خفيفة على قد الحال . هنا عنبر الكلى الصناعية ؛ يا كم تبادلنا ماكيناته وسرايره كلها على مر الأيام ! .

حفظنا تفاصيله . انه بيتنا الأصلى الذى نستمد منه مواصلة الحياة . لو غبنا عنه اربعة أو خمسه أيام لجدفنا فى عالم الموت .. نحن والموت وحب العيال . نشتاق الى كوب من الشاى الدافىء ولكنها المدرسة الانجليزية فى العلاج طويل الأمد .. لابد ان يتحمل المريض مصيره بنفسه .. يتعلم كل شىء .. صغيرا كان أم كبيرا .. يفكر فى كل فعل يقدم عليه . طلبت مرة كوبا من الشاى.. فقال لى الطبيب : تستطيع أن تفعله بنفسك.. قم واترك دمك فى دائرة بحيث يحتفظ بحراراته .. بعد أن تخفض سرعة مضخة الدم .. ثم عد . وابتسمت له وأنا لا آخذ كلامه مأخذ الجد . قال بجدية : انى لا أنكت .. قم واعمل الشاى بنفسك ، حتى تشعر أنك تعيش .. فلسفة العلاج أن تكون طبيعيا الى حد كبير .. كلنا سوف يموت . تمتع بأيامك بقدر ما تستطيع .. باشر عملك العادى .. عش وسط البشر ، كلما استطعت الى ذلك سبيلا . لا ترقد على نفسك .. كما ترقد الدجاجة على افراخها ...

* * *

الساعة الثانية والنصف ولم يأت المستر عبد القادر . حدثنى منذ أيام أنه طلب امه على التليفون فى بنجلادش وتحدث

معها أربعين دقيقة كاملة .. ماذا قال لها .. وماذا قالت له ؟ .. لكنى دهشت لهذه الحادثة الطويلة الغريبة . لم يعد يحدثنى عن زرع كلية له ، كان دائما يمنى النفس بزرع كلية من ابن عمته أو ابن عمه وكنت أسخر عابثا .. أقول له : انى متبرع لك بكليتى الاثنتين يا مستر عبد القادر .. فلا يضحك .. فالنكتة مريرة وربما سخيفة .. ولكن السخرية كانت ضرورية . ومن لم يسخر من نفسه .. لا يستطيع أن يسخر من أوضاع الآخرين .. يريم الصمت بيننا فى الساعات الأخيرة من العملية . ينام المستر عبد القادر بعمق . تضرب صفارات الانذار فى الماكينة علامة على أن شيئا أصابه خلل مفاجىء .. أنادى عليه بصوت عال .. يستيقظ مذعورا .. متعب طول اليوم ، من المكتب الى المستشفى .. يحمل حقيبته السوداء الضخمة . يخرج منها المصحف المترجم . يقرأ فيه بهدوء يجىء وقت ، يتقوقع كل منا فى داخله . لا صوت الا (وش) الماكينة المستمر ، الذى تعودت عليه الأذن..وصفعات قطرات المطر على زجاج النوافذ . نستسلم للحزن والوحدة والمجهول .

وفى الحادية عشرة تماما نفك قيودنا . نتحرر من سجننا الذى استمر سبع ساعات .. الأمل فى جديد يداعب قلوبنا . يجرى أحدنا الى المطبخ .. يحضر البسكويت فى طبق صغير . نكون جوعى ومرهقين جدا .. طعم البسكويت لذيذ .. تمضغه بشهية مفتوحة . فى بعض الأحيان تعرف الممرضات أننا أكلنا البسكويت . يسألن فى ظرف . من أكل البسكويت ؟ . أقول على الفور : المستر عبد القادر .. لكنه يرد التهمة الى .. لا .. لا .. المستر .. هو الذى أكل البسكويت . نقفل جميع الأنوار والمياه . نخرج من المستشفى .. تهب علينا نسمات الحياة

الباردة . يتخلف المستر عبد القادر عنى خطوات .. استحث مسيرته . الحشائش يكسوها المطر . أسأل نفسى بغيظ : من الذى انتزعنى من عشى بحلوان ، الى شمال لندن المتوحش . مصر وحشتنى جدا ... جدا . أحن الى خلجات أصدقائى ، احب قلقهم وعذابهم وفرحهم .

أعود الى الواقع البائس . اخاف سكارى آخر الليل . اتأبط ذراع المستر عبد القادر ، لآخذه تحت مظلتى . المطر يزداد غزارة .. من يطير بى الى أحضان قريتى ؟ . راكية النار مشتعلة ، وفى وسطها (براد) الشاى أو القهوة .

أحن اليك يا انشاص يا حبيبتى الجميلة . فى الأوتوبيس افترق عن المستر عبد القادر ، لا وقت لصداقات جديدة .

* * *

الساعة الثالثة ولم يأت المستر عبد القادر . خير اللهم اجعله خيرا . غاب مرة سابقة ، ولكنه أتى فى اليوم التالى صباحا . المشكلة أنى لا أستطيع ان اتصل به ، ليس لديه تليفون بالبيت ، ولا أعرف عنوانه ، غرست الابر فى ذراعى . أوصلتها بالأنابيب . بدأ الدم يتدفق الى الكلية الصناعية ، ثم يعود الى ذراعى نقيا .. وقطرة .. قطرة .. اشعر بالفوقان ، السموم تصفى من دمى .. وكابوس ثقيل .. ينزاح من صدرى وكل اعضاء جسدى . المستر عبد القادر لا يغيب عن خاطرى .. عرفت ان اسمه عبد القادر مصادفة .. قبل أن يغيب عنى فى هذه الفترة الأخيرة .. مسلم .. اسم الشهرة (بويا) .. مستر بويا .

هكذا كنا نناديه دائما .. اما الاسم الحقيقى فهو عبد القادر .. ضحكت معه وأنا اقول له .. انه اسم مصرى.. عربى .. ينطقه الصعايدة والشراقوة عندنا عبد الجادر .. واهل المدن .. عبد الآدر .. لا ادرى لماذا فرحت باسم (بويا) الجديد .. ربما لأنه أصبح قريبا منى بالاسم أيضا .. بجوار العقيدة والطيبة والذكريات والمحنة المشتركة .

تذكرت كل أصدقائى باسم عبد القادر .. كررت تلك الأسماء فى أذنه .. كان يهمنى أن يعرفهم .. انه عبد القادر جديد فى حياتى .. عبد القادر البنجلاديشى الطيب النفس .. بجوار عبد القادر الجزائرى .. وعبد القادر السودانى .. وعبد القادر الليبى .. وعبد القادر اليمنى .. وعبد القادر المغربى .. والأهم من كل هؤلاء عبد القادر المصرى . وعفوا على هذا التعصب ..

* * *

الساعة الرابعة ولم يأت المستر عبد القادر . كدت افقد الأمل فى مجيئه اليوم .. سألت المرضات ، لماذا لم يأت المستر بويا اليوم ؟ . قلن : لا نعرف ، ثم سألن : هل رأيته يوم الاثنين؟! قلت : نعم رأيته .. قلن : هل حدثت له مشكلات أثناء عملية الغسيل الكلوى ؟ . قلت : المشكلات الدائمة .. صداع حاد فى الراس .. وانخفاض شديد فى ضغط الدم .. ثم مشكلته الدائمة بعد خروجه من المستشفى .. أن يلحق آخر أوتوبيس . لم يعلقن بشىء . المفاجآت أصبحت طبيعية . وهن يتعاملن مع بشر ، نصفهم ميت ونصفهم حى . لا داعى للقلق . المشكلة مشكلتى انا الآن . هل تدحرج الموت اليه ، وكيف ؟ .

لم يتطرق الى عقلى هذا المعنى بسهولة ، ولكنى وجدت السؤال امامى بطريقة عامة ، ومجرد شك بسيط اخاف ان يلمس المستر عبد القادر . فمن يبقى معى فى المستشفى ليلا ، هل يتركنى بمفردى ؟ من يسمعنى سورة الاخلاص بلغة عربية يجاهد أن تكون سليمة ؟ ! .

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هو الله أحد .. الله الصمد .. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » . من يجلس معى على الحشائش الخضراء ندخن ، ونتحدث عن مشكلات مصر وبنجلاديش والمسلمين .

قلت له وهو يحدثنى فى مرة عن وسيلة لعلاجه الدائم :

ـ هل من العدل أن يزداد أغنياء المسلمين غنى .. وأن يزداد فقراء المسلمين فقرا ؟ !

قال :

ـ انه ليس عدلا ...

قلت :

ـ وهل من العدل أن تصل ثروة أحد المسلمين العرب الفى مليون جنيه ، ولا يجد مسلم مثلك علاجا مستمرا له ؟ .

سكت المستر عبد القادر لحظة ، ثم قال :

ـ صحيح .. صحيح .



الساعة الحادية عشرة . قضيت الليلة وحدى .

* * *

يوم الأربعاء لم يات المستر عبد القادر .. أيقنت أن فى الأمر شيئا .. ولكن الغريب انى لم أعد مندهشا ، حلت الحقيقة محل الظنون والهواجس . شريط الموتى أمام بصرى لا يتوقف.. أجندتى بها أرقام تليفونات كتبت أمام بعضها بسهولة وتآلف غريب ، انتقل او انتقلت الى رحمة الله .. وكل ميت من هؤلاء له فى قلبى قصة او رواية .. لكن رواية المستر عبد القادر معى رواية عجيبة . يحاول الطبيب الانجليزى أن ينهيها بهدوئه القاتل .. على نفس الحشائش التى جلسنا عليها أنا والمستر عبد القادر .. رأيته قادما الى فى صمت .. قعد قبالتى .. سحب سيجارة من علبة سجائرى .. أشعلتها له .. سألته بلهفة داخلية حنون :

ما أخبار المستر بويا .. انى قلق عليه ؟ ! .

قال :

ــ احكى لك من البداية ، حينما جاء المستر (بويا) للعلاج ، كان فاقد الوعى على أثر جلطة فى المخ ، هذا بالاضافة الى توقف كليته عن العمل . عاودته هذه الجلطة مرة أخرى يوم الثلاثاء الماضى ، نقلوه الى المستشفى . مات فى نفس اليوم مساء . اريد أن أشرح لك بعض التفاصيل الخاصة حتى تكون يقظا . تطلعت اليه .. تمنيت أن يكف عن الكلام الآن . نظرت بعد لحظة ، فلم أر شيئا امامى . احسست أن الدموع الهادئة

تخنقنى . أشعل لى الطبيب سيجارة . وضعتها فى فمى . شكرته .

* * *

كانت ماكينة الكلى الصناعية جاهزة لاستقبالى .. قمت أجر جسدى المتعب . انظر الى سرير المستر عبد القادر الأخير . داعبته فى قدميه ، فابتسم ، ثم ضحك ضحكة صغيرة على قد الحال ، صحبته فى غدوى ورواحى .. هل مازلت تنتظرين أباك يا ليما لتنامى فى حضنه ، أو ينام هو فى حضنك ؟ ! .

رأيتك فى البوم الصور الذى كان يحمله أبوك سعيدا به ، يوزعها على المرضات .. يقول : .. هذه زوجتى .. وهذه « ليما » ابنتى لا تنام الا فى حضنى .. وهذا ابنى (بوبو) عمره خمس سنوات . مازلت أصطحب أباك يا « ليما » ، ولكنى للآن لا أستطيع أن أفسر ، لماذا هجم على من الخلف ، يريد أن يخنقنى من عنقى ؟ ! .

مساء الخير يا بلدى

وحدى اجتر الذكريات . العاصفة فى الخارج تضرب زجاج النوافذ بقسوة . دمى خارج جسدى فى انابيب الكلى الصناعية.

الأنابيب حمراء فاقعة جدا .. يبدو ان الانسان لا يستطيع ان يعرف لون دمه الا اذا نظر اليه من بعيد . قلت لنفسى : انت الآن تمتاز بقلب جسور .. لكن ماذا يحدث لو انفجرت انبوبة من الأنابيب ؟ . سوف يسيح دمك على الفور .. انها ليست المرة الأولى .. تمتلىء الكلى الصناعية بدمى .. قطرة .. قطرة .. وسيلا .. سيلا .. وتدفقا .. تدفقا .. فى المرات الأولى كنت أخاف .. بل كنت اذعر .. ثم أصابنى نوع من الجراة .. ثم اندهشت من نفسى عندما أصبحت المسألة عادية . أى نوع من العادية ؟ عادية من نوع غريب . شىء مؤلم ومفرح فى آن واحد . حقيقة مؤلمة للغاية ، وان كان هذا الألم يتحول رويدا .. رويدا الى ثقة بالنفس .. الى نوع من الزهو لأنى اتحمل .

ومن صوت العاصفة فى الخارج .. ومن سيولة الدم فى الأنابيب تنبثق وجوه .. وتختفى وجوه .. هـذا الوجه الكبير لا استطيع أن أعبر عنه .. هل هو وجه مستدير .. ربمـا .. ملىء بالدماء والحيوية .. آه .. نعم .. ينبض بالتاريخ القديم والحديث اننى جزء صغير جدا منه .. هو الذى يعطينى الحياة الى الآن .. يشع النور الدائم الى كل ذرة فى كيـانى .. هـل استطيع وصفه بالكلمات ؟ عبثا أحاول .. هو الذى يصفنى .. هو الذى يحتوينى .. يأمرنى فأطيع .. أخـالف أوامره فى بعض الأحيان .. يعترينى الوهن المحبط فى كيانى .. اعود اليه .. اشارفه ويشارفنى .. فتعود الحيـاة الى من جديد . يعز على وصفه .. كما يعزل عليه أن اصفه .. يفشل الجميع فى وصفه .. تكفى لمحة واحدة لأصفها .. هـذا الذكاء النادر .. نقطة دم واحدة تكفى .. ربع نظرة عين .. او واحـد على مليون .. مليون .. نظرة عين تكفى . انه هو .. هو .. اصلى وفرعى ؛ طفولتى وصباى وشبابى وشيخوختى المبكرة .. انه هو .. هو ، وهو أنا ، استغفر الله .. انه الحى المتوارث .. ندى الطلعـة .. حلو الخطرات .. المتألم .. هو الألم نفسه .. الصـابر . هو الصبر نفسه .. المناضل الذى يبحث عن لقمة العيش الشريفة .

اتقلب على سريرى .. ضوء النيون لا قيمة له بجوار ضوء بلادى .. تكييف الهواء لا قيمـة له بجوار زمهرير بلادى .. الآن أشتاق الى لفحة هواء اعرفها جيدا فى قريتى .. نفحـة برد حتى ولو كانت قاسـية ؟ احب عواصـف بلادى ، هـذه العاصفة بالخارج ، لا اعرف نواياها .. صوت ماكينة الكلى يوش فى اذنى سخيفا مملا رتيبا .. كم سئمته .. لكن ما باليد حيلة ، تعطينى المـاكينة انذارا أن الدم الذى يتجمع فى فم الأنابيب ليس

كافيا .. احاول تحويل الابرة فى ذراعى .. ذراعى الصبور .
اننى أقدر ما تعانيه هـذه الذراع ؟ أضـع شاشا من القطن تحت
الابرة .. لكن انذار قلة الدم لا يكف .. أحاول تخفيض سرعة
مضخة الدم .. حتى لا تسحب كثيرا .. ينبض الوجه الكبير فى
أحد الأركان .. وينتقل من ركن الى ركن .. يفرش على الأرض ..
المكان كله يتحول الى وجه كبير .. ينادينى .. يبتسم فى وجهى ..
يهمس فى اذنى .. أن تجلد .. انت مصرى .. تحمل .. لا املك
الا السمع والطاعة .. يهون الخطر فى قلبى .. انظر الى دمى ..
اتعجب ، كيف تواتينى هـذه الشجاعـة الفريدة ؟ كنت اندب
حظى . لكنى الآن محظوظ ، انه يتحـدث الى ، يخـاطبنى ،
يقترب منى .. لمسة منه تذيب الالام .. أصل الداء منه واليه ..
يعذبنا ويشقينا .. يفرحنـا ويسعدنا .. اننا طوع أنامله ..
هو الحنون الأب والأم .. الأخ ، والصـديق ، افتتاحية لابد
منها ، حتى نبدأ الرحلة الجديدة .. يسكت انذار نقص الدم ..
العاصفة فى الخارج تنذرنى .. لكنى لا اخاف .. ضـوء النيون
يملأ عينى .. لكنه لا يبهرنى ، شمس بلادى هى التى تبهرنى ..
بقى من الزمن خمس ساعات .. مرت ساعة واحدة ، نحن فى
أول عمليـة الغسـيل الكلوى .. ما زالت السـموع فى الدم ..
اغوص فى ملامح الوجه الكبير .. يهدهدنى .. يرعانى ، يشـع على
الضوء .. استمد منه الصبر والطيبة .. والحب .. أحـاول
أن انام ملء جفونى .. لكن القلق يعترينى .. ذراعى تؤلمنى ..
القيود تشدنى ، تربطنى .. أحب أن أصرخ ، احبك يا وطنى ..
احبك يا بلدى .. لا ، لا .. بل همس مساء الخير يا بلدى .

أريـد أن أنـام

كنت أحاول أن أغمض عينى لأنام . ظللت أحلق فى عوالم كثيرة على شاشة الحياة والموت ، أماكن وذكريات ومعارك ووجوه بشر . جست فى منحنيات صعبة شائكة . مرت أمامى أيام القهر التى تريد أن تحنى ظهور الرجال الشجعان .. كما مرت الأيام التى تصنع الارادة والصبر والذكاء ، جعلت أحرك مؤشر الراديو ، على محطات عديدة ، دون أن اظفر بالاستقرار على واحدة منها . كنت سعيدا بغضبى وتمردى مع تسرب العافية من جسدى . استلقيت أطلب الراحة والنجاة من الحـاضر ، فاذا الذكريات تصدمنى وتطاردنى . هذه الذكريات هى بيت الداء ، وهى ينبوع الفن فى آن واحد .

كانت الريح تضرب نوافذ الغرف الضيقة ، وثمة تيـار من الهواء البارد يتسلل الى الداخل . وليس هنـاك شعاع واحد من النور يخفف حلكة الليل وقسوته . قمت واضأت المصباح .. ولكن الظلام كان قويا وساطعا . امسكت كتابا لأقرأ . هـذه

الحروف هى سبب سعادتى وشقائى ، فى نفس الوقت . كلمة واحدة يمكن أن تؤدى بالانسان الى حبل المشنقة . وعادة يبدأ معظم الكتاب بكلمة نعم .. ولكنى بدات بكلمة لا . وسوف اظل اقول لا وانا أعمل . فى قريتى كنت أتطلع الى الفجر والنجوم رغم أن قدمى مغروسة فى الطين . الآن وحدى مع الأيام . اغتربت عن الطريق المترب الذى تحوطه اشجار الكازورين والصفصاف واعواد الأذرة والبرسيم وسنابل القمح ودرنات البطاطس والقلقاس . غابت الرائحة من انفى ، فأصبحت عديم المذاق . صديقى الكاتب يحدثنى وانا اغرق فى بحر متلاطم كالتائه الذى يريد لم شمل جهاده . فقدت الكلمات لونها وطعمها . رميت الكتاب واطفأت المصباح تطلعت الى وجه المحبوبة فى الظلام . انى أعرف ملامحه جيدا . كان الارهاق يكتنفه . تبين على ملامحه آثار القلق المضنى . همست لها فى سرى .. لا تحزنى وقرى عينا .. اننا لا نملك غير شرفنا وعرقنا . الكلمات وحدها لا تكفى. عرفانى بالجميل لا يقدر ايها المحبوب الذكى الحساس . سحبت الغطاء على جسدى . صوت المدفأة يئز بجوارى . هبت على خاطرى نسمة من ارواح الأصدقاء الموتى . انتصبوا يدافعون عن الحياة ، يرتدون « روب » المحاماة الذى كنت احلم أن أزهو به وانا صغير . قال كيلانى الشاعر : لست حزينا لأنى فقدت الحياة ، فأنا السيد ، حتى وانا تحت الثرى ، وقف يلقى شعره، متحديا البرد والظلام والهموم :

يا طريق الحياة لا الشوك يثنينى
لا ولا الصخر سوف يثنى طموحى

سوف اشدو فيملأ النور قلبى
ثم امشى على رنين صداحى

وبشـــعرى اظـل اســتر عيى
ناسجا بالخيال ريش جنــاحى

بأريــاح الخـريف هبى وثورى
واضعفينى فلن يشــل جماحى

وقال محبوب الفنان : .. حققت صدقى وكفى . أشرق صديقى الرســام بقامته الطويلة ، ووجهــه الطيب يحطم ذرات الظلام . رسم لى صــورة قط ابيض جميل ، ثم قال : هــذا هو صــديقى العزيز ، ثم رفع كأســا من الشمبانيا فى يده وهو يهتف .. فى صحة البشر جميعا . قعد على الأرض وهو يبتسم ساخرا .أخرج من جيب معطفه قلمه الرصاص ، ثم همس : هذا القلم لم يستطع أحد أن يشتريه . ضحك فى صفاء بصــوت عال . قال : انى سعيد . لأنى قرات قبل أن اموت مسرحيــة « ميجر بربارا » لبرناردشو . الآن اتممت قراءة أعمال العملاق الساخر كلها .

بوتقة الحزن تكبر وانا أريد أن أنام . شعرت بذراعى اليسرى يؤلمنى . فى الصباح كنت خائفا ومذعورا . قبلات الابر فى الذراع لم يعد لها مكان ، ألف قبلة وقبلة .. وكل قبلة بمخــاطرة وألم جديد . جلد الشريان كله يلتهب باللون الأحمر الداكن . أصبح كالعقــد الولى الأبيض يريد أن يحــافظ على زمردة الحيــاة اصبحت هذه القبلات طابعى الأثير . هى بويضــة الحياة مع الموت معا ، الاقدام مع التراجع والهرب ، لو قال لى احد ان كل هذا سوف يحدث لمــا صدقته . كنت احلم ان الف بلاد العالم ، احمل غطــائى فوق كتفى . أنام فى اى مكان ، واشرب من اى مياه . وآكل من خيرات الله ، على وجه الأرض . ان اجمــل الشواطىء ، هى تلك التى لم نراها بعد ، واجمل الأطفال هم

الذين لم يولدوا بعد .. هكذا قال ناظم حكمت . الآن طويت الأحلام . فى مرة كنت أمشى على نهر التيمز . كان الشوق قد طال لنهر النيل . غيرت هوية « التيمز » ، انتابتنى الرعشة ، حلت بى النشوة . انى الآن أمشى على نهر النيل . كذبت على نفسى ، حتى أشعر بالأمان . اقتنصت الفرصة النادرة . لا يهم .. كل الأنهار ملك للبشر . لا .. لا .. النيل لا مثيل له. كان « التيمز » فى تلك اللحظات ثلجيا وموحشا وغريبا ؛ لا شمس فوق مياهه . النيل لى وحدى على طول تدفقه من حلوان الى القاهرة . وعند المقرن حيث يلتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق فى السودان . هناك مشيت وشربت حتى ارتويت . أريد ان أنام . ازدادت سرعة الريح بالخارج . سمعت قطرات المطر تتساقط على زجاج النافذة أحسست بالدفء اللذيذ ؛ غير أن راسى كان يزدحم بالأفكار المتصارعة . كل فكرة تقفز متلاطمة مع الأخرى ، تريد أن تزيحها عن طريقها . وفجأة يتسلل الى وجه أمى على مهل . كانت تغطى رأسها بطرحتها البيضاء الأليفة . تعتلى الغضون تقاطيعها . لمست ذراعى داعية .. الله يخليك يابنى . احتضنتها بين ذراعى . فرت الدموع من عينى .

همست . عفوا يا أمى . لم أستطع أن امشى فى جنازتك . ابتسمت وهى تقول .. لا تهتم .. انا أعرف شعورك نحوى . جلست بجوارى على السرير . قالت :

ـ هل انت بخير ؟ .

قلت :

ـ كما ترين ...

قــالت :

ـ أدعو لك دائما ...

قــلت :

ـ رحمك الله يا أمى ...

قــالت :

ـ أنت لا تغيب عنى أبدا .. أبدا ..

قــلت :

ـ وانت ايضا ..

قــالت :

آه لو عرفت برودة القبر ...

غمغمت وأنا أزيح الغطاء عنى :

ـ الله يخليك يا أمى .. الموت يختلط بالحياة ...

واختفى الطيف سريعا . طار بجناحين خفيفين ، عابرا القارات والمحيطات والجبال والصحراء ، حيث حط فى موطنه الأصلى . أحسست بضيق فى صدرى . أنفاسى تختنق من ندرة الهواء المنعش . تطلعت الى سقف الغرفة .. فاذا به يضىء بحروف حمراء قانية .. آه يا زمن .. أريد أن أنام . انتفضت من السرير ، ونزلت الى الدور الأول . أشعلت الموقد وعملت شايا ، ثم صعدت مرة أخرى ، ووضعت الشاى بجوارى ارتشفه. تململ المحبوب يقول :

ـ فيه حاجة ؟ ؟

قلت :

لا ... ابدا ..

قالت :

ـ كم الساعة الآن ؟ .

قلت :

ـ الثالثة صباحا .

قالت :

ـ لماذا لم تنم ؟ .

قلت :

ـ كنت نائما ... ثم صحوت ...

دخلت تحت الغطاء من جديد . عادت اصوات الموتى فى اذنى . ذراعى تؤلمنى . تعب اليوم كله يحل بجسدى هل اجرب طريقة احد الأصدقاء حين كان يعز عليه النوم ... كان يقول لى : اذا كنت قلقا وحزينا ، أو يعز النوم على جفنيك .. عليك أن تكرر بعض الكلمات التافهة ، التى لا معنى لها عشرات المرات .. كرر كلمات مثل .. ريانى يا فجل أخضر .. ريانى يا فجل اخضر .. اى كلام فارغ الى أن تنام . تذكرت نصيحة الصديق ، فكدت انفجر من الضحك رغم الأسى .. ولكن لا بأس أن احاول .. لا بأس . قلت بصوت عال : .. تنتشر القطط والكلاب والفئران فى بريطانيا .. فى المطاعم الصينية فى لندن .. وجعلت أكرر .. القطط .. والكلاب .. بريطانيا .. المطاعم .. بريطانيا .. القطط .. الكلاب .. ووجدت نفسى استغرق فى النوم .

محب من مصر

فى كل صباح كنت أترقب ساعى البريد . اتصنت على اية حركة غير عادية بجوار الباب ، أو من خلال فرجته . يعترينى نشاط غير عادى لتلقى الصحف ، غير انى كنت أشد شغفا لانتظار رسائل الأهل والأصدقاء والأحباب . شيء ما يسيطر على كل حواسى ، فيجعلنى كلى آذانا صاغية الى كل صوت ، او نأمة تجاه الباب . كنت اتطلع من وراء الستارة الشفافة لأى قادم نحو البيت او امامه . وكانت الرؤية تختلط فى عينى بعض الأحيان ، ارى احد القادمين ، فاستبشر خيرا ، حتى اذا ما اقترب ، اكتشفت أن عينى خدعتنى . الآن قلبى يدق فى صدرى دقات رقيقة حساسة نابضة بالأمل والترقب . يسرى فى دمى تيار من الحرارة . ما الذى يحولنى الى هذا المخلوق المتلهف على رسالة بعينها ، انتظرها بفارغ الصبر ؟ ! . انه شيء كالسحر المعتق ، الذى لا استطيع الفكاك منه . هو يحتوينى بين اعطافه . أن احيا من جديد ، على قراءة سطور رسالة قادمة

من أرض الوطن . والغريب أنى أضجر ، ويشملنى الضيق ، من أحوال كثيرة ، تحدث هنالك ، فما سبب هذا الهيام الذى يعذبنى كل يوم . انه هيام من نوع غريب ، متضخم العواطف والمشاعر ، الى حد الانفجار القاتل . فى تلك اللحظة اندفع المظروف الصغير كالطلقة النارية من فرجة الباب . قفزت درجات السلم فى سرعة فائقة . قلبى قبل قدمى ، عيناى تسبق جسدى . أصبحت فى ثانية واحدة ممغنط الروح والجسد .. وخطفت! قبضت على المظروف ، كما لو كنت أمسكت سمكة من البحر ، تريد أن تفلت منى . لم أصدق عينى . ها هى الرسالة التى انتظرتها طويلا . دخلت من الصالة الصغيرة ، وجلست على أحد المقاعد والكلمات بين يدى . عنوان المظروف مكتوب بالحروف اللاتينية على قد الحال . وبالكاد قرأها موظف البريد .. شكرا له على مهارته ، فى فك الرموز المستعصية .. فتحت على مهل . القاهرة فى ... ثم .

* * *

شقيقى العزيز عبد العزيز ...

منذ فترة طويلة لم تكتب الينا . نحن مشغولون عليكم . نتمنى ان تكونوا فى خير وسعادة وعافية من هنا الجميع يهدونكم عاطر التحية والسلام . وعلى فكرة سمية تزوجت ، وسوف تنتقل مع عريسها الى الاسكندرية ، فهو مهندس زراعى . أما « مها » فما زالت تؤدى الامتحانات ، ولا تنام الا فى الساعة الثالثة صباحا ، ومن هنا فان البيت فى حالة طوارىء . وعصام يقيم بمديرية التحرير ، ولا يأتى الا كل شهر مرة . ومن حسن حظه انه يأكل الدجاج كل يوم ، فهو يعمل فى محطة تربية

الدواجن هناك . وقد ذهبنا فى العيد الى قبر المرحومة الوالدة ، وقرأنا الفاتحة ، ووزعنا ما فيه القسمة ، على الفقراء . وقد أخذناها مشيا على الأقدام من الامام الشافعى الى السيدة زينب.

شقيقى الغالى ...

سمعنا فى نشرة الأخبار عندنا أن العواصف تجتاح بريطانيا . ربنا يستر . عمك باع ربع فدان ليبنى بيتا للعائلة فى أبو كبير ، حتى نتجمع فيه أثناء المناسبات . هل تتصور أن المتر المربع أصبح ثمنه عشرين جنيها . المهم كيف أحوالك العامة والخاصة ؟ وحشتنا جدا والله .

كل أصحابك هنا بخير وسلام ويهدونك أجمل تحية ... محمد عبد الحميد ، والشيخ حنفى ، ومحمد حسن عامر ، والحاج عبد العال الشاذلى ، وايضا اهل شبرا وانشاص وحلوان وامبابة والزيتون والدقى وفاقوس .

نرجو أن تحدثنا فى رسائلك القادمة كيف تعيش فى لندن . وعلى فكرة تهانى تريد أن تحضر لزيارتكم لولا انك تعرف أن اليد قصيرة ، والعين بصيرة . انها الآن تذكر الأيام التى كنت تحملها على كتفك وعمرها لا يتعدى الأربع سنوات . هى الآن تحضر لدرجة الماجستير فى الفلسفة الاسلامية . وامنيتها أن ترتدى الروب الجامعى ، لتصبح أستاذة جامعية ، وحمادة ابنها كبر ، وهو ينطق الآن ماما .. بابا .. وجدو .. وعمو . هل فى لندن مصريون كثيرون ؟ وما أخبار صحتكم ؟ اننا ندعو لكم فى كل صلاة . وماذا تم فى مسألة زرع الكلية ؟ وقد ذهبنا فى الأسبوع الماضى الى انشاص حيث أكلنا الفراولة هناك . وكان الغداء ملوخية بالأرانب . وان شاء الله سوف نرسل اليكم بعض الجبن

القديم . ونخبرك بأن الدكتور عبد الرحمن التحق بالجيش .
وقد كسبت ابنة خالتك كريمة ألفى جنيه ، من شهادة الاستثمار
التى اشترتها بالمصادفة منذ عام . وهى تنوى الحج ، وتجديد
أثاث البيت من المبلغ . وأما بخصوص الملابس القطنية التى
طلبتها ، فقد بحثنا عنها فى محلات القطاع العام والخاص فلم
نجد ، ولا تنس بأننا اجتمعنا يوم الجمعة الماضى فى بيت عمك
حسين . وكان طعام الغذاء فتة وملوخية وسلطة خضراء . وكان
ذلك بمناسبة خطوبة منى ، صغرى بناته الى محمد عبد الرازق ،
وهو يعمل امين شرطة فى نقطة وسط القاهرة . وهو شاب ظريف
وهادىء ، كريم ، يحب الضحك . هذا وقد أحيل خالك حسن
حمدى الى المعاش ، ولكنه يشرف على دار حضانة للأطفال ،
ليقضى بها وقته ويتسلى . ويؤسفنا أن نخبرك أن عمك اسماعيل
توفى بالسكتة القلبية وهو يصلى المغرب بالبيت . وأحب أن أخبرك
بأن اجلال زوجة ابن اختك الدكتور عبد المنعم أنجبت بنتا لطيفة
سموها دنيا . وايضا فان سعاد الشغالة أنجبت توأمين ولدين .
وزوج سعاد قد تاب الله عليه ، فلم يعد يدخن الحشيش ولا يأكل
الأفيون ، وقد انتقل من وظيفة كبير السعاة ، الى مساعد كاتب
بأرشيف الاصلاح الزراعى ، لأنه تعلم القراءة والكتابة . وهناك
خبر سار ايضا ، فان الشيخ محمد عبد الحميد ، والشيخ حنفى ،
قد عينا بالمسجد بانشاص بعد ان انضم المسجد ، الى وزارة
الأوقاف . وهما الآن من أصحاب المعاشات بعد عمر طويل .
وقد أعطت الأرض هذا العام محصولا وفيرا من الفراولة والبطيخ
والقمح والقلقاس . ومازالت شجرة المانجو التى زرعتها
موجودة وتطرح كل عام . ويؤسفنى ان اخبرك ان نائب العمدة
الرجل السمين ، اخذ حقنة خطأ . فتسمم جسده ، ومات بعد

يومين فى المستشفى . وفى الختـــام ارجو الا تقطعوا الخطابات فنحن مشغولون عليكم .

شقيقك المخلص

((محمد عثمان))

* * *

الآن اتنفس من أعمــاق صــدرى . أستريح . امسكت الخطاب من البداية ، وقراته مرة اخرى . لم أكن أمل النظر الى حروفه . انى أعرفها جيدا ، منذ ان كنت صغيرا . كان اخى يعلمنى الكتابة والقراءة ، فى كتاب المحفوظات ، يزهو بى عندما اترنم :

مصـــر العزيزة لى وطن

وهى الحمى وهى السكن

وهى الفريــدة فى الزمن

وآه من الأحــوال .. كم تغيرت الســنوات منذ نشــيد المحفوظات الى وقتنا الحاضر ، كبر الطفل ، واستوى صبيا ، وأدرك شابا ، ووعى وهو رجل ، أن له وطنا عربيــا اكبر . لكن ذكريات الطفولة لا تمحى ابدا . هأنذا فى لندن . ما احلى كلمات القاهرة وليالى القاهرة ! . على النيل كنا نتسلى بالترمس والفول السودانى والحلبــة الخضراء . وفى مقــاهى الحــارات والشوارع نجهد من المناقشات الحامية ، كان الوطن فى خطر . وكنا نتسابق من منا يرتدى زى الفدائيين قبل الآخر ؟ . ومن جديد يخبو كل شيء ويهمد . نعود الى الملل والاحباط ، ليس

هناك من ينقذنا من همنا وكآبتنا غير الكلمات . نسبح فى بحر القهر واللامبالاة . العلاقات العائلية لا تشبع الروح . العمل يدور بين جدران اربعة . الآن أعود الى أصلى . ها هى الكلمات تصلنى من القرية ، لابد أن أرد عليها ؛ قبل أن يعترينى الوخم . الأيام تجرى ونحن لا ندرى ، كما كان يقول لنا مدرس اللغة العربية أصبحنا الآن محصورين فى ثقافة مغايرة لثقافتنا ، علينا ان نأخذ منها الأفضل ونترك الردىء ، لكنى اشتاق الى أشياء معينة لا اجدها هنا . صباح الخير لها طعم آخر غير تلك نقولها فى القاهرة . أين السلام عليكم ، أو الله يعطيك العافية .

* * *

وتمر الأيام وأدس رسالة الشقيق فى حافظتى . كنت أشعر بالذنب . وفى ليلة كنت افكر .. هذه الغربة تفرض علينا الكثير .. كنت فى قريتى ارتدى جلبابا ريفيا بسيطا ، أقعد وسط الحقل ، تحت شجرة الصفصاف ، وفى يدى كتابى اقرأ .. اشرب من ماء النيل ، وآكل من خيرات الله . ما علينا ، لابد ان ارد على رسالة الشقيق .

* * *

شقيقى العزيز محمد ...

قبلاتى واشواقى ، لا تتصور كم فرحت بكلمات فى هذه الغربة القاسية . أتمنى ان تكون جميع العائلة ومصر كلها بخير . اننا هنا نذكركم فى كل لحظة . اشتقنا الى عواطفكم الدافئة . ما كنت أحسب انى سوف ابقى فى هذه البلاد ، هذه المدة الطويلة ، ولكن ارادة الله هى التى ترتب كل شىء .. وآه من

الظروف التى مرت بنا هنا . أقول لك بصراحة .. ان اقوى الرجال يعجز عن تحمل ما تحملنا .. ان ثريا كما تعرف ، لم تمر بها تجارب كبيرة قبل هذه التجربة ، ولكنها رفعت راسها ضد كل العواصف الهوجاء . كانت وما تزال تتصرف بذكاء واصرار غريب ، لتدافع عن حياتنا . أتمنى وما أتمنى على الله الكثير أن يعطيها نفاذ البصيرة دائما . انا أكتب لك هذه الكلمات وامامى حديقة بيتنا الخلفية . ها هى الورود تتفتح فى عينى ، كل شىء ملون بالأخضر هنا . لندن ليست مدينة الضباب والمطر . هل تذكر بساتين انشاص الخضراء ؟ . آن الملك فاروق ، كان يريد تلك البساتين مثل حدائق بريطانيا الفسيحة . تربى الملك هنا ، منذ أن كان أميرا غضا ، تفتحت عيناه على حب الحياة البريطانية . الآن ذهب كل شىء ، ولم يبق من الملك الا التاريخ ، وعظامه المدفونة فى مصر . دعك من الماضى وذكرياته . لقد فرحنا بالبطاطس المصرية هنا فرحا شديدا ، لأن طعمها لذيذ . فى بعض الأحيان أسير فى شوارع أوكسفورد ، فأتوهم انى أسير فى شارع فؤاد . على ان ما يحزننى جموح ابنتى صفاء فهى مازالت تتأرجح بين الحضارة الغربية واصلنا الشرقى . هل تذكر يوم أن حملتها بين يدى لأول مرة بعد ولادتها بساعات . انها الآن شخصية تتحدث الانجليزية . تسبب لنا عذابا لا نستطيع تحمله . بالأمس دخلت البيت وفى هدوء شديد قالت : سوف اترك البيت ، لأقيم وحدى . وفى اليوم التالى وقفنا جميعا نودعها على عتبة الباب . كانت تحمل حقيبتها باليد اليمنى . تبادلنا النظرات . نكسنا رءوسنا فى لحظة واحدة . يا له من وداع لم يطرق خيالى لحظة سابقة ، لكنه حدث . كانت الدنيا تمطر . فردت صفاء مظلتها فوق راسها . وكان آخر ما رايته منها ، هو كتفها اليمنى مع جانب من راسها . ولم يبق منها سوى ذكريات

احدى وعشرين سنة من عمرى . فى تلك اللحظة يا شقيقى محمد، تجمدت دمعتان ساخنتان فى عينى ، وددت لو انحدرتا على خدى، حتى استريح وأبكى ، لكن للأسف توقفت الدمعتـــان الحارتان فى عينى . لم أكن اعى ما حولى . تهت فى الزمن المـاضى . كان عمر صفاء آنذاك خمس سنوات ، تتدحرج ورائى عند عين حلوان فى الخلاء . أنا وهى وحدنا . وقتها كنت قد فرغت من قراءة رواية نجيب محفوظ « الطريق » . وكان يلذ لى كما كان بطل الرواية يتحدث فى الخلاء ، باحثا عن أبيـــه .. اشتقت لك يا سيد يا رحيمى .. اشتقت لك يا سيد يا رحيمى .. كانت هى تقف بعيدا .. ثم تجىء الى تجرى .. وتقول نفس الكلمات .. ونفس النداء .. هل تنقلب اللحظـة النقية الجميلة الى واقع كئيب اعانيه ؟ . كنت أريد ان احدثكم عن لندن كثيرا . هــذه المدينـة الجادة العابثة الجميلة المتجهمة . منذ ايام قابلت بالصـدفة فى شارع البيكاديللى محمود شكوكو . جريت اليه اسلم عليه . فرحت به جدا . لا انسى أول مرة سمعت له مونولوجا ، « آه م الأسعار، حتولع نار عند التجار .. آه م الأســعار » ذكرتــه بالمونولوج الشهير .. فضحك ضحكته الصـافية العاليـة وهو يقول .. ياه .. دا كان زمـان قوى .. أيـام النحـــاس والوفـد أظن . وصـمت هادئـا ، ثم انفجر ضاحـكا مرة أخرى قـائلا .. كانت أيام .. وقال لى : نحب نتعرف . قلت له : أنا محب من مصر .. غريب فى لندن . قال : معهلش مسير .. الغريب يرجع بلده . وفى آخر الشـارع واجهنى شـحاذ يطلب حسـنة .. ابتسمت .. انه يتحدث الانجليزية ...

واخبرك بأنى موضوع على قائمة انتظار زرع الكلية . من يدرى .. انها فرصة نادرة قد تحدث .. من يدرى ؟ . تقلبت

على اللظى بعد قراءة رسالتكم . كنت اترنم ببيت الشاعر العربى القديم :

اسرب القطا ، هل من يعير جناحيه
لعلى الى من هويت أطير ؟ ! .

اريد أن احتضنكم جميعا فى صدرى ، المسكم ، اتحسس أياديكم ووجوهكم واعينكم . أشم روائحكم عن قرب ، أثرثر معكم ، اصمت معكم ، احزن معكم ، افرح معكم . أريد أن اسبح فى نهر مودتكم . انت تعرف أنى انسان عاطفى .. وفى الختـام قبلاتى ودمت لشقيقك المخلص .

« عبد العزيز عثمان »

* * *

نسيت أن أقول لك انى كتبت اليك هذه الكلمات من حجرة صفاء الموحشة . ان كل شىء على حاله ، كما تركته .. **الكومودينو** وزجاجة عطرها ورائحتها .. وأنفاسها الحـارة ، لم تضع بعد من عبق المكان .. حتى بقايا كوب الشاى لايزال بجوار سريرها .

حلم ليلة شتاء ...

ظلت الريح تضرب النوافذ ضربات متلاحقة مجنونة . وكانت الأمطار تتسرب على الزجاج فى خطوط غزيرة مقهورة . وبين الحين والآخر تتقاذف ألسنة لهب البرق حبات المطر المتناثرة . تصك اذنى هزات الرعد المخيف ، فأنكمش فى سريرى . وحدى فى شمال لندن الغربى ، يحتوينى الرعب . تمنيت ، وما تمنيت على الله الكثير أن أفك قيودى لأواجه تطبيب جروحى . الابرتان تشلان ذراعى اليسرى . لم يكن هناك احد ألجأ اليه الا الله . فى الداخل كنت أعالج وضع الهيبارين ، والضغط المنخفض ، والصداع ، وذبذبة الجسد الواهن . وفى الخارج ادعو وأتضرع أن يرفع الله مقته وغضبه عنى . كنت أهفو لأغفو الى النهاية . خيوط العنكبوت تنفذ الى قلبى . من ينقذنى من همى وكآبتى وألمى ؟ . طالعنى وجه الصديق الأسمر القديم . طال الشوق الى لقائه . هو الآخر يعيش فى الصقيع ، ولكن صدره عامر بروح المستقبل . ألقى التحية ، ثم جلس بجوارى يهمس :

ـ كتبت قصيدة شعر جديدة .. هل تسمع ؟ .

قلت وأنا أتزايل :

ـ انى متعب يا صاحبى ...

قــال :

ـ انت تعرف أننا مرضى بالكلمات .. كل كلمــة فيها الداء والدواء معا ...

وهز رأسه وهو يمسح فمه :

ـ هل يتغير العالم بالكلمات ؟ .

اشحت بيدى اليمنى الحرة :

ـ ربما ... ربما .

قــال :

ـ ولكن الفعل قبل الكلمة ... هل تسمعنى ؟ !.

قــلت :

ـ لا استطيع التركيز ...

قال وهو يمسح على جبهتى حنانا ومودة :

ـ اتركك لتنام ...

همســت :

ـ لا تتركنى وحدى ...

وســاد الصمت بيننا . عات دقــات المــاكينة . توقفت مضخة الدم . ابرة الشريان لا تسحب الدم بما فيه الكفاية .

قـال :

ـ اهذه هى التكنولوجيا الحديثة ؟ .

قـلت :

ـ يرحمك الله .. ليس بعد خلقه من خلق .. اسمعنى القصيدة ...

قـال :

ـ الآن لا وقت للشعر .. هل تذكر ؟ .

قـلت :

ـ اذكر او لا اذكر .. ليست هذه هى القصيدة ...

وازدادت ضربات الريح عنفـا . بقايا رائحة المرضى تزكم المكان . ماكينات الكلى الصناعية ترقد مثل جثث الأشـباح فى منتصف الليل . قطب صديقى حاجبيه ، وهو غاضب . وقال :

ـ متى تنتهى ؟ .

قـلت :

ـ فى الخامسة صباحا ...

قـال :

ـ يا صبرك يا أخى ...

وتململ فى جلسـته يحب أن يطـير . تعجبت .. طالمـا ضحكنا معا ، وبكينا معا فى حانتنا المشهورة . حاولت أن ألتمس له العذر . ضايقنى وانا فى حاجـة الى صحبتـه . تحسست كتفه ، فلم أجده .

* * *

وعدت الى عالمى لأغفو ، بالموت أو النسيان . قفلت عينى باصرار . كمية السـموم تتضاءل من دمى . أودعت سرى الى خالقى . وشملتنى طمأنينة هادئة . وضح الطريق أمامى . هو نفسه ، ما تعودت عليه منذ أيام الطفولة . وتكثفت لذة الألم فى ذرات حول العنق وفى الأمعاء . الآن أدخل جنتى . شـددت لجام جوادى المرهق . اعتليت صهوته الحريرية . راقت الدنيا من جديد . تربصت الزمن القادم . جربت قوة الذراعين . تذوقت حلاوة الابتسام . أخرجت سيفى الذهبى من غمده . طال وقت رقاده . بسملت فى سرى . انى لست معتديا . حسبى أن أنظف طريقى الذى تعودت عليه . تطلعت الى النهر الصغير ، فوجـدت السمك يتقافز ، يطفو على السطح ، ثم يغوص مرة أخرى . قطفت زهرة يانعة بنفسجية اللون . أكلت كسرة خبز ، ثم شربت جرعة ماء من زمزم ، أخرجت شـوكة قديمة من قدمى . صهل الجواد ، فازدادت حـلاوة الاقدام والمغامرة فى روحى ، ثم عدت وهمست ، العفو عند المقدرة أفضل ، ورتلت : « فاذا الذى بينك وبينه عداوة : كأنه ولى حميم » ، ولم أكمل . انطلقت رصـاصة وراء أذنى مبـاشرة . اذن لا مفر من القتـال . من أين جاءت الطلقة ؟ . ولوحت بسيفى فى الهواء . هل من منازل ؟ لكنى لم أر انسانا أو جنا فى الساحة الخاوية . شـددت لجـام الجواد ثم أرخيته ، فاندفعت حوافره تسابق الريح . حلقت خفيف الوزن .. أغنى .. أيها الأنذال ، هل من مقاتل ؟ ! .

وفتحت عينى على انذار المـاكينة المجهدة . ما تزال الريح تضرب النافذة ، وقطرات المطر تتساقط على الزجـاج . عالجت الخطأ ، فدارت مضخة الدم من جديد . كبا جوادى ، فقمت أركض لأستعد للمعركة القادمة .

بيـــان

طرقوا الباب عليه . لم يستطع أن يفتح لهم ، ظل ممددا على سريره ، مقيـد الذراعين . زادوا من عنف الضربـات . سـأل :

ـ من بالباب ؟

قـالوا :

ـ نحن .. أنت تعرفنا جيدا .

تحير فى نفسه . منذ وقت بعيد ، لم يطرقوا بابه . تركهم هناك لينجو بنفسه . كيف يلاحقونه فى هـذه الغربة . ألا يكفى ما يقاسيه من عذاب ؟ . فك أسر ذراعه اليسرى . تزايل ، وهو يحاول أن يفتح الباب لهم . لم يعد يقوى على رد الهجوم . أترعت روحه بالمرارة الشديدة . كيف يجرؤون على اقتحامـه هكذا . انه عديم الثقة بهم . تاريخ طويل ، وهم يدلسـون عليه. أيام كان فى كامل صحته ، يراودونه عن شرفه وأصالته . لم يكن

أمامه الا القصص يكتبها ، يطرد عن روحه هـذه الشرور . الآن يعاودون المحـــاولة . هتف دون أن يســـمعوه .. ابعدوا عنى أرجوكم .. ابعدوا عنى .. دعونى فى حالى .

نظروا الى وجهه الأصفر ، فقالوا :

ـ جئنا لنطمئن عليك ...

رد عليهم فى العلن :

ـ شكرا ... شكرا ...

وفى سره :

ـ بئست بها من زيارة للاطمئنان ! .

فهموا قصده ، فقالوا :

ـ رجعت الى عادتك القديمة .

قــال :

ـ وماذا أستطيع أن افعل ؟ .

قــالوا :

ـ كن صريحا معنا نكن صرحاء معك .

قــال :

ـ لم أكن غامضا فى يوم من الأيام .

نظروا الى الدماء النازفة من جســـده ، والعائدة اليه ، ثم قالوا :

ـ قلوبنا معك ...

ـ شكرا ... شكرا ...

لم يكن الموقف قد اتضح بعد . فهم يلفون ويدورون حول شيء غير محدد . يخـاف ، ولكنه لا يريد أن ينهار أمامهم . من خبرته معهم يعرف أنهم يريدونه منهارا وكاذبا ومنافقـا وأفاقا . ومن خبرتهم معه يعرفون أنه لن يكون .

جلسوا حول سرير مرضه :

ـ نحن معك الى النهاية .. اطلب ما تشاء . نحققه لك .

قال فى العلن :

ـ جميلكم سابق .. انى عاجز عن شكركم ...

وفى سره :

ـ دعونى لحـالى ...

أخرج أحدهم بيانا من جيبه ، قال :

ـ جئناك اليوم لتوقع هذا البيان ... هل تقبل ؟

قـال :

ـ أقراه فى البداية ...

مد الزائر يده اليه بالبيان . اقترب من سريره . ذعر حين نظر الى عينيه الحادتين . كان وجهه يشع برعب غريب . تتشح جبهته بندوب عميقة الغور . فى صـوته ، بحة كئيبة المرمى . لم يستطع أن ينظر فى سحنته . خبيث هو وشرير . مهندس فى سحق الأرواح البشرية . تناول منه البيان . كان مكتوبا بخط

انيق واضح .. على ورق ملون .. نحن الآلاف .. نؤيد خطواتكم .. نفديكم بالأرواح .. جنودكم على الطريق .. بالدماء نقدم . قال فى سره : هذا هو البيان الواحد بعد المليون ، دون جدوى وسوف تجىء بعده بيانات أخرى .

كان الزائرون يتقلدون الأوسمة والنياشين ، يضعون القرنفلات الحمراء فى عراوى معاطفهم ، معطرى الصدور ، يتبادلون الود . ينزوى هو فى سريره ، مشتاقا الى الشفاء ، وليس هناك من شفاء . مرضه الأكبر لم يكن جسده ، وانما كان المرض الذى يريد هؤلاء الزائرون المفاجئون أن يفرضوه عليه ، ان يوقع على بيانهم . هويته ليست ان يوقع بيانات ، وانما أن يخفف من آلام الناس ، وان يخفف الوطء حينما يمشى على الأرض ، وان يأكل من ثمارها مباشرة ، وان يحب الناس والدنيا جميعا . وياليت بيانهم يتضمن حقيقة واحدة .. تقطع يده اذا..

قدموا له فاكهة الزيارة .. عنب وموز وتفاح وأناناس ...

قال لهم فى العلن :

ــ أشكركم كثيرا ...

وفى سره :

فاكهنى هى حريتى .. بئست بها من فاكهة هذه ، مغتصبة من قوت الفقراء .

الآن العين فى العين ، يعيش فى قلب التحدى . ينزف من الداخل والخارج معا . دماؤه الحقيقية تسيل فى دورتها ، يعرف كيف يسيطر عليها بعد جهد جهيد . لم يعد يخاف خطورة هذه الدورة ، الخوف من دورة هؤلاء الزوار . هبت بعض النسمات.

طار طرف معطف أحدهم ، فظهر خنجره ، من تحت **المعطف** .
لم يصلوا الى درجة التهديد بعد . ما زالوا فى دور الترغيب والمساومة . وقع يا عزيزنا على البيان .. نحن معك .. لن نتخلى عنك أبدا .. نتحمل مسئوليتك كاملة . هل توقع أم لا ؟ سأل أحدهما .

قال :

ــ دعونى أفكر .. اعطونى فرصة ...

قالوا فى صوت واحد . على مهلك .. ليس وراءنا شيء نتعجل أمره . حسبنا أن تفكر جيدا . هذا بيان للناس ، يهمنا الناس جميعا . أراد أن يقدم لهم تحية الضيوف ، فلم يستطع ، مكبل بقيوده . كريم الطبع ، لكنه لا يقدر على الحركة . اعتذر لهم :

ــ عفوا .. لا أقدر أن أقدم الشاى أو القهوة .

قالوا :

ــ شفاك الله .. ما جئنا نشرب قهوة أو شايا .. جئنا للاطمئنان عليك .

انتهز الفرصة وقال :

ــ وامضاء البيان .. هل من الضرورى أن أوقع عليه ؟ .

ضحكوا ثم قالوا :

ــ نحن نفضل أن توقع .. نفضل أن توقع...هل تفهمنا ؟.

قال :

ــ ولكن معركتى ليست فى توقيع البيانات اليوم .

قـالوا :

ـ نفضل أن توقع .. وقع يا أخى واخلص ...

قـال :

ـ معركتى ضد الموت .. هل تفهمون ؟ ! ..

قـالوا :

ـ دعك من هـذه النغمة القديمة .. نفضل ألا تتعرض لمتاعب جديدة ...

تمدد على سريره وراح يعالج نزيفه . عظامه تؤلمـه . يتطلع الى دورة الدماء فيتعجب . كيف أمكنه السيطرة عليها ؟ . أراد أن يشرح لهم هـذه المعجزة الطبية التى يمارسـها ، ولكنـه فضل السكوت . تركهم لذكائهم وغبائهم . يفهمون أو لا يفهمون. حسبه ألا يتعرض أحد من أعدائه قبل أصدقائه لتجربة المرض. ليس من بلده وحـده ؛ وانما على وجه الأرض كلهـا . يجب أن يكون مصرع العدو فى ساحة حرب عادلة مشروعة ليشهد التاريخ. سمت انسانيتـه فوق النذالة والمؤامرات والتشفى والأحقـاد الصغيرة . تمنى أن يبادلوه محبة بمحبـة ، ومودة بأخرى ، ولكنهم يرفضـون المودات والحب ، يحلو لهم ان يلفوا فى كرههم وحقدهم .. تطلع الى وجوههم المتحفزة فامتلأت نفسه رثاء لهم . يا حضرات الأذلاء متى تصبحون سادة أنفسكم واذا اردتم أن تكونوا عبيدا ، هل من الضرورىأن تجروا الآخرين الى ساحة عبوديتكم؟. لم ينطق بكلماته ، فالخنـاجر تحت معاطفهم ، وهم مستعدون لاغتيال مخالفيهم فى الراى . شـعر ان الملقى على سرير المرض أقوى منهم . انه يسبح مع الفقراء فى نهر واحد .. تشـع من عينيه قريته عند أحضـان الجبل ، حقولها وسوقها وناسها ،

وطريقه الذى لا يحيد عنه . كم أوحشه هـذا الطريق وقت العودة من الحقول ! . الفلاحون معفرى الجبين ، وأيام حصاد الفول السودانى والقمح والأذرة والفراولة ، وظلال الأشجار تنام على مياه الترعة الصغيرة ، والخراف والكلاب وراء قافلة الحصاد . وأمسيات الضحك والمودات الحميمة . هـؤلاء زوار الغربة يريدونه شجرة بلا جذور . لجـأ الى القرآن يستعيذ به من الشياطين .. قل لا يستوى الأعمى والبصير ، ولا الخبيث مع الطيب . وشفت فى رأسه الأفكار .. فأخضع الجسد الواهن لها . لن يوقع البيان .. وليكن ما يكون فرت الدموع من عينيه . وقفوا جميعا يحيطون به .

ــ ما الذى يبكيك ؟ .

قال فى العلن :

ــ لا شىء .. لا شىء .

وفى سره :

ــ ان الدموع تطهر الانسان .. لا بأس أن نبكى لحظة أن نتمسك بأفكارنا ...

قدموا له جرعات المـاء . تقبلها شاكرا . ازدادت دموعه سيولة . من عادته أن يبكى كلما التقى الانسان بأخيه الانسان . ما كان يجب أن يبكى فى حضرتهم . هؤلاء باعوا أنفسهم ، ويريدون أن يبيعوا الآخرين ايضا . هو يصمم الا يبيع عواطفه أو أفكاره ، مهما كان الثمن . قال فى همس :

ــ أيها السادة لن اوقع البيان ..

سمعه احدهم :

ـ كيف .. أنت مجنون .. لدينا توقيعات كثيرة .. فكر يا مجنون .

قـال :

ـ انا أعرف أصحاب هذه التوقيعات ...

قـالوا :

ـ ماذا تعنى ؟ .

قـال :

ـ لا أعنى شيئا .. معركتى ضد الموت..وليست ضد .. هل تفهمون ؟ .

وكاد أن يفقد وعيه . نزل ضغطه الى درجته الدنيـا . لم يعد يسمع أصواتهم . استراح على وسادته . غاص فى بئر مظلم من اللاجدوى . رأى جثث الموتى فى صفوف متراصـة . انتابته قشعريرة مفاجئة . من لم يمت بحد السيف مات بغيره . ليته يموت بحد السيف . لا يحب أن يموت على سرير المرض ، أمله أن يموت فى ميدان القتال ، وسط اللهب المحرق ، وطلقات الرصاص ، ودوى القنابل ، يحارب المستغلين والمرتشين والأفاقين وجها لوجه . الوقت ليس مناسبا لمعارك هامشية ..

وانفتحت له طاقة القدر . دخلت عليه زوجته وولده . انتفض من الفرح . أشار اليها يعرفهم بها .. هـذه زوجتى قمـر .. وهـذا ولدى لطيف : وهـؤلاء زوار من البلد جاءوا للاطمئنان يا قمر ..

قالت قمر :

ـ أهلا وسهلا .. كيف أحوال البلد ؟ .

قـالوا :

ـ بخير .. كلهم يهدونك السلام .

قـالت :

ـ وبيتنا فى زاوية .. ؟

ـ كما تركتموه .. ينتظر عودتكم ...

ـ ولكنا لا نستطيع العودة قريبا ..

ـ نرجو أن تعودوا بخير .

قـال :

ـ للضرورة أحكام .. ليتنى أعود هذه اللحظة .

قـالوا :

ـ يا مدام .. نحن نريد أن يوقع البيـان الذى جئنا به من البلد .

ـ أى بيان ؟ .

قـالوا :

ـ هو يعرف ما نريد جيدا ...

من خبرتها تعرف ما تحويه البيانات . لا تنسى عندما زارته مرة منذ سـنوات فى معتقله . أحضروا لها بيانا ليوقعـه حتى يفرجوا عنه . كان مضمونه أن يتخلى عن الوقوف بجوار الفقراء.

رفض التوقيع ، فبقى فى معتقله . انهم يعاودون المحـاولة من جديد ، الاستنكار من جديد .

هى تعرف زوجها . لن يستنكر الوقوف بجوار الفقراء ، حتى وهو على فراش الموت . ما أهميـة توقيعـه الآن ؟ . هو ذاهب الى الموت ، ما أقسى أحكام هؤلاء الزائرين ؟ ! . الا تكفيهم توقيعات الأصحاء ؟ . يريدون توقيعات ...

ووضعت زوجته يدها فوق جبهته . كانت باردة تماما . حركت ذراعه . فلانت معها الذراع . أشـارت الى ابنها أن يترك المكان .

دفع الفضول الولد الصغير ليسأل :

ـ ومن هؤلاء يا ماما ؟

قـالت :

ـ هؤلاء زوار من البلد يا حبيبى .

قـال :

ـ جاءوا ليحضروا عيد ميلادى ...

سكتت الأم ، فقالوا :

ـ كل سنة وأنت طيب يا لطيف ...

وافاق من اغماءته . زادت سيولة دموعه . جاءوا لأوقـع بيان الاستنكار يا ولدى . عيد ميلادك يوم تشرق شمس الحرية والرخاء فى وطنك . مازال البيان فى يده . وصينية الشـاى على كف زوجته ، والخناجر تحت معاطفهم ، والسـؤال الملح على الألسـنة .

ـ هل توقع البيان ؟ .

قالت الزوجة :

اشربوا الشاى اولا ...

مدوا أياديهم الى صينية الشاى ، ظلوا يرتشفون منتظرين، وهو يقرأ من جديد . استنكر بشدة ما حدث أخيرا .. ونحن جنودك الى النهاية .. وزاغ بصره فى الحاضرين ، لم يعد يقوى على الرفض أو القبول . انهارت منه ذرات الجسد .. لكن معناه ظل قائما .. قصف القلم فى يده .. وانحنى على جانبه الأيسر .. طلب جرعة ماء .. شربها .. ثم راح فى سبات عميق .

قـــدمان

في كل صـــباح كنا نشـــتاق الى رؤيتها ، نتطلع عليهـــا من النافذة . نرتاح لطيفها . لم نكن نعرف اسمها او عملها أو سـبب حضورها . في البداية لم يشغلنا الأمر ، لكن الفضول كان يدفعنا في بعض الأحيان أن نزيد يقظتنا . امرأة ممتلئة الجسم ، بيضاء تضـع على عينيهـا نظـارتين شفافتين .. في قوة الحصان .. حادة النظرات .. تدب على الأرض بخطوات ثابتة . تقف بجوار بيت صديقتها .. تتلهف لخروجها . وبعد مدة تترك الصديقة البيت مع ابنتيها الصغيرتين . احداهما في يدها اليمنى والأخرى في اليسرى . تقبلهما المرأة المنتظرة .. تتسلمهما .. الى اين ؟.. يتكرر الانتظار والقبلات والبهجة الداخلية أمامنا كل صباح . تمر الأيام . نعرف أن أم الطفلين تعمل مدرســة موسيقى ، هل الأخرى مدرسة أيضا ؟ لم نعرف اسمها وان كانت تعلق مصحفا على صــدرها . تلك كانت المشكلة وما تزال ، ان نعرف المزيد عنها . الآن لم يعد الاسم مهما . نريد أن نراها هي ، انقطعت

عن المجيء . كان الأمر مجرد فضــول . لكنه انقلب الى اهتمام.
والاهتمام تطلب البحث..أين نبحث عنها ؟ . لنسأل الجيران ..
لكن كل جار فى حاله وهمومه . لم يعد أحد يهتم بالآخر . كانت
هذه المراة هى الحبل السرى الذى يربطنــا بالمكان . وبمجرد
اختفائها اختفت صديقتها واختفت الطفلتان جف الشارع من
ابتسـامة كل صباح . أصبح قفرا من الخطوات الموقعــة المنتظرة
الملهوفة . شيء لا يهمنا . ينبغى أن نتجاهله . حاولنا لمدة أيام ،
ولكن الاهتمام عاد الى عقولنا ، ثم طرق أحزاننا القديمــة . قالت
لى زوجتى فجــأة :

ــ الست المدرسة لم تعد تأتى ...

صهينت عن عمد :

ــ يعنى ..

قالت زوجتى :

ــ يعنى ايه ؟ ..

قــلت :

ــ تلاقيها انتقلت الى مدرسة ثانية ..

قالت الزوجة :

ــ اصل مارى تنزل تجيب اللبن كل يوم ..

قــلت :

ــ وهى مالها ومال اللبن ؟

قالت :

ـ ازاى .. ماهيــه اللى كانت بتجيب اللبن كل يوم ..
انت مش فاكر ؟

ضغطت على هواجسى القلقة ..

ـ مش مشكلة .. أهم بناتها ..

خرخشت فى صدرى ضحكات الطفلتين مع ضحكاتها ذات صباح . كنت أشعر بالكآبة .. أصبح الأمر يهمنى .. ضاقت المسافة بينى وبين الغائبــة الحــاضرة . لا أحب أن تضيع منى الفرصة دون أن أعرف .. لم أتعود أن أكون متفرجا حتى النهاية. أنفــاس البشر تدفىء روحى . خطواتهم على الأرض تزيد قامتى ارتفاعا . أعشق كلماتهم حتى بعد أن تطير فى الأثير .. الانسان هو حبى فى الحياة . شىء ما أرقنى طوال الليل . أين راحت صاحبة النظارتين الشفافتين ؟ ! . علمت أنها عانس . هل اكتفت من الدنيا بصــداقة الطفلتين ؟ . تنتظرهما فى الصباح لتوصلهما الى المدرســة ، ثم تعود بهما بعد الظهــر . وفى النظرات وتوقيــع الخطوات والقبلات .. وفى احضار اللبن .. تعرف الحب . لم تعد الطفلتان تخرجان فى الميعاد المحدد . غشيت عيوننا فى كل صباح . شىء ما انكسر فى قلوبنا .. بلورة نقية كنا نحرص على الاحتفاظ بها . آه لو نعرف اسمها . بعض التفاصيل عن حياتها اليومية الأخرى . ودبت البلادة فى الشارع رغم عشرات التلاميذ والتلميذات الذاهبات الى المدرســة . لمــاذا اختفت صــاحبــة المصحف ؟ . سكنت الموسيقى المنبعثــة من بيت المدرســة .. احتجبت الطفلتان فترة طويلة . لا ندرى سببا لذلك .. ظللنا نحتفظ بقلقنا وحزننا فى داخلنا لا نبوح به الى أحد . كنا نتصور أنها ســوف تعود ، تدب على الأرض بحيويتها . يسرى فى شارعنا

روحها الودود ، وطيفها المرفرف . الى من نشكوقلقنا ؟ لماذا يأرق الانسان من أجل أخيه الانسان الى هذه الدرجة دون أن يعرفه ؟ هل نحن فى ساحة حرب . فقدنا أحد الرفاق ؟ . وبعد مرور الأيام ظللتنا سحب اليأس من عودة محبة الحياة . كنا نعرف أن مرور الأيام ربما ينسينا ما حدث ، وهو عابر فى شارعنا . لكن دائرة الشوق ظلت تتسع وتتسع الى أن تحكمت فينا تماما . اختفى رمز التفاؤل من أعيننا . أجدب الصباح فى قلوبنا .

قالت زوجتى :

ـ هل يمكن أن نسأل المدرسة ؟ .

قلت :

ـ أخشى ذلك ، من يدرى ؟

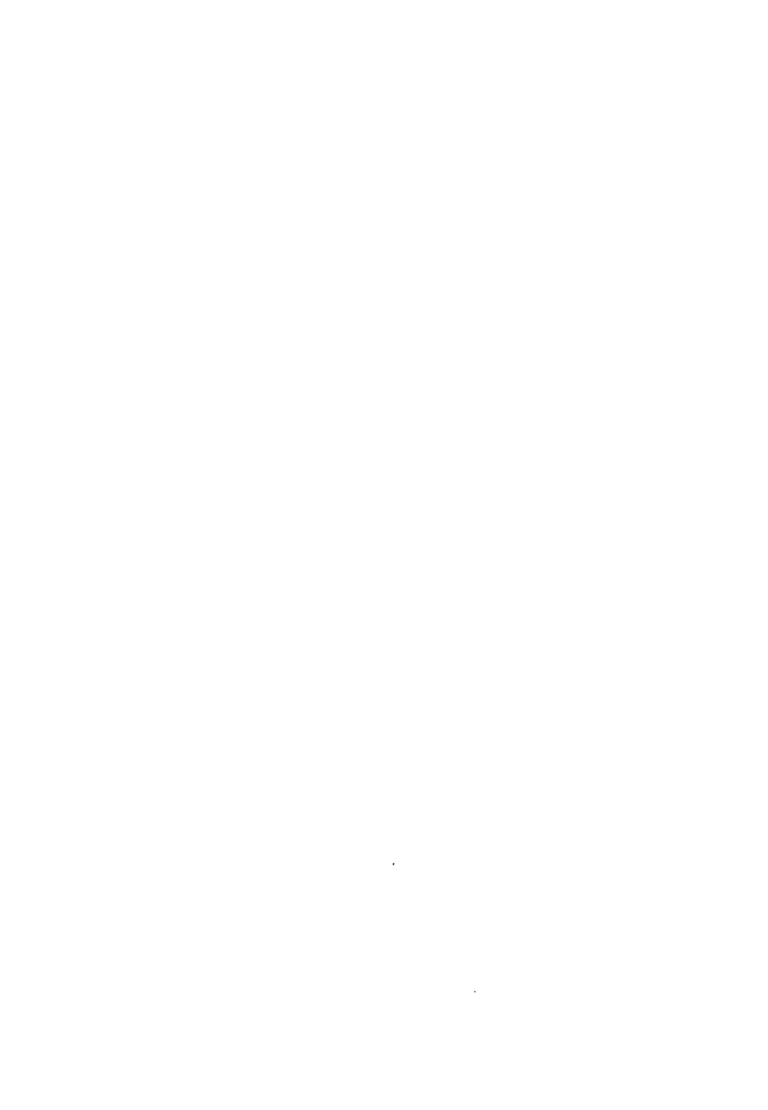
ـ لا أنكر انى متشائمة .. ما الذى حدث ؟

لم أستطع أن أرد عليها . طويت مخاوفى فى داخلى . البوح صعب . خطر لى أن أكتب قصيدة شعر حتى أنفس عن مشاعرى المكبوتة ، فلم أقدر . ضاعت الكلمات والخيال . كيف ألجأ الى رموز الكلمات أمام لحم الواقع ودمه .. ؟ . أصابنى نوع من الهم الدائم الذى يصاحبنى فى غدوى ورواحى . توقفت فى الشرفة أتأمل . كانت الشمس تلقى بضوئها المتوهج على المكان. ضحى حلوان الفريد ينعش الروح . استرخيت على مقعد فى عين الشمس . كنت أحب أن آخذ حماما من الدفء اللذيذ .. ندمت على انى اضيع الوقت فى الهواجس والظنون التى لا معنى لها ، ثم عدت أركز بصرى على المكان الذى كانت تلتقى فيه الطفلتان

بالمراة . تسمرت نظراتى على مساحة بعينها ، هنا كانت تنفجر الضحكات ، يمتلىء الأثير بالحمـــاس ، تكتسب الأرض رونقهـــا وأهميتها بخطوات الانسان وأنفاســـه . هنا كانت تنتشر الرغبات والأمنيات فى كل صباح جديد .

ولم أرفع عينى الا على مدرســـة الموسيقى أم الطفلتين وهى تتشح بالسواد .

لحظتها ادركت كل شىء . وبمرور الأيام تحول الهم الى حزن ، ثم تحول الحزن الى صمت ، ثم راح الصمت ينفجر الى نتف صغيرة حادة من الغيظ .. وكان آخر ما رأيناه فى شارعنا قدمين صغيرتين ، لاحـــدى الطفلتين تجرهما فى تعب .. وحيدة مكتئبـــة .



الفهـــرس

الصفحة

اهــــداء ٣

آدم الصـــغير ٥

طـائر الأمـل ٧

فى أحضان الصباح ١٩

قبـلة المسـاء ٣١

آدم الصـــغير ٤٢

التوامـان ٥٤

كلنـــا فقـراء ٧٣

الحفـــل ٧٩

جنون الربيـع ٩٤

أخبـــار كاذبـة ١٠٧

استيقظوا أيها الموتى ١١١

مهـرج الملك ١١٩

الصفحة

الابن العاشـــر ١٢٤
لحظة ســعادة ١٣٢
عــابرو ســبيل ١٣٩
لعبة الطائرات الورقيــة ١٤١
بــوذا الجــديد ١٤٨
عابرو ... ســبيل ١٥٤
البهــلوان ١٦١
أحــلام ضائعة ١٧٠
انتقـــــام ١٧٨
قرنفلة من وادى المــوت ١٩١
قصاصات ورق ١٩٧
فنجــان قهــوة ٢١٣
الرحـــــلة ٢٢٨
القوقعــة ٢٣٥
أين تذهب هــذا المساء ٢٣٩
أشياء تحــدث كل يوم ٢٤٦
عنتر .. وعبلة ٢٥٣

الصفحة

هـذه الرائحة	٢٦٤
لفـة الكنافـة	٢٧١
وردة	٢٧٥
ميـلاد جـديد	٢٧٧
العصـــفورة	٢٧٩
صوم على الطريقة الطفولية	٢٨١
المهـــاجر الصـغير	٢٨٥
الحــذاء	٢٨٧
قـاتل زوجتـه	٢٨٩
الخـروف والطفـل	٢٩٢
الكتكوت الفصـيح	٢٩٥
فنـــان	٢٩٨
الجـرح والوردة	٣٠١
كلمـة صغـيرة	٣٠٣
النجـم الصغـــير	٣٠٧
نحـو النهـــر	٣١١
الصـديق والنخـلة	٣١٥

الصفحة

الجرح والوردة ٣٢٢
بشير الأمل ٣٢٧
آدم العربى ٣٣٢
الكئيب والزهرة ٣٤٣
مملكة الكتاكيت الفلسفية ٣٤٨
شبح المستر عبد القادر ٣٥٣
مساء الخير يا بلدى ٣٦٤
أريد أن أنام ٣٦٧
محب من مصر ٣٧٣
حلم ليلة شتاء ٣٨٢
بيان ٣٨٦
قدمان ٣٩٧

رقم الايداع ١٩٩٤/٧٨٧١

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 4066 — X

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

كان الهواء فى بلدتنا يتشبع بشحنات فياضة من الانتظار الآمل الوديع، مصحوبا بخشية واجفة يعرفها الفلاحون جيدا عندما يضحكون أو يبتهجون، فهم يشهقون بعد كل ضحكة أو تفاؤل، اللهم اجعله خيرا. وكلما دنا الليل، كبرت هذه الخشية، وضغطت على الصدور، نافذة إلى القلوب، محذرة، أن خففوا من رحيق الانطلاق الذى لا حدود له. وها هى ذى الشمس تغيب عند أفقها القانى، ويزداد رذاذ المطر شيئا فشيئا إلى أن يصبح مطرا حقيقيا. ثم يتساقط الثلج فى حجم كرات صغيرة على الرءوس. ويتعجب الفلاحون، فمنذ زمن بعيد لم يروا هذا الغضب الإلهى العاصف. وهم لا يعترضون عليه. فاللهم لا اعتراض ولا مانع، ولكنهم كانوا يتمنون أن يؤجل إلى وقت آخر. وحين خرج العريس من حمامه عند أحد الأصدقاء، كانوا يحملونه على أكفهم، متحدين به الأعداء والمجهول، أركبوه مهراً أصيلاً ليلفوا به البلدة، وكلهم وراءه تدمى أيديهم وحناجرهم من التصفيق والغناء.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٧٥ قرشاً